

الفصل الثاني : العدول عن التشابه اللفظي

للتناسب المعنوي

- أولاً : العدول عن التشابه بالمبدلات للتناسب المعنوي.
- ثانياً : العدول عن التشابه بالزوائد والنواقص للتناسب المعنوي.
- ثالثاً : العدول عن التشابه بالمقدم والمؤخر للتناسب المعنوي.

obeikandi.com

الفصل الثاني : العدول عن التشابه اللفظي للتناسب المعنوي:

أشرنا في غير موضع من هذا البحث إلى أن العدول عن التشابه لمراعاة التناسب في النظم وللتنبية عليه، ومع أن هذا التناسب مراعى في كل ألفاظ القرآن وتراكيبه، وفي آياته وسوره، فإن للعدول عن التشابه مزية على ذلك كله، لأنه أولاً أشد في التنبيه على التناسب، ولأنه ثانياً أقوى في الدلالة على بلوغه مرتبة الإعجاز، من حيث كان إيراد صور متباينة في النظم - وأصل المعنى واحد - من الأمر الصعب الذي تتجلى فيه البلاغة وتظهر فيه الفصاحة، كما نقلنا عن الباقلاني وغيره، ولأنه ثالثاً أمثل مجال تطبيقي لإيضاح التناسب وكشف أسرار الإعجاز البياني، من حيث كان إيضاحه ذلك يستدعي المقارنة بين نصين من نوع واحد ومستوى بياني واحد، فلا يتجاوز القرآن الكريم. أشرنا إلى ذلك وسواه على سبيل الإجمال، والاستدلال بالآراء النظرية المجردة التي تجري مجرى الحكم العام، وهذا موضع إثبات ذلك بالتطبيق.

وسنفرد هذا الفصل للتطبيق على التناسب المعنوي، وسنخصص اللاحق باللفظي، وستتناول المتشابهات في المعنوي هنا تبعاً لأنواع العدول التي أجملناها في ثلاثة، عدول المبدلات، والزوائد والنواقص، والمقدم والمؤخر، وسنراعي تفصيلاتها في أثنائها.

ويقتضي التطبيق مراعاة أمور يُستحسن التنبيه على أهمها بين يديه، الأول إبداء الفرق المعنوي بين المتشابهين وتقديمه على المناسبة لترتيبها عليه في أكثر الأمثلة الثاني إبداء مناسبة التعبير بكل من اللفظين المعدول عنه وإليه وتقديم مناسبة الأول، لأن الغاية من مراعاة العدول للتناسب المعنوي وضع كل منهما موضعه المناسب له، فكان لابد من المقارنة بينهما من حيث التناسب. الثالث البدء في التمثيل في كل نوع من أنواع العدول التفصيلية بمتشابهات الموضوعات وإتباعها بمتشابهات القصص، القصة الواحدة فالقصتين المختلفتين ما أسعفتنا المادة بذلك .

أولاً : العدول عن التشابه بالمبدلات للتناسب المعنوي :

«المبدلات» مصطلح للمصنفين في المتشابه اللفظي وتوجيهه، يريدون به أنه حصل إبدال كلمة في أحد المتشابهين بأخرى في الثاني على سبيل العدول لا على سبيل جواز وقوع إحداهما مكان الأخرى . والمبدلات أنواع؛ فقد تكون لفظية أو حرفية أو تعقيبية أو صيغة كما تقدم في الفصل الأول .

ولم يتعرض المتكلمون على الإعجاز لما يراعيه العدول عن التشابه بالمبدلات من تناسب معنوي مع ما لذلك من أهمية خاصة، وإنما تكلموا على ذلك التناسب في القرآن على وجه العموم؛ فاتفقوا على أن كل وحدة كلامية في القرآن لفظاً كانت أو حرفاً أو صيغة واقعة موقعها الأخص بها، ورأوا أن هذا خصيصة من خصائص القرآن الإعجازية، وسمة من سماته التي تميز بها من سائر الكلام، قال الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ): «وقد يستخفّ الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحقّ بذلك منها. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السَّعْب، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث. ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعاً، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال. وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج»^(١).

ورأى الخطابي (ت ٣٨٨ هـ) أن مراعاة القرآن وضع كل وحدة كلامية موضعها الأخص بها الأنسب لها، ولا سيما ما يُظن تراذفه، هي عمود بلاغته التي اجتمعت لها صفات

(١) الجاحظ، البيان والتبيين: ٢٠/١ .

الإعجاز، فقال: «ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة؛ ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، وكالنعت والصفة، وكقولك: اقعد واجلس، وبلى ونعم، وذلك وذاك، ومن وعن، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصفات»^(١). ثم قال: «والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبها في بعض معانيها، وإن كانا قد يشتركان في بعضها»^(٢).

ورأى الطوفي (ت ٧١٦ هـ) أن مما اختص به القرآن على سائر الكلام تمكن ألفاظه، فلو نُقل لفظ منه عن مكانه لاختل نظمه وانطمست بهجته^(٣).

وسلم مصطفى صادق الرافعي بمراعاة المناسبة في نظم كلمات القرآن، ولذلك أحال الباحث عن إعجازه على التغلغل في الأوجه المناسبة لوضع كل لفظ في موضعه، أو العدول عنه إلى غيره، أو اختيار الحرف أو الصيغة، فذكر أن مما يحقق إعجاز القرآن عند من يلتزمه «التغلغل في الوجوه التي من أجلها اختير كل لفظ في موضعه، أو عدل عنه إلى غيره، من حيث موافقته لمعنى الجملة ونظمها، ومن حيث دلالة في نفسه وملاءمته لغيره، ثم النظر في روابط الألفاظ والمعاني من الحروف والصيغ التي أقيمت عليها اللغة ووجه اختيار الحرف أو الصيغة، وموضع ذلك في الغناء والإبلاغ في الدلالة من سواه»^(٤).

والحاصل من تلك الآراء أن القرآن الكريم يراعي وضع كل لفظ أو حرف أو صيغة من المبدلات موضعه المناسب له الذي لا يحسن فيه غيره، وهو حكم ينطبق على الآيات

(١) ٢ الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٢٩.

(٢) ٣ السابق، والصفحة نفسها.

(٣) انظر: الطوفي، الإكسير: ٩٥.

(٤) الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب: ٢٥٩/٢.

المتشابهة، بل هو فيها أوضح من غيرها، وإنما يراعى ذلك فيها بالعدول عن التشابه بواسطة المبدلات. وهذا ما سنبينه هنا بعرض أمثلة من المبدلات اللفظية المتقاربة والمتباينة، فالحرفية فالتعقيبية فالصيغية .

أ. العدول بالمبدلات اللفظية للتناسب المعنوي :

«المبدلات اللفظية» كما بيّنا في أنواع المتشابهة هي إبدال فعل بآخر أو اسم بآخر إبدالاً مطابقاً لا صيغياً، ولما كان هذا الإبدال قد يقع بين متقاربين أو مترادفين، وبين متباينين، كان الأولى ترتيب الأمثلة على النوعين، وسنراعي في ذلك تقديم المتقارب على المتباين، ونقفي بأمثلة لعدول المبدلات من أسماء الله تعالى .

أ. العدول بالمبدلات اللفظية المتقاربة :

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠] المشابه لقوله في سورة لقمان ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ ^(١) [لقمان: ٢١] فالمتشابهان في إصرار الكفار على تقليد آبائهم واتباعهم على جهلهم وضلالهم، وقد عبر القرآن في الأول بـ ﴿أَلْفَيْنَا﴾، وعدل عنه في الثاني إلى ﴿وَجَدْنَا﴾.

واللفظان متقاربان في المعنى جداً حتى نُقل ترادفهما ^(٢)، مما جعل بعضهم يعلل العدول بالتفنن للفصاحة والإعجاز ^(٣)، وهو صحيح لكنه لا ينفرد عن التناسب، والتناسب يحتاج إلى تفريق. وقد فرق بينهما بعض من وجّه التشابه بأن وجد مشترك، يأتي بمعنى علم نحو وجدت زيداً جالساً، وبمعنى عثر على الشيء نحو وجدت الضالة، أما ألقى فلا يأتي إلا بمعنى العثر على الشيء. وفرقوا بينهما أيضاً من جهة التعدية، فذهب الخطيب الإسكافي ومن تابعه إلى أن وجد إذا كان بمعنى علم تعدى إلى مفعولين، وإذا كان بمعنى

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٨، والبرهان: ١٣٤، وملاك التأويل: ١٠٢/١، وكشف المعاني: ١٠٩، والعقد الجميل: ٢٦.

(٢) انظر: كشف الألفاظ الموهمة بالترادف في القرآن الكريم الذي صنعه محمد نور الدين المنجد وضمنه كتابه الترادف في القرآن الكريم، انظر منه ص ٢٣٦.

(٣) انظر: كشف المعاني: ١٠٩.

عشر فألى واحد، أما ألقى فلا يتعدى إلا إلى اثنين، ونازع أبو جعفر بن الزبير في ذلك ذاهباً إلى أن ألقى يتعدى إلى واحد فقط، ومنصوبه الثاني حال. ومهما يكن من أمر فإن حاصل هذه التفرقة أن ألقى أخص لأنه يطلق على وجود مخصوص، فإذا قيل: ألفت زيدا عاقلاً، كان المراد: وجدته على هذه الهيئة، بخلاف وجد فإنه يطلق على مطلق الوجود وعلى الوجود المخصوص^(١).

وبين أبو جعفر بن الزبير وجه التناسب مستنداً إلى القول الأول من الفرق، فقال في آية البقرة: «إِنَّهُ تَقْدِمُ قَبْلَ آيَةِ الْبَقَرَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ١٦٨] ثُمَّ قَالَ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩] وخطوات الشيطان وأمره أهواء مضلة، وذلك كله في طرف نقيض من مقتضى العلم. وحصل من هذا أن الشيطان هو الذي يأمرهم ويدعوهم إلى أن يقولوا على الله ما لا يعلمون، فحصل من هذا أنه لا علم عندهم ولا توهم علم، وأنهم اعتمدوا اتباع آبائهم فيما يأمر به الشيطان، فناسب هذا قولهم ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠] لأن ما ألقوا عليه آباءهم وجدان لا علم معه حاصلاً ولا متوهماً، فناسب جوابهم ما عليه حالهم وما هم عليه^(٢). أما آية لقمان فوق في سياقها ذكر علم، فاقترضت مراعاة التناسب العدول إلى لفظ ﴿وَجَدْنَا﴾ لدلالته على العلم، بين هذا أبو جعفر بن الزبير بقوله: «ولما تقدم في سورة لقمان قوله تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠] فحصل ذكر علم وإن كان منفيّاً، ولأن جدالهم منبئ أنهم توهموا أن ذلك علم وأنهم على شيء. فقد حصل من مجادلتهم أنهم يظنون أنهم على علم كما قال تعالى ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ [المجادلة: ١٨] ولا يجادل إلا متعلق بشبهة يظن أنها علم، فناسب قوله تعالى مخبراً عنهم ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١] لاشتراك لفظ وجد إذ يكون بمعنى العلم^(٣).

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٩، والبرهان: ١٣٤، وملاك التأويل: ١٠٣/١، والسيوطي، قطف الأزهار:

٣٧٠/١ - ٣٧١، ومعتك الأقران: ٧١/١.

(٢) ملاك التأويل: ١٠٣/١ - ١٠٤.

(٣) السابق: ١٤٠/١.

ووجه الخطيب الإسكافي - وتابعه بعضهم - العدول بمناسبة ترتيب المصحف، فذكر أنه لما كان ﴿أَلْفَيْنَا﴾ خاصاً كان وقوعه في سورة البقرة أولى لتقدمها في الترتيب، ولما كان ﴿وَجَدْنَا﴾ مشتركاً كان ذكره في المائدة أولى لتأخرها عن البقرة في الترتيب^(١)، لأن المناسب لترتيب المصحف إذا اجتمع في المتشابهين لفظان خاص ومشارك أن يكون الأول أخص من الثاني، فلما عُبر في الأول بالخاص ﴿أَلْفَيْنَا﴾ ناسب أن يُعدل في الثاني إلى التعبير بالمشارك ﴿وَجَدْنَا﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَلَمَّا أَتَيْنَا أَهْوَاءَهُمْ بِعَدِّ الْوَيْلِ﴾ [البقرة: ١٢٠] وفي سورة الرعد ﴿وَلَمَّا أَتَيْنَا أَهْوَاءَهُمْ بِعَدِّ الْوَيْلِ﴾ [الرعد: ٣٧]^(٢) فالمتشابهان في التحذير من اتباع اليهود والنصارى بعد ثبوت العلم ببطلان الكفر وبصحة الإسلام، ولكن ورد التعبير عن هذا العلم بـ ﴿الَّذِي﴾ في البقرة، وعُدل عنه إلى ﴿مَا﴾ في الرعد.

واللفظان اسمان موصولان يُعبر بأحدهما عن الآخر حتى ذهب بهما مذهب الترادف، ولذلك رأى بعضهم أن العدول هنا للتساع في العبارة^(٣)، وهو قول صحيح لكن لا بد من اقترانه بوجه مناسب، والمناسبة تقتضي البحث في الفرق.

وقد فرّق من تعرض لتوجيه هذا التشابه بين اللفظين بأن «الذي» تتضمن من البيان ما لا تتضمنه «ما»، فهي أبلغ منها في التعريف، وأقعد في الوصف، لأنها الأصل في الأسماء الموصولة، ولا تكون إلا معرفة، وتلزمها الألف واللام، وتدخل عليها أسماء الإشارة فتكون «الذي» صفة لها نحو ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ﴾ [الملك: ٢١] فيكتنفها بيانان الصلة بعدها والإشارة قبلها، وغير ذلك. أما «ما» فهي بخلاف ما ذكر لأنها أشد إبهاماً، وهي ملحقة بالمعارف، لأنها في الأصل نكرة موصوفة نُقلت للموصولية، وهي تتنكر مرة وتتعرف

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٩، والبرهان: ١٣٤، والسيوطي، قطف الأزهار: ٣٧١/١، ومعتزك الأقران: ٧١/١.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٢٥، والبرهان: ١٢٩ - ١٣٠، وملاك التأويل: ٨٥/١، وكشف المعاني: ١٠٤ - ١٠٥، والعقد الجميل: ٢٢.

(٣) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ٤٣٣/١.

أخرى، ولا تقع وصفاً لأسماء الإشارة^(١). وجملة الفرق أن «الذي» أصل في الموصول، وهي أشهر وأعرف، و«ما» ملحقة بالمعارف وأشد إبهاماً من «الذي».

وترتيباً على ذلك الفرق بين الخطيب الإسكافي ومن تابعه وجه مناسبة ﴿الَّذِي﴾ في آية البقرة لسياقه بأن العلم المعبر عنه فيها بـ ﴿الَّذِي﴾ هو العلم المتعلق بأصل ملة الإسلام وببطلان ملة اليهود والنصارى، لأن الله تعالى أخبر عن أهل الملتين بقوله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦] ثم قال مخاطباً رسوله ﷺ ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] وبين بعد ذلك ببطلان الملتين بأن دين الله هو الإسلام، فقال ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] أي الإسلام الذي بعثتك به هو الدين الحق المؤدي إلى رضا الله، ثم أتبعه التحذير من اتباع الملتين بقوله ﴿وَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَىٰ غَلَاظٍ أَنفَرَتْ مِنْهُمْ فَلَا تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] أي العلم بأصل دين الإسلام الذي هو الدين الحق، فلما كان هذا العلم متعلقاً بأصل الدين ناسب أن يُعبر عنه بـ ﴿الَّذِي﴾ الذي هو أصل في الموصولات. ثم إذا روعي كون ذلك العلم أفضل العلوم وأشهرها، وروعي ظهور أمر الملة للعقل، كان التعبير عن ذلك العلم بـ ﴿الَّذِي﴾ مناسباً من حيث كون «الذي» أشهر من «ما» في باب الموصول وأعرف منها وأظهر^(٢). أما العدول إلى ﴿مَا﴾ في آية الرعد فلمناسبة السياق القريب والسياق البعيد اللذين كانا لبعض العلم المذكور في البقرة كما بينوا، أما المناسبة الأولى فلأن السياق القريب لذكر القرآن والتحذير من اتباع أهواء أهل الكتاب فيما ينكرونه منه، وذلك قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ وَآمَنُوا بِأَنزُلِ إِلَيْنَا مِنَ الْآخِرَاتِ مِنْ يَدِكُمْ بَعْضَهُ﴾ [الرعد: ٣٦] ثم قال ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧] أي القرآن، ثم قال محدراً من اتباع

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٦، والبرهان: ١٢٩، وأبو حيان، البحر المحيط: ٤٣٣/١، والسيوطي، معترك الأقران: ٦٩/١، وابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير: الجزء الثاني، الكتاب الأول: ٣٨ - ٣٩.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٢٦ - ٢٧، والبرهان: ١٢٩، وكشف المعاني: ١٠٥، وأبو حيان، البحر المحيط: ٤٣٣/١، والبقاعي، نظم الدرر: ١٤١/٢ - ١٤٢، والسيوطي، قطف الأزهار: ٣١٨/١، ومعترك الأقران: ٦٩/١، وابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير: الجزء الثاني، الكتاب الأول: ٣٨ - ٣٩.

أهوائهم فيما ينكرونه منه ﴿وَلَيْنِ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [الرعد: ٣٧] أي العلم بصحة ذلك البعض الذي ينكرون - وهو بعض القرآن - فلما كان العلم بالقرآن بعض العلم بصحة الإسلام وملحقاً به، وكان قد عبّر عن العلم بصحة الإسلام بـ ﴿الَّذِي﴾ الذي هو الأبلغ في التعريف، ناسب أن يُعدل في التعبير عن العلم بالقرآن إلى ﴿مَا﴾ لأنها ملحقة بالمعارف^(١).

وأما العدول لمناسبة السياق البعيد فلأن هذا السياق لذكر الوحي كما بينوا، وذلك قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَبِثُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلْدَىٰ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٠] فلما كان الوحي من الغيبات، وكان معناه غامضاً، اقتضت المناسبة العدول عن ﴿الَّذِي﴾ إلى ﴿مَا﴾ لشدة إبهامها وخفاء معناها^(٢).

ومما يقرب من المثال السابق التشابه في قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦] وفيها أيضاً ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] وفي سورة الزمر ﴿وَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣) [الزمر: ٣٥] فقد عدل عن التعبير بـ ﴿مَا﴾ في الأوليين إلى ﴿الَّذِي﴾. والمتشابهات الثلاث في موضوع متقارب، فالأوليان في جزاء الصابرين، والثالثة في جزاء المحسنين، يدل عليه قوله ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي﴾ الآية [الزمر: ٣٥، ٣٤].

وقد فرّق أبو جعفر بن الزبير بين «ما» و «الذي» هنا بغير ما ذكرناه في المثال السابق، فذكر أن «الذي» مختص بالموصولية، والعهدية فيه أغلب من الجنسية، وهو أعرق في

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٧، والبرهان: ١٣٠، وكشف المعاني: ١٠٥، وأبو حيان، البحر المحيط :

٤٣٣/١، والسيوطي، قطف الأزهار: ٣١٨/١، ومعتزك الأقران: ٧٠/١.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ٣٥٨/١٠.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٤٠٦، والبرهان: ٣٢٢، وملاك التأويل: ٢/ ٦٢٦، والعقد الجميل: ١١٢.

التعريف . أما «ما» فتخرج عن الموصولية ولكن لا يفارقها معنى العموم إذا كانت اسماً شرطياً أو استفهامياً، ولا يفارقها الإبهام إذا كانت صلة أو تعجباً أو نكرة موصوفة، وبالجملة فالإطلاق أملك بها ^(١) .

وبين أبو جعفر المناسبة في وقوع ﴿مَا﴾ في آيتي النحل بأن الأولى مفتوحة بقوله تعالى ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] والمراد بـ ﴿مَا﴾ في المرتين هنا الإطلاق والعموم، والمعنى في كليهما جار مجرى الحصر والتعميم، وكأنه قيل : كل ما عندهم ينفد، وكل ما عند الله باق، فلما كان هذا السياق للعموم ناسب التعبير بـ ﴿مَا﴾ في آية النحل الأولى ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦]. وقريب من ذلك آية النحل الثانية كما بين، فإنها مفتوحة بـ ﴿مَنْ﴾ في قوله ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى﴾ [النحل: ٩٧] وبين «مَنْ» و«ما» تقارب، لما بينهما من معان مشتركة ليست لـ «الذي» فإن «الذي» لا تكون نكرة ولا استفهاماً ولا موصوفة ولا مبهمة، إذ لا تفارق التعريف، ثم كانت ﴿مَنْ﴾ هنا أجرى مع ما قصد من الاستغراق في قوله ﴿مَنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى﴾ [النحل: ٩٧]، فهذا وذاك وجهان مناسبان للتعبير بـ ﴿مَا﴾ المراد بها العموم في هذه الآية ^(٢). أما آية الزمر فهي بخلاف مشابهيها واردة في معنى الخصوص، فاقتضت المناسبة فيها العدول إلى اللفظ الأخص بالموصولية أي «الذي» وقد بين أبو جعفر بن الزبير هذه المناسبة بقوله: «وأما آية الزمر فواردة في معنى الخصوص المقصود به طائفة بعينها، ألا ترى ما قبلها من قوله تعالى ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣] والمراد (بالذي) جاء بالصدق رسول الله ﷺ، وبالذي صدق به متقدمو أصحابه ممن سبق وحسن تصديقه؛ كأبي بكر ﷺ ومن قارب حاله وجرى في نحو مضماره، وهؤلاء لا يشاركونهم في حالهم غيرهم، وفيهم ورد ما بعد، وإليهم مرجع الضمائر من قوله ﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣] وقوله ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٣٤] وقوله ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [الزمر: ٣٥] فلم يكن ليصلح هنا غير الأداة العهدية، فجاء بـ ﴿الَّذِي﴾ في الموضعين من قوله ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ

(١) انظر : ملاك التأويل : ٦٢٦/٢ - ٦٢٧ .

(٢) انظر السابق، والصفحة نفسها .

أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيهِمْ أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ [الزمر: ٣٥] ولم تكن ﴿مَا﴾ لتناسب هذا^(١).

وقد جاء هذا العدول من جهة أخرى مناسباً لمقصود السورة كما نبه البقاعي، لأن سورة النحل «مقصودها الدلالة على أنه تعالى تام القدرة والعلم، فاعل بالاختيار، منزّه عن شوائب النقص»^(٢) وسورة الزمر «مقصودها الدلالة على أنه سبحانه صادق الوعد، وأنه غالب لكل شيء، فلا يُعجل لأنه لا يفوته شيء، ويضع الأشياء في أوفق محالّها»^(٣) فمقصود سورة الزمر أخص، لأن صدق الوعد والغلبة ووضع الأشياء في أوفق محالّها بعض من تمام القدرة والعلم، ولهذا كان العدول إلى ﴿الَّذِي﴾ في سورة الزمر مناسباً من حيث كون «الذي» أخص بالموصولية من «ما» وأقل إبهاماً منها، وكان التعبير بـ ﴿مَا﴾ في آيتي النحل واقعاً الموقع المناسب له^(٤).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُغَنِّ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١] وفي سورة الطلاق ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾^(٥) [الطلاق: ٢] فالمتشابهان في موضوع الطلاق، ووقع فيهما عدول عن ﴿سَرِّحُوهُنَّ﴾ إلى ﴿فَارِقُوهُنَّ﴾.

واللفظان متقاربان في المعنى، بل مذكوران في الترادف^(٦)، ولكن ثمة فرق في مراعاة الجانب الشعوري من معنييهما «لأن لفظ الفراق أقرب إلى الإساءة من الإحسان»^(٧).

(١) ملاك التأويل: ٦٢٨/٢ - ٦٢٩. وما وضعناه بين قوسين بالذي هو في الأصل بلا باء، فزدناها لاقتضاء السياق لها.

(٢) البقاعي، نظم الدرر: ١٠١/١١.

(٣) السابق: ٤٣٦/١٦.

(٤) انظر السابق: ٥٠٨/١٦.

(٥) انظر: ملاك التأويل: ١٢٤/١، والعقد الجميل: ٣٠ - ٣١.

(٦) انظر: المنجد، محمد نور الدين، كشف الألفاظ الموهمة بالترادف في القرآن الكريم ضمن كتابه الترادف في القرآن الكريم: ٢٤٦.

(٧) ملاك التأويل: ١٢٤/١.

وقد رأى أبو جعفر بن الزبير أن التعبير بـ ﴿سَرَّحُوهُنَّ﴾ مناسب بالنظر إلى ذلك الفرق، لأن التعبير به ورد في سياق آيات روعي فيها مقصد التلطف وتحسين الحال بين الرجال والأزواج في الصحبة والافتراق^(١)، كما في قوله تعالى ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩] أي إن طلقها تطليقتين فليتق الله في الثالثة؛ بحسن عشرتها إن أراد مراجعتها، وبعدم ظلمها شيئاً من حقها إن أراد طلاقها^(٢)، وفي قوله تعالى أيضاً ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] فحرّم على الرجال إذا أرادوا التطليق مضايقة نسايتهم ليدفعن لهم ما أعطوهن من المهور إلا إن خاف الزوجان عدم رعاية حقوق الله في أمر الزوجية^(٣)، وفي قوله تعالى أيضاً ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١] فأمر بالإحسان إليهن في حالي المراجعة والتطليق. ثم في قوله ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْدُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣١] فنهى عن الإضرار بهنّ كأن يترك الرجل زوجه معتدة حتى إذا شارفت انقضاء العدة راجعها إرادة الإضرار بها ليحوجها إلى افتداء نفسها بالمال الذي أعطائها إياه مهرأ^(٤). ثم في قوله تعالى ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْصُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢] فأمر الأولياء بعدم منع النساء من العودة إلى أزواجهن إذا صلحت الأحوال بين الزوجين^(٥). فكل ذلك مُفهِم الأمر بمجاملتهن والإحسان إليهن في حالي الاتصال والانفصال، ولهذا كان التعبير بـ ﴿سَرَّحُوهُنَّ﴾ واقعاً موقعه المناسب^(٦). أما آية الطلاق فلم يجز فيما قبلها ولا بعدها ذكر لمضاربة ولا تعرض لعضل، ولا روعي فيها جانب المراجعة والإبقاء على الاتصال إلا في قوله ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] كما ذكر

(١) انظر السابق، والصفحة نفسها.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٢٧٢/١.

(٣) انظر السابق، والصفحة نفسها.

(٤) انظر: الأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ٧٨/١.

(٥) انظر السابق، والصفحة نفسها.

(٦) انظر: ملاك التأويل: ١٢٤/١.

أبو جعفر^(١)، ودارت آيات السورة المتعلقة بالطلاق بعد ذلك على أحكام الانفصال الذي هو فراق، فكان العدول إلى ﴿فَارْقُوهُنَّ﴾ أنسب.

ومن أمثلة العدول عن التشابه في القصص قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠] وفي سورة الأعراف ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذْ أَسْتَسْقَىٰ قَوْمُهُ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾^(٢) [الأعراف: ١٦٠] فالمتشابهان في قصة بني إسرائيل، وهي قصة واحدة، والآيتان في جزئية واحدة، هي طلب السقيا، ومع ذلك عبر القرآن بـ ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ في البقرة، وعدل عنه إلى ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ في الأعراف، والتدقيق في السياقين يُبدي أن ذلك مقصود به التناسب، وشرح ذلك يستوجب التفريق أولاً، إذ إن اللفظين متقاربان في المعنى جداً، بل قد نقل بعضهم ترادفهما^(٣).

وقد فرق أصحاب توجيه المتشابه بين اللفظين من أوجه، منها أن الانفجار انصباب الماء بكثرة، والانبجاس ظهوره، فالانفجار أبلغ^(٤). ومنها أن الانبجاس ابتداء الانفجار وأوله، والانفجار غاية له^(٥). ومنها أن الانفجار يدور معناه على انشقاق وسيلان وانبعث مع كثرة وانتشار واتساع، بخلاف الانبجاس فإن معناه يدور على الظهور والنبوع^(٦).

أما مناسبة العدول بالنظر إلى الوجه الأول من الفرق؛ أي كون الانفجار أبلغ، فهي أن سياق آية البقرة أبلغ من سياق آية الأعراف من أوجه، الأول ما نقله السيوطي عن صاحب المناجاة (ت ٨٣٢هـ) من أن سياق آية البقرة ذكر فيه استسقاء موسى عليه السلام في قوله

(١) انظر السابق: ١ : ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) انظر: البرهان: ١٢٥، وملاك التأويل: ١ : ٦٧، وكشف المعاني: ٩٨، والعقد الجميل: ١١ .

(٣) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ١ : ٢٢٨ .

(٤) انظر: البرهان: ١٢٥، وكشف المعاني: ٩٨، والسيوطي، قطف الأزهار: ١ : ٢٦١، ومعترك الأقران: ١ : ٦٨، والإنتان: ٢ : ٩٩٨ .

(٥) انظر: ملاك التأويل: ١ : ٦٧ .

(٦) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١ : ٤٠٥ .

تعالى ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: ٦٠] بخلاف سياق آية الأعراف فإنه ذكر فيه استسقاء قومه في قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَىٰ قَوْمُهُ﴾ [الأعراف: ١٦٠] واستسقاء موسى أبلغ لأنه طلب من ربه ^(١). والثاني ما ذكره الكرمانى من أنه وقع في سياق آية البقرة قوله تعالى ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠] أما سياق آية الأعراف فوقع فيه ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٠] بلا ذكر ﴿وَاشْرَبُوا﴾ فكان هذا أخف ^(٢).
والثالث ما ذكره ابن جماعة والبقاعي من أن السياق البعيد لآية الأعراف هو سياق ذكر النعم من لدن قوله تعالى ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلُ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وهو بخلاف السياق البعيد لآية الأعراف، لأنه مبني على توبيخ بني إسرائيل وذمهم على كفرهم بعد الإيمان من لدن قوله تعالى ﴿وَجَنُوزْنَا بِنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ^(٣) [الأعراف: ١٣٨]. فلهذه الأوجه كان سياق آية البقرة أبلغ، فناسبه التعبير باللفظ الأبلغ ﴿فَأَنْفَجَرْتُمْ﴾، ولما كان سياق آية الأعراف أخف، وكان فيه توبيخ وذم، اقتضى تحقيق التناسب العدول إلى لفظ أخف في باب نبوع الماء، فوقع التعبير بـ ﴿فَأَنْبَجَسْتُ﴾.

ويمكن أن يُراد على تلك الأوجه مما يدخل في باب الأبلغية أن الأمر بضرب الحجر وقع بلفظ ﴿فَقُلْنَا﴾ في سياق آية البقرة ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [البقرة: ٦٠] أما في الأعراف فبلفظ ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ في قوله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَىٰ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [الأعراف: ١٦٠] والتعبير بالقول أبلغ في باب الظهور من التعبير بالإيحاء، فناسب الإيحاء العدول إلى اللفظ الأخف.

ويدخل في باب الأبلغية مناسبة العدول بالنظر إلى الوجه الثالث من أوجه الفرق المذكورة سابقاً، لأن معاني الانشقاق والسيلان والانتساع والكثرة التي يدور عليها الانفجار

(١) انظر: السيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٦٢.

(٢) انظر: البرهان: ١٢٥، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٦١ - ٢٦٢.

(٣) انظر: كشف المعاني: ٩٨ وقارن بـ ٩٧، وانظر أيضاً: البقاعي، نظم الدرر: ٨: ١٣٣، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٦٢، ومعتزك الأقران: ١: ٦٨، والإتقان: ٢: ٩٩٨.

أبلغ من معنيي النبوع والظهور اللذين يدور عليهما الانبجاس. وعلى أية حال فإن تلك المعاني التي يدور عليها الانفجار مناسبة لسياق آية البقرة الذي هو لامتنان بالنعمة كما نبه البقاعي. ولما كان سياق آية الأعراف للتوبيخ والذم كان المناسب العدول إلى ما يدل على مجرد النبوع والظهور، فورد التعبير بـ ﴿فَأَنْبَجَسَتْ﴾ كما نبه البقاعي^(١).

وأما مناسبة العدول بالنظر إلى الوجه الثاني من أوجه التفريق فتدور على اختلاف حكاية طلب السقيا في الآيتين ما بين ابتداء وغاية، ففي الأعراف حُكي ابتداء الطلب، إذ طلب قوم موسى السقيا منه، قال تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ [الأعراف: ١٦٠] وفي البقرة حُكِيت الغاية، إذ طلب موسى السقيا من ربه، قال تعالى ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: ٦٠] فكان المناسب هنا التعبير عن ظهور الماء بالانفجار الذي هو غاية الانبجاس، والمناسب في الأعراف العدول إلى ما فيه معنى الابتداء في ظهور الماء، وهو الانبجاس كما نبه أبو جعفر بن الزبير^(٢).

ومن أمثلة التشابه الواقع في قصة واحدة أيضاً قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١] وفي سورة الشعراء ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾^(٣) [الشعراء: ٣٦] فالمتشابهان في قصة موسى عليه السلام، ويتناولان منها مشاورة فرعون لملكه وقومه في أمر موسى وهو يريد حملهم على تكذيبه، إذ أخبر الله عنه أنه قال في موسى ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٦] أي أخر أمرهما، ومع أن القصة واحدة، والجزئية واحدة، اختلف تعبير القرآن عن ذلك، فعبر في الأعراف بـ ﴿أَرْسَلْ﴾ وعدل عنه إلى ﴿أَبْعَثْ﴾ في الشعراء.

واللفظان متقاربان في المعنى جداً، ويُستعمل أحدهما مكان الآخر لأنهما مترادفان^(٤)، بيد أن «أرسل» يختص بما لا يختص به بعث، لأن البعث لا يتضمن ترتيباً،

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١: ٤٠٥، و ٨: ١٣٣.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ١: ٦٨، والسيوطي، معترك الأقران: ٣: ٨.

(٣) انظر: درة التنزيل: ١٧٠، والبرهان: ١٩٧، وملاك التأويل: ١: ٤٣٤، وكشف المعاني: ١٨٦، والعقد الجميل: ٨٤.

(٤) انظر: درة التنزيل: ١٧٠، والمنجد، محمد نور الدين، كشف الألفاظ الموهمة بالترادف في القرآن الكريم ضمن كتابه الترادف في القرآن الكريم: ٢٣٤.

والإرسال أصله تنفيذ من فوق إلى أسفل»^(١). فهو يتضمن نوعاً من الفوقية والعلو^(٢). وثمة فرق آخر، هو أن «أرسلَ أخص في باب الإرسال من ابعث، إذ لا يقال: أرسلَ إلا فيما كان توجيهاً فيه معنى الانتقال حقيقة أو مجازاً، أما بعث فأوسع، فإنه يقع بمعنى الإرسال وبمعنى البعث الآخرأي، ففيه اشتراك»^(٣) ومجمل الفرق أن أرسل خاص بالانتقال وفيه نوع من الفوقية والعلو، أما بعث فمشارك وليس فيه ذلك النوع.

أما مناسبة وقوع ﴿أَرْسَلَ﴾ في آية الأعراف فهو كما بين الخطيب الإسكافي -وتابعه الكرمانى- أن فرعون تعالى على العامة ولم يشاورهم بنفسه، وإنما أخبر عنه ملؤه، أي أشراف قومه، وذلك قوله تعالى ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴿الأعراف: ١٠٩-١١٠﴾ فأجاب العامة فيما أخبر الله عنهم ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ﴾ [الأعراف: ١١١] فلما تعالى عليهم ولم يكلمهم بنفسه كانت الحكاية باللفظ الذي فيه نوع علو وفوقية أنسب^(٤). وقيل: إن قوله تعالى ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠] هو من قول الملأ، قالوه لفرعون وحده تفخيماً وتعظيماً^(٥)، فعلى هذا جرى خطابهم له بـ ﴿أَرْسَلَ﴾ فكان مناسباً لما فيه من التفخيم والتعظيم له كما ذكر الكرمانى وغيره^(٦). وأما مناسبة العدول إلى ﴿أَبَعَثَ﴾ في سورة الشعراء فهي زوال مقتضى التفخيم والعلو لأنه - كما نبه الخطيب الإسكافي ومتابعوه - صُدِّرَ الكلام فيها بأنه هو القائل للملأ، قال تعالى مخبراً عنه ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] فكان الأنسب لتنازله معهم ومشاورته لهم أن يُحكى خطابهم له بلفظ خالٍ من معنى الفوقية والعلو، فاقضى إحراز هذا التناسب العدول إلى ﴿أَبَعَثَ﴾^(٧).

-
- (١) درة التنزيل: ١٧٠.
(٢) انظر: البرهان: ١٩٧، وكشف المعاني: ١٨٦، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ١٠٣٩.
(٣) ملاك التأويل: ١: ٤٣٩.
(٤) انظر: درة التنزيل: ١٧٠ - ١٧١، والبرهان: ١٩٧.
(٥) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٧: ٢٥٧.
(٦) انظر: البرهان، ١٩٧، وكشف المعاني: ١٨٦، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ١٠٣٩.
(٧) انظر: درة التنزيل: ١٧١، والبرهان: ١٩٧، وكشف المعاني: ١٨٦ - ١٨٧، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ١٠٣٩.

وأضاف أبو جعفر بن الزبير مناسبة العدول لترتيب المصحف، وذكر أن مثل هذه المناسبة مطردة، وبيان ذلك أن المراعى في الترتيب إذا اجتمع لفظان في المتشابهين خاص ومشارك، أن يُقدم الخاص ويؤخر المشترك، فلما كان ﴿أَزْسَلُ﴾ خاصاً ناسب أن يُعبر به في سورة الأعراف لتقدمها على الشعراء، ولما أُريد التنويع في العبارة كان المناسب أن يُعبر باللفظ المشترك ﴿أَبْعَثُ﴾ مراعاة للمطرّد في الترتيب^(١). وهو وجه غير وجيه كما بيّنا في منهج التوجيه.

ومن أمثلة العدول عن التشابه في القصة الواحدة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وفي سورة الحجر ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾^(٢) [ص: ٧١] فالمتشابهات الثلاث في قصة آدم، وتتعلق منها بابتداء خلقه، وقد عبر القرآن في الأولى بـ ﴿جَاعِلٌ﴾، وعُدل عنه في الآخرين إلى ﴿خَلَقُ﴾.

واللفظان متقاربان في المعنى ومذكوران فيما ترادف من ألفاظ القرآن^(٣)، ولكن بينهما فرق لأن «جعل إذا كان بمعنى خلق يُستعمل في الشيء يتجدد ويتكرر، كقوله ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] لأنهما يتجددان زماناً بعد زماناً»^(٤).

أما وجه المناسبة فهو ما بينه الكرمانى من أن ﴿جَاعِلٌ﴾ وقع بإزاء ﴿خَلِيفَةً﴾ في سورة البقرة، ولفظ الخليفة فيه معنى التجدد، لأنه يدل على أن بعضهم يخلف بعضاً إلى يوم القيامة. أما العدول إلى ﴿خَلَقُ﴾ فلأنه وقع بإزاء ﴿بَشَرًا﴾، وليس في هذا اللفظ دلالة على التجدد والتكرار، فناسبه أتم مناسبة^(٥).

ومن أمثلة العدول عن التشابه في القصتين المختلفتين قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠] عقب حكايته عن زكريا عليه السلام أنه سأل

(١) انظر: ملاك التأويل: ١: ٤٣٩.

(٢) انظر: البرهان: ٢٣٧، والعقد الجميل: ٧ - ٨.

(٣) انظر: الكفوي، الكليات: ٢٩، والمنجد، محمد نور الدين، كشف الألفاظ الموهمة بالترادف في القرآن الكريم ضمن كتابه الترادف في القرآن الكريم: ٢٣٣.

(٤) البرهان: ٢٣٨.

(٥) انظر السابق، والصفحة نفسها.

الله ولداً، وأن الملائكة بشرته باستجابة الله له وأنه سيولد له يحيى عليه السلام على كبر سنه وعقر امرأته، وأنه استعظم قدرة الله تعالى فقال فيما أخبر الله عنه ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠] فأجيب بقوله تعالى ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠] فهذا في قصة زكريا، وشابهه قوله تعالى في قصة مريم ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾^(١) [آل عمران: ٤٧] عقب حكايته عن تبشير الملائكة لمريم بولادة المسيح عليه السلام، وأن مريم استعظمت قدرة الله تعالى فقالت فيما أخبر الله عنها ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧] فأجيب بقوله تعالى ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧] فعبر القرآن بـ ﴿يَفْعَلُ﴾ في قصة زكريا، وعدل عنه إلى ﴿يَخْلُقُ﴾ في قصة مريم.

واللفظان متقاربان في المعنى^(٢)، بيد أن بينهما فرقاً في الاستعمال؛ فلفظ «الفعل يستعمل كثيراً فيما يجري على قانون الأسباب المعروفة، ولفظ الخلق يستعمل في الإبداع والإيجاد ولو بغير ما يُعرف من الأسباب، فيقال: خلق السموات والأرض، ولا يقال: فعل السموات والأرض»^(٣) ثم إن «الخلق أخص من الفعل، إذ كل خلق فعل وليس كل فعل خلقاً»^(٤).

ومما رُوعي بالعدول عن التشابه هنا المناسبة المبنية على اختلاف القصتين في الغرابة، وكون الثانية أعجب من الأولى وأخص منها، كما نبه جماعة وبينوا ذلك بأن ولادة يحيى من أب وأم داخلية في المألوف المعتاد، وجارية على ما تُعرف من الأسباب، وإن كانت آية لزكريا وزوجه من حيث كونه شيخاً هرمًا وكونها عاقراً، فلما كانت هذه الولادة جارية على الأسباب المعروفة كان المناسب أن يعبر في قصتها بالفعل الذي يكثر استعماله فيما يجري على قانون الأسباب المعروفة وهو ﴿يَفْعَلُ﴾. ولما كانت ولادة عيسى من أم بلا أب خارجة عن المتعارف كانت أبداع وأغرب، فاقتضت المناسبة العدول إلى لفظ يدل على الإبداع

(١) انظر: العقد الجميل: ٤٠.

(٢) انظر: الكفوي، الكليات: ٢٩.

(٣) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار: ٣: ٣٠٧.

(٤) الطوفي، الإكسير: ٣٩.

والإيجاد الخارج عما تعورف من الأسباب وهو لفظ ﴿يَخْلُقُ﴾. ثم لما كان هذا اللفظ أخص من ﴿يَفْعَلُ﴾ كان العدول إليه في هذه القصة أنسب من حيث كانت أخص من سابقتها؛ إذ إنها ولادة من غير أب وتلك من أبوين^(١).

وثمة مناسبة أخرى بالنظر إلى السياق نبه عليها البقاعي، وهي أنه حُكي في سياق الآية الواردة في قصة زكريا استنبأؤه عن الغلام في قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [آل عمران: ٤٠] ومادة هذه الكلمة تدور على معنى القوة والكمال لا معنى الخلق، فكان التعبير بـ ﴿يَفْعَلُ﴾ مناسباً لذلك. أما الآية الواردة في قصة مريم فحكي في سياقها استبعادها لمطلق الحبل والتكوين لعدم جريان ذلك على الأسباب، فلم تعين كونه ذكراً كما أخبر الله تعالى عنها ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧] فاقتضت المناسبة العدول إلى لفظ فيه معنى التكوين، فقبل ﴿يَخْلُقُ﴾^(٢).

ومن أمثلة العدول عن التشابه الجاري مجرى القصتين قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن يَبْدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦] وفي سورة فصلت ﴿وَلَئِن أَدْفَنُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأٍ مَّسَّتُهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] فما في الكهف وارد في قصة كافر منكر للبعث، وما في فصلت ليس في قصة لأن قبل الآية التي ذكرناها قوله تعالى ﴿لَا يَسْتَعْمِلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَكْتُمُ قَتْلًا﴾ [فصلت: ٤٩] ومع ذلك فالغاية الحاصلة من المتشابهين واحدة، وهي وصف حال المنكر للبعث^(٣)، ولذلك قلنا: إنهما يجريان مجرى القصتين، وقد عبر القرآن في الأولى بلفظ ﴿رُدِدْتُ﴾، وعدل عنه في الثانية إلى ﴿رُجِعْتُ﴾.

(١) انظر: الطوفي، الإكسير: ٣٩ - ٤٠، وأبو حيان، البحر المحيط: ٤٦٢/٢، والسيوطي، قطف الأزهار: ٥٩١/١ و ٥٩٣، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: ٣٦٣/١، والآلوسي، روح المعاني: ١٦٤/٣، ورضا، محمد رشيد، تفسير المنار: ٣٠٧/٣، وابن عاشور، محمد الطاهر: ٢٤٢/٣ و ٢٤٩.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ٤: ٤٠٠ - ٤٠١.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٢٨١ - ٢٨٢، والبرهان: ٢٥٦، وملاك التأويل: ٦٤٤/٢، وكشف المعاني: ٢٣٩ - ٢٤٠، والعقد الجميل: ١١٦.

(٤) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦٤٤.

ومعنى اللفظين متقارب، بل قد نُقل ترادفهما ^(١). ورأى بعض من وجه هذا التشابه أن بينهما فرقا؛ فمنهم من ذهب إلى أن الرد فيه معنى كراهية للمردود، بخلاف رجوع فليس فيه ذلك ^(٢)، ومنهم من ذهب إلى أن الرد يفهم معنى القهر والتعنيف بأكثرية الوقوع لا بأصل الوضع، أما رجوع فلا ^(٣). والمذهبان متقاربان كما هو واضح.

والوجه المناسب للعدول عن التشابه - كما بين الخطيب الإسكافي وغيره - اختلاف الحال بين صاحبي الآيتين على ما أفاده سياق كل منهما، فصاحب آية الكهف ذكر أن الله آتاه جنتين حوتا مراده واشتملتا على ما أراد، قال تعالى ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلُهُمَا وَلَمْ تَطْلُرْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ [الكهف: ٣٢-٣٣] فقدّر أن جنتيه تدومان له، قال تعالى ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٤] فلما وصفها بالخلود كان نقله عنها خلاف محبته، فناسبه التعبير باللفظ الذي يدل على الكراهة وهو ﴿رُودَتْ﴾، بخلاف آية فصلت إذ لم يقع في سياقها ما يناسب معنى الكراهية، ولا بالغ صاحبها في وصف ما كان عليه كما بالغ ذاك في وصف جنته، وإنما وقع في سياقها ذكر دعاء ورحمة بعد ضراء، قال تعالى ﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ ^(٤) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٤٩-٥٠] فكان المناسب هنا العدول إلى لفظ مرادف لرددت غير متضمن معنى الكراهة، وهو ما يحققه ﴿رُجِعْتُ﴾ ^(٤).

وثمة وجه آخر لمناسبة العدول بالنظر إلى ما يفهمه رد من معنى القهر والتعنيف، بينه أبو جعفر بن الزبير، وهو قريب من الأول لأن مداره على اختلاف حال من ضُرب به المثل في المتشابهين، فالذي في فصلت أرجى حالا من المذكور في الكهف، لكون صاحب آية

(١) انظر: المنجد، محمد نور الدين، كشاف الألفاظ الموهمة بالترادف في القرآن الكريم ضمن كتابه الترادف في القرآن الكريم: ٢٤٤.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٢٨٢.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٦٤٦/٢ - ٦٤٧.

(٤) انظر: درة التنزيل: ٢٨٢، والبرهان: ٢٥٦، وكشف المعاني: ٢٤٠، والآلوسي، روح المعاني: ٢٧٦/١٥.

الكهف أبعد عن الإيمان كما يبينه سياق الآية، إذ إنه «لا يكاد شيء من كلمها يجري في وصف المؤمن، ألا ترى ابتداء مطلع المذكور فيها مُخبراً عنه بقوله ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ [الكهف: ٣٥] وبقوله ﴿مَا أَظُنُّ أَن يُبَدَّ هَذِهِ أَبَدًا ۖ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦] ثم حكم لنفسه بعد إنكاره البعث باستحقاق ما عُجل له من جعل الجنة كما وُصفت فقال: ﴿وَلَكِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]»^(١). أما آية فصلت فافتتحت بصفة تعم المؤمن والكافر، قال تعالى ﴿لَا يَسْمُؤُاَ الْإِنْسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩] أي من أن يدعو لنفسه بالخير، وبهذه الصفة التي توجد في المؤمنين افتتح وصف من ضرب به المثل في الآية، وأُتبع وصفه بأنه قال ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَكِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وليس قوله: ﴿إِن لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ في موازنة قول صاحب آية الكهف مُقسماً: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] فناسب تمادي صاحب آية الكهف في الحكم لنفسه باستحقاق الخير أن يُعبر في قصته بلفظ يشعر بالقهر والتعنيف، ولما كانت حال صاحب آية فصلت أرجى ناسبها العدول إلى لفظ لا يشعر بقهر ولا تعنيف، ف قيل: ﴿رُجِعْتُ﴾^(٢).

٢. العدول بالمبدلات اللفظية المتباعدة:

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة الرعد ﴿وَكَذَٰلِكَ أُنزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧] وفي سورة طه ﴿وَكَذَٰلِكَ أُنزِلَتْهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(٣) [طه: ١١٣] فالمتشابهان في موضوع إنزال القرآن، بيد أنه سمي ﴿حُكْمًا﴾ في الرعد، وعُدل عنه إلى الاسم الأشهر في طه فقيل ﴿قُرْآنًا﴾، وذلك لمناسبة معنى كل منهما لسياقه.

والمناسبة في ذلك أن سياق آية الرعد لتفصيل حُكم الله سبحانه السابق في خلقه، وسياق آية طه لذكر قصص موسى عليه السلام، والقصص يناسبه معنى القراءة الذي يدل

(١) ملاك التأويل: ٢: ٦٤٥.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦٤٥ - ٦٤٦ - ٦٤٧.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٥٦٩، والعقد الجميل: ١٠٤.

عليه لفظ ﴿قُرْءَانًا﴾، بين هذا أبو جعفر بن الزبير فقال في آية الرعد: «لم يتقدم قبلها شيء من القصص الإخبارية، وإنما المتقدم فيها تفاصيل أحكام مرجعها بجملتها إلى اختلاف أحوال المكلفين جرياً على ما سبق من قضائه فيهم وتفصيل أحوالهم بحسب ما قدره سبحانه في أزلّه وما حكم به عليهم، كقوله سبحانه ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩] ثم بين تعالى حكم كل من الفريقين بعد وصفهم، ثم أعقب [بمآل] الفريقين فقال فيمن هداه بعلم ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢٣] إلى قوله ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]، وأتبع [بمآل] الآخرين الموصوفين بنقض عهده سبحانه، وأخبر بأن ﴿هُمْ أَلْفَنَةٌ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]، وبين تعالى حكمه في بسط الرزق لمن يشاء وقبضه عمن يشاء، فقال تعالى ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، وأعلم تعالى أنه ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، ثم وصفهم بإيمانهم واطمئنان قلوبهم بذكره وما منحهم بقوله ﴿وَالِإِيَّاهُ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩]، ودارت الآي بعدد على أن كل جبار في خلقه فبتقديره، وتناسب ذلك إلى الآية، وكل ما تقدم فهو حكمه سبحانه السابق في خلقه، فأعقب ذلك بقوله ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧]، قال الزمخشري: حكمة عربية، أي مترجمة بلسان العرب»^(١) ثم قال أبو جعفر في آية طه: «لما تقدم آية سورة طه قصص موسى، وما جرى من فتنة قومه بعده بفعل السامري، وما كان من قول هارون عليه السلام وتذكيره إياهم، وقول بني إسرائيل ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ﴾ [طه: ٩١] إلى قوله ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩] والمراد به القرآن، ثم أتبع هذا بما يلائمه إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣] أي قصصاً مقروءاً بلسان العرب مذكراً من وفق لاعتباره والاتعاظ به ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]»^(٢) فهذا السياق أولى بالاسم الذي فيه معنى القراءة، بل لا يناسبه إلا ذلك، فاقضى تحقيق المناسبة العدول إلى ﴿قُرْءَانًا﴾.

(١) ملاك التأويل: ٢: ٥٦٩ - ٥٧٠، وانظر ما نقله عن الزمخشري في الكشف: ٢: ٣٦٣. وما وضعناه بين قوسين هو في الأصل بحال، وأشار المحقق في حاشيته إلى أنه وقع في بعض نسخ المخطوط بمال، وكان عليه أن يثبت ذلك في المتن لأنه أنسب للمعنى.

(٢) ملاك التأويل: ٢: ٥٧٠ - ٥٧١.

ومن أمثلة العدول عن التشابه في الموضوع الواحد أيضاً قوله تعالى في سورة الرعد ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: ٣٢] وفي سورة الحج ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾^(١) [الحج: ٤٤] فقد عبر القرآن في الأولى بلفظ ﴿عِقَابِ﴾، وعدل في الثانية إلى ﴿نَكِيرِ﴾.

واللفظان متباينان من حيث كون «العقاب أشد موقعا من النكير، لأن الإنكار قد يقع على ما لا عقاب فيه بالفعل وعلى ما فيه العقاب بالفعل، أما مسمى العقاب وإنما يراد به في الغالب أخذ بعذاب مناسب لحال المجرم إثر معصيته وعقوب جريمته»^(٢).

والوجه المناسب للعدول كون آية الحج في سياق أخف من سياق مشابهتها؛ بين ذلك أبو جعفر بن الزبير فقال: «تقدم في آية الرعد قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَسْهَرْنَا أَنْفُسَنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الرعد: ٣٢] والاستهزاء أمر مرتكب زائد على التكذيب من التهاون والاستخفاف بجريمة مرتكبة أشنع جريمة، فناسبها الإفصاح بالعقاب. أما آية الحج فإن الوعيد فيها للمذكورين بالتكذيب، ولم يذكر منهم استهزاء، قال تعالى ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى﴾ [الحج: ٤٢، ٤٤] فلم يُخبر عن هؤلاء بغير التكذيب، وليس كالأستهزاء؛ فقد يؤمن المكذب ويصلح حاله، أما المستهزئ فلا يصلح، وقد كفى الله نبيه إياهم، فقال تعالى ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]^(٣) ولذلك كان العدول إلى الإنكار أنسب، فقل ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] وفي سورة المؤمنين ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾^(٤) [المؤمنون: ٥٢]، فوقع في الأولى ﴿فَاعْبُدُونِ﴾، وعدل عنه إلى ﴿فَاتَّقُونِ﴾.

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٥٦٨، والعقد الجميل: ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) ملاك التأويل: ٢: ٥٦٨.

(٣) السابق: ٢: ٥٦٨ - ٥٦٩.

(٤) انظر: درة التنزيل: ٣٠٣ - ٣٠٤، والبرهان: ٢٧٠، وملاك التأويل: ٢: ٧٠٧، وكشف المعاني:

٢٥٨، والعقد الجميل: ١٢٣.

واللفظان متباينان في المعنى، لأن العبادة الطاعة لله بتوحيده^(١)، والاتقاء اتخاذ العمل الصالح المستوجب للثواب وقايةً تمنع من العقاب، وهو مترتب على العبادة لأنها مأمور بها لحصول الاتقاء، وهو أبلغ منها في التخويف والتحذير^(٢). فبين اللفظين تباين واضح مع أن المتشابهين في شيء واحد هو الأمر باتباع ملة الإسلام التي اتفق عليها جميع الأنبياء، لأن الأمة هنا الملة، والإشارة بـ ﴿هَذِهِ﴾ إلى ملة الإسلام؛ أي ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تلتزموا بها فلا تنحرفوا عنها ملة واحدة غير مختلفة. وقيل غير ذلك، وجمهور المفسرين على ما ذكرناه، وهو الأظهر^(٣). وثمة أمر آخر تترتب عليه معرفة أوجه التناسب، وهو أن الخطاب في آية الأنبياء للناس كافة^(٤)، وقيل: لفرق الكفار الذين تفرقوا في الباطل^(٥)، والخطاب في آية المؤمنين للرسول ومن تبعهم من المؤمنين الخُلص، لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾^(٦) [المؤمنون: ٥١: ٥٢].

وقد أبدى من وجه هذا التشابه عدة أوجه من المناسبة التي راعاها العدول، يرجع كلها إلى النظر في أمرين، فيمن توجه إليه الخطاب في السورتين، وفي جملة القصص الواردة في كل منهما. ومدار الأول على أن الخطاب في آية الأنبياء لغير العابدين كما بين الخطيب الإسكافي ومن تابعه؛ وهم كما سبق فرق الكفار المتفرقة في طرق الباطل، أو كل الخلق، وأياً كان فالمناسب له الأمر بالعبادة التي هي التوحيد كما بين الخطيب الإسكافي ومن تابعه^(٧). ويقرب من قول من قال: كل الخلق، ما رآه البقاعي من أن تصدير السورة بالناس في قوله تعالى ﴿اقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] مناسب للتعبير بمطلق العبادة^(٨).

(١) انظر: الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: ٤: ٩، وقارن بالبرهان: ٢٧٠.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٣٠٦، وملاك التأويل: ٢: ٧٠٨، وأبو حيان، البحر المحيط: ٦: ٤٠٩.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٣٠٤، والآلوسي، روح المعاني: ١٧: ٨٩.

(٤) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٧٠٧.

(٥) انظر: درة التنزيل: ٣٠٥، والبرهان: ٢٧٠.

(٦) انظر: درة التنزيل: ٣٠٥، وقارن بالبرهان: ٢٧٠، وانظر أيضاً: الآلوسي، روح المعاني: ١٨: ٤٠.

(٧) انظر: درة التنزيل: ٣٠٥، والبرهان: ٢٧٠، وكشف المعاني: ٢٥٨.

(٨) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١٣: ١٥٦.

والخطاب في آية المؤمنين للرسول ومن تبعهم من المؤمنين الخالص كما تقدم، فكان الأنسب كما بين الخطيب الإسكافي ومن تابعه العدول إلى ﴿فَأَتَّقُوا﴾ لأن الأنبياء والمؤمنين مأمورون بالتقوى، وعلى ذلك جاء خطابهم في القرآن الكريم، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] وقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾^(١) [الحشر: ١٨]. كما أن العدول إلى ﴿فَأَتَّقُوا﴾ أنسب أيضاً من حيث كان أكثر من خوطب في سورة المؤمنين الأنبياء والمؤمنون فعُلب خطابهم على خطاب غيرهم فوق الأمر بالتقوى كما ذكر الخطيب الإسكافي^(٢). بيد أنه يعكّر على هذا الوجه وقوع الأمر بالتقوى كثيراً في خطاب الكفار غير العابدين وفي خطاب الناس أجمعين^(٣)، وإن كان الأكثر بنسبة ضئيلة مجيئه في خطاب الرسل والمؤمنين.

أما الأمر الثاني الذي تتبين مناسبة العدول فيه بالنظر في جملة القصص الواردة في السورتين فمداره على أن ما في سورة الأنبياء من تلك القصص مبني على التأنيس والالطف والإحسان، فكان المناسب له ﴿فَاعْبُدُون﴾، وما في سورة المؤمنين معدول به عن ذلك إلى ما فيه شوب تخويف، فكان الأنسب له العدول إلى ﴿فَأَتَّقُوا﴾ لما فيه من معنى التخويف، قال أبو جعفر بن الزبير: «إذا اعتبرنا ما قدم من قصص الرسل في السورتين وجدنا الوارد في سورة الأنبياء مقصوراً على ذكر منحهم وتخليصهم وتأبيدهم، من لدن قوله تعالى في إبراهيم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ [الأنبياء: ٥١] الآيات إلى قوله ﴿ءَابَاءَنَا هَٰؤُلَاءِ عِدِيدٌ﴾ [الأنبياء: ٥٣]، فتضمنت هذه (الآي) بضعة وعشرين نبياً؛ أولهم إبراهيم وآخرهم من أعقب ذكره بالآية المذكورة، وقد اقتصر من قصصهم في هذه (الآي) على ما يُطلع المؤمنين على تكفله سبحانه بالمصطفين من عباده وما اختصهم به، ولم يرد مع ذلك تكذيب قومهم لهم ولا ما

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٠٥ - ٣٠٦، والبرهان: ٢٧٠، وكشف المعاني: ٢٥٨، والبقاعي، نظم الدرر: ١٥٦: ١٣.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٣٠٦، وذكر نحو ذلك البقاعي في نظم الدرر: ١٣: ١٥٦.

(٣) من ذلك على سبيل المثال: النساء: ١، وهود: ٧٨، والحجر: ٦٩، والشعراء: ١٠٨ و ١١٠ و ١٢٦ و ١٣١ و ١٣٢ و ١٤٤، ويس: ٤٥، والزخرف: ٦٣.

يرجع إلى هذا، وكل هذا تأنيس وذكر نعم وآلاء وألطف يناسبها قوله ﴿فَاعْبُدُونِ﴾^(١). وقال في الآية الثانية: «وأما الوارد في سورة المؤمنين فتضمن الطرف الذي عدل عنه في سورة الأنبياء، وهو ذكر جواب الأمم للرسول وقبيح تكذيبهم إياهم، وشنيع ردهم وقبيح مقالهم، كقولهم في نوح عليه السلام: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] إلى قوله: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ * إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥. ٢٤] ثم بالغوا في الاستهزاء بقولهم في إخبار الله سبحانه عنهم ﴿فَتَرَضُّوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥] وقول أهل القرى المذكورين بعد قوم نوح لنبيهم ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرِبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤. ٣٣] إلى قوله ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ [المؤمنون: ٣٨]، وقوله تعالى لما تواتر ذكر إرسال الرسل وتكذيب قومهم لهم، فقال تعالى ﴿كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةً رُسُولُهَا كَذُوبٌ﴾ [المؤمنون: ٤٤] إلى قوله ﴿فَبَعْدَ الْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقال تعالى مخبراً عن قوم موسى ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦]، فناسب هذا التخويف قوله عقب هذا ﴿فَأَنْتَقُونَ﴾^(٢).

ونحا أبو حيان منحى أستاذه أبي جعفر، فذكر أن قوله تعالى ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ وقع بعد قصص أكثرها دال على الإحسان واللفظ، كما في قصة أيوب ويونس وزكريا ومريم، فكان الأمر بالعبادة مناسباً لذلك مقارنة بآية الأنبياء، إذ وقعت بعد قصص ذكر فيها إهلاك طوائف كثيرة من قوم نوح ومن بعدهم من الأمم، فكان المناسب لهذا الإهلاك العدول إلى ﴿فَأَنْتَقُونَ﴾ لما فيه من معنى التخويف^(٣)، ولم يكن يصلح هنا الأمر بالعبادة.

وأضاف أبو جعفر بن الزبير مناسبة ترتيب المصحف، فذكر أن التعبير بـ ﴿فَأَنْتَقُونَ﴾ في سورة المؤمنين مناسب لذلك الترتيب من حيث كان الاتصاف بالتقوى مترتباً على الاتصاف

(١) ملاك التأويل: ٧٠٩/٢، وما بين قوسين هو في الأصل الآية، والصواب ما ذكرناه.
(٢) السابق: ٧٠٩/٢ - ٧١٠، وما وضعناه بين قوسين في الموضع الأول وقع في الأصل مصحفاً بلفظ أطعتم، وفي الموضع الثاني إذا ساقط من الأصل.
(٣) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ٤٠٩/٦.

بالعبادة^(١)، وكانت سورة المؤمنين بعد سورة الأنبياء في ترتيب المصحف، فكان العدول إلى ﴿فَأَنقُوتِ﴾ مناسباً من هذا الوجه، كما كان التعبير بـ ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ في سورة الأنبياء مناسباً.

ومن أمثلة العدول عن متشابه القصص ما حكاه الله تعالى في سورة الأعراف من قول لوط عليه السلام لقومه ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿[الأعراف: ٨١] ثم حكى عنه قوله لهم في سورة النمل ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يَّجْهَلُونَ ﴿^(٢) [النمل: ٥٥] فالتشابهان في قصة واحدة، وفي جزئية واحدة منها، فكان الأصل ألا يُعدل عن التشابه ولا سيما أن اللفظين ﴿مُسْرِفُونَ﴾ و﴿يَّجْهَلُونَ﴾ متباينان في المعنى، لأن الإسراف تجاوز الحدود في الفعل، والجهل ضد العلم^(٣)، ولكن اقتضى العدول مناسبة مقصود السورتين وسياق الآيتين.

أما مناسبة مقصود السورتين فهي كما نبه البقاعي أن سورة الأعراف مقصودها إنذار المعرضين عن الحق، فناسب ذلك وصفه لهم بأنهم بلغوا من الجهل غايته، فقليل ﴿مُسْرِفُونَ﴾ لأن الإسراف غاية الجهل. وسورة النمل مقصودها إظهار العلم والحكمة، فكان المناسب العدول إلى ﴿يَّجْهَلُونَ﴾ لأنه خلاف العلم والحكمة^(٤).

وأما مناسبة السياق فلأن آية الأعراف وقع في سياقها وصف قوم لوط بأنهم غير مسبقين إلى فعل الفاحشة، قال تعالى ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] ففي سبقهم إليها تجاوز للحدود المعهودة للعالمين، فكان المناسب التعبير بـ ﴿مُسْرِفُونَ﴾ لأن معناه مجاوزون للحدود. وذهب أبو جعفر بن الزبير إلى أنه «قصد بما ذكر في سورة الأعراف الإشارة إلى التعريف بانهماكهم في الجرائم وقبيح المرتكبات، فنص على أفحشها، وحصل الإيماء إلى ما وراء ذلك بما ذكر من إسرافهم، فقليل ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]»^(٥). وما ذهبنا إليه أولى وأوضح.

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٧٠٨ - ٧٠٩.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١٦٠ - ١٦١، والبرهان: ١٩٣، وملاك التأويل: ١: ٤١٨، والعقد الجميل: ٨١.

(٣) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات: ٢٠٩ و ٤٠٧، والبقاعي، نظم الدرر: ٧: ٤٥٥، و ١٤: ١٨٢.

(٤) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ٧: ٤٥٥ وقارن بـ: ٣٤٧، وانظر أيضاً: ١٤: ١٨٢ وقارن بـ: ١٤: ١٢٢.

(٥) ملاك التأويل: ١: ٤٢٢.

والنظر في سياق آية النمل يبين أنه لا يناسب أن يُعبر فيها بـ «مسرفون»، لأنه حُكي فيه توبيخ لوط لقومه بقوله تعالى ﴿أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤] أي يبصر بعضكم بعضاً، أو وأنتم تدركون فحشها ببصائرکم على القول بأنه من بصر القلب^(١)، فكان المناسب العدول إلى ﴿تَجْهَلُونَ﴾ لعدم الانتفاع بالبصر أو البصيرة، قال أبو جعفر بن الزبير: «ولما قيل في سورة النمل ﴿أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤] كان أهم شيء أن تُنفى عنهم فائدة الإبصار، إذ لم يغن عنهم شيئاً، فأعقب بقوله ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥] أي مرتكبكم مع علمكم بشنيع ما فيه من أقبح ما يرتكبه الجهال»^(٢).

ولا بد من الإشارة إلى أننا وضعنا هذا المثال هنا مع أن اللفظين غير متطابقين تطابقاً صيغياً، لأن توجيهه يراعي النظر إلى معناه المجرد عن مبناه كما هو واضح فيما نقلناه.

ومن أمثلة العدول عن التشابه في قصتين مختلفتين قوله تعالى حكاية عن شعيب قوله لموسى عليهما السلام ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] وقوله حكاية عن إسماعيل قوله لأبيه إبراهيم عليهما السلام ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣) [الصافات: ١٠٢]، فالأولى في قصة موسى بلفظ ﴿الصَّالِحِينَ﴾، والثانية في قصة إبراهيم بالعدول إلى ﴿الصَّالِحِينَ﴾، وبين اللفظين فرق بين.

والمقتضي المناسب لذلك العدول كما أشار الكرمانى أن الآية الأولى من كلام شعيب يعرض ابنته على موسى ليتزوجها لقاء أن يعمل موسى عنده أجيراً مدة محددة، قال تعالى ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَّاجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] فالآية في المعاملة وحسن العشرة والوفاء بالعهد^(٤)، فناسبها التعبير بالصلاح. أما الآية الثانية فهي «من كلام إسماعيل حين قال له أبوه ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾» [الصافات: ١٠٢] فأجاب ﴿يَتَّبِعِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

(١) انظر: السابق: ١: ٤٢٠ - ٤٢١.

(٢) السابق: ١: ٤٢٢ - ٤٢٣.

(٣) انظر: البرهان: ٢٩٠، والعقد الجميل: ١٣٠.

(٤) انظر: البرهان: ٢٩٠.

[الصفات: ١٠٢] أي على الذبيح^(١) والمناسب للذبح الصبر، ولذلك عُدل هنا عما وقع في مشابهه، فقليل ﴿الصَّابِرِينَ﴾.

ومن أمثلة العدول عن التشابه الجاري مجرى القصتين قوله تعالى في سورة طه ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: ٥٣] وفي سورة الزخرف ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾^(٢) [الزخرف: ١٠] فالذي في سورة طه وارد في قصة موسى عليه السلام في سياق دعوته لفرعون إلى الإيمان بالله تعالى، والذي في سورة الزخرف خطاب من الله تعالى لكفار العرب، لأنه قال ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف: ١٠٩]، ومع أن هذا ليس في قصة، فالغاية الحاصلة منه متحدة مع الغاية الحاصلة من مشابهه الذي في سورة طه، ولا سيما أن التعقيب الذي عُقب به المتشابهان متقارب جداً، ففي طه ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٣]، وفي الزخرف ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ﴾ [الزخرف: ١١٠] إلى قوله ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف: ١١] ولذلك يمكن إجراؤهما مجرى القصتين. وقد وقع التعبير في الأولى بـ ﴿وَسَلَكَ﴾، وعُدل عنه إلى ﴿جَعَلَ﴾ في الثانية.

ومعنى اللفظين متقارب كما قال أبو جعفر بن الزبير، لأن المراد بسلك ما خلقه الله سبحانه وهياً لتصرفاتنا في معاشنا^(٣). بيد أن بينهما تبايناً في أصل اللغة، لأن سلك في الأصل: أدخل^(٤)، وجعل عام في كل فعل، وهو أعم من فعل، ويقع على الإيجاد^(٥)، فيكون منبأً عن الخلق والاختراع كما ذكر أبو جعفر بن الزبير^(٦).

وقد بين أبو جعفر بن الزبير المقتضي المناسب للعدول بأن آية طه وقعت في سياق الفرق والتلطف في الدعاء، فناسبها التعبير بـ ﴿وَسَلَكَ﴾ لما فيه من معنى الوضع، وآية الزخرف

(١) السابق، والصفحة نفسها.

(٢) انظر: البرهان: ٢٦٣، وملاك التأويل: ٢: ٦٨٤، والعقد الجميل: ٥.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦٨٤.

(٤) انظر: ابن منظور، لسان العرب: [سلك]: ١٠: ٤٤٢ - ٤٤٣.

(٥) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات: ١٩٦ - ١٩٧.

(٦) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦٨٥.

وقعت في سياق التوبيخ، فناسبها العدول إلى ﴿جَعَلَ﴾ لما فيه من معنى الخلق والاختراع، قال أبو جعفر: «آية طه مقصود بها التلطف بالدعاء إلى الله على ما تقدم من أمره تعالى لموسى وهارون عليهما السلام في قوله ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] فلما بُني الكلام على هذا وأعقب بقوله ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ﴾ [طه: ٥٣-٥٤] ولا إشكال فيما في هذا من التلطف والرفق في الدعاء، ناسب ذلك العبارة بـ ﴿وَسَلِّكَ﴾ عما أنهج تعالى من السبل والطرق لمرافق العباد ومصلحهم؛ وهي منبئة عما يعطيه ﴿جَعَلَ﴾ في الآية الأخرى مع زيادة الوضوح وكمال التهيئة، فهي أنسب لما قصد في هذه السورة، [تقول: مَنهَجُ سالك] أي واضح بين^(١) ثم قال في الآية الثانية: «أما آية الزخرف فمبنية على توبيخ من كفر من العرب وتقريعهم، ألا ترى قوله سبحانه ﴿أَفَضَرَبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥] وقوله إخباراً عن مكذبي الأمم ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كُتُوبُهُ يُسْتَهْزَؤُنَ﴾ [الزخرف: ٧] وقوله ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ [الزخرف: ٨] أي من هؤلاء الذين كذبوك يا محمد. فهذا كله من توبيخ الجاحدين والمعاندين^(٢) ثم قال «فناسب هذا (ما) ينبي عن الخلق والاختراع من غير زيادة، فعبر هنا بـ ﴿جَعَلَ﴾»^(٣).

٣- العدول بالمبدلات اللفظية من أسماء الله تعالى :

كثرت المتشابهات التي عدل فيها عن اسم إلى آخر من أسماء الله تعالى، ولا سيما في رؤوس الآيات، وبلغ معظمها درجة الاشتباه، ولهذا وذاك أفرد لها بعض من جمع المتشابهة قسماً خاصاً كما ذكرنا في موضع سابق.

ولكل اسم من هذه الأسماء خصوصية معنى، يراعيها القرآن الكريم لوضع كل منها موضعه الأنسب له، وقد أحس بذلك أصحاب الفصاحة، فقد «حكي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البقرة: ٢٠٩] ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ غَفُورٌ

(١) السابق: ٢: ٦٨٤ - ٦٨٥، ووقع في الأصل بقول مَنهَج هناك هكذا بهذا الضبط، وأشار المحقق في حاشيته إلى أنه وقع في بعض نسخ المخطوط سالك، فالصواب ما أثبتناه.

(٢) ملاك التأويل: ٢: ٦٨٥.

(٣) السابق، والصفحة نفسها، ووقع في الأصل على ما ينبي بزيادة على، وهي زيادة مخلة بالمعنى، ويبدو أن زيادتها جاءت من التضارب بين نسخ المخطوط، لأن المحقق أشار في حاشيته إلى أنه وقع في بعض النسخ ينبغي على.

رَجِيمٌ ﴿١﴾ ولم يكن يقرأ القرآن، فقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا؛ الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلزل، لأنه إغراء عليه^(١) فقد أحس بصفاء ذوقه اللغوي أن القارئ قد أخطأ، لأن الآية ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]. والذي يهمنا هنا تبين تلك المراعاة في العدول عن التشابه بالتمثيل والتحليل.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ عَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] وفي سورة النحل ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ عَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) [النحل: ١١٥] فالمتشابهان في تبين ما حرمه الله من المأكولات وتجاوز عمن تناول شيئاً منها اضطراراً بلا اعتداء ولا مجاوزة للقدر المحتاج إليه، وقد وقع التعبير أولاً بـ ﴿رَبُّكَ﴾، وعدل عنه ثانياً إلى الاسم الأعظم ﴿اللَّهُ﴾.

وبين الاسمين فرق؛ فالاسم الأعظم فيه معنى استحقاق العبادة^(٣)، أما اسم الرب فأصله «من التربة»، وهي إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام^(٤)، وهو أيضاً القائم بمصالح المربوب^(٥)، وفيه معنى الرأفة واللطف به^(٦)، ولهذا الفرق لم يحسن التعبير بأحد الاسمين في موضع الآخر إذا أريد تحقيق التناسب، ولذلك عدل عن التشابه.

والمناسبة من وجهين؛ الأول ما أبداه الخطيب الإسكافي - وتابعه الكرمانى والسيوطي - وهو أن آية الأنعام تقدمها ذكر أصناف مختلفة مما خلقه الله لتربية الأجسام كالحبوب والثمار في قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزُّيُوتَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وكالحيوان من الإبل والبقر والغنم في قوله ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا

(١) السيوطي، الإتقان: ٢: ٩٥٣. والرواية في بعض كتب التفسير بلفظ مقارب كالكشف: ١: ٣٥٣، وفي تفسير القرطبي ت ٦٧١ هـ: ٣: ٢٤، وقد أحال على النقاش ت ٣٥١ هـ في نقله لها، وفيه أن الذي استنكر وضع التعقيب في غير آيته هو كعب الأخبار ت ٣٢٢ هـ.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٤٢، وملاك التأويل: ١: ١٠٤ - ١٠٥، وكشف المعاني: ١١١، والعقد الجميل: ٢٦.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٤٣.

(٤) الراغب الأصفهاني، المفردات: ٣٣٦.

(٥) انظر: درة التنزيل: ٤٣.

(٦) انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير: ٨، القسم الأول: ١٤٠.

رَزَقَكُمْ اللَّهُ ﴿[الأنعام: ١٤٢]، وقوله ﴿يَنْتِ الْأَصْنَانِ أَتَيْنِي وَمَنْ الْمَعَزِ أَتَيْنِي﴾ [الأنعام: ١٤٣] وقوله ﴿وَمِنْ الْإِبِلِ أَتَيْنِي وَمَنْ الْبَقَرِ أَتَيْنِي﴾ [الأنعام: ١٤٤] فكان التعبير بـ ﴿رَبُّكَ﴾ مناسباً لذكر هذه الأصناف التي بها تربية الأجسام، لأن الرب هو المنشئ والقائم بمصالح المربوب^(١). أما آية النحل فجاءت في سياق قوله تعالى ﴿فَكُلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا يَعْزَمَ اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤] فذكر فيه لفظ العبادة، فكان الأنسب كما أشار الخطيب الإسكافي العدول إلى الاسم الأعظم ﴿الله﴾ لما فيه من معنى استحقاق العبادة بما له من النعمة^(٢).

والوجه الثاني ما أبداه جماعة من أن آية الأنعام افتتحت بقوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَحَدٌ فِي مَا أَوْحَى إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٥] فسقت صيغة التحريم فيها على لسان رسول الله ﷺ، فكان التعبير بـ ﴿رَبُّكَ﴾ مناسباً لما فيه من معنى الرأفة واللطف والاعتناء والتشريف لرسول الله ﷺ^(٣)، وهذا بخلاف آية النحل، فإن التحريم الذي افتتحت به جاء خطاباً من الله تعالى للناس، قال تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ الآية [النحل: ١١٥] فناسب العدول إلى التعبير بالاسم الأعظم ﴿الله﴾^(٤).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢] وفي سورة الشعراء ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ الرَّحْمَنِ تُحَدِّثُ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾^(٥) [الشعراء: ٥]، فالمتشابهان في إعراض المشركين عن القرآن الداعي إلى الإيمان، ووقع التعبير أولاً بـ ﴿رَبِّهِمْ﴾، وعُدل عنه ثانياً إلى ﴿الرَّحْمَنِ﴾.

وبين الاسمين فرق لأن «الرب هو القائم بمصالح الخلق من ابتداء التربية إلى آخر العمر، والرحمن هو المنعم عليهم في الدنيا بما خلق فيها، والمعرض للنعيم الدائم بعدها»^(٦)، والرب

(١) انظر: درة التنزيل: ٤٣، والبرهان: ١٣٦، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٣٧٥.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٤٣.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ١: ١٠٩، وكشف المعاني: ١١١، وأبو حيان، البحر المحيط: ٤: ٢٤٣، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٣٧٥، ٢: ٩٥٢.

(٤) انظر: كشف المعاني: ١١١، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٣٧٥.

(٥) انظر: درة التنزيل: ٣٢٩، والبرهان: ٢٦٦، وملاك التأويل: ٢: ٦٩١، وكشف المعاني: ٢٥٣ - ٢٥٤، والعقد الجميل: ٦٠.

(٦) درة التنزيل: ٣٢٩.

أيضاً هو المتولي ليوم الحساب المالك ليوم القيامة^(١). وفي القرآن الكريم «يعم وروده طرفي الترغيب والترهيب، أما الترغيب فبين، وأما الترهب فحيث يراد معنى ملكيته سبحانه لهم، وانفراده بإيجادهم وإدراج أرزاقهم، وبيان انفراده تعالى بذلك ثم هم مع ذلك على كفرهم»^(٢) و«اسمه سبحانه الرحمن يغلب وروده حيث يراد الإشارة إلى العفو والإحسان والرفق بالعباد، والتلطف والتأنيس»^(٣). وبالجمله فإن اسم الرب فيه معنى القيام بمصالح الخلق ومعنى الترغيب والترهيب والوعيد، واسم الرحمن فيه معنى الرفق بالعباد والتلطف بهم، ويترتب على هذا عدم جواز وقوع أحد الاسمين موقع الآخر، ولذلك عدل عن التشابه.

وتتضح مناسبة العدول بالنظر في سياق كل من المتشابهين؛ فسياق الأول كما نبه الخطيب الإسكافي يدل على أن الله تعالى أنعم على الناس بما يصلح أديانهم وأديانهم، لأنه وصفهم أولاً بأنهم معرضون فقال ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] ولا يُعرضون إلا إذا كانوا في رغد من عيشهم، فدل على أنه أنعم عليهم بالأغذية التي خلقها لهم لصلاح أجسادهم، ثم قال تعالى ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ﴾ [الأنبياء: ٢] فدل على أنه أنعم عليهم بالذكر الذي هو القرآن ليصلح به أديانهم، فناسب ذلك كما أشار الخطيب الإسكافي وصفه تعالى بـ ﴿رَبِّهِمْ﴾ من حيث كان الرب هو القائم بما يصلح العبد^(٤). وعدل في المشابه إلى الوصف بالرحمن لأن السياق هناك للرحمة بقوله تعالى ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] ولكنه تعالى لم يفعل، وإنما أمهلهم ليقنعوا عن تمردهم ويتوبوا من ذنوبهم رحمة منه بهم، فكان الأنسب هنا كما أشار الخطيب الإسكافي وابن جماعة العدول إلى وصفه تعالى بـ ﴿الرَّحْمَنِ﴾^(٥).

وثمة وجه آخر قريب من الأول، ولكنه يختلف عنه من حيث النظر في دلالة كل من السياقين على ما يتعلق بالترهيب والترغيب؛ نبه عليه أبو جعفر بن الزبير، فذكر أن الأول في

(١) انظر: كشف المعاني: ٢٥٤.

(٢) ملاك التأويل: ٢: ٦٩٢.

(٣) السابق، والصفحة نفسها.

(٤) انظر: درة التنزيل: ٣٣٠.

(٥) انظر: درة التنزيل: ٣٣٠، وكشف المعاني: ٢٥٤.

الترهيب لأن قوله تعالى ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] هو إخبار منطوق على تخويف ووعيد، فناسب وصفه تعالى بـ ﴿رَبِّهِمْ﴾ من حيث كان الرب هو المتولي للحساب المالك ليوم القيامة^(١). ثم ذكر أبو جعفر أن سياق المشابهة في التلطف بالنبي ﷺ وتأنيسه بإعلامه أن إعراض قومه عن الإيمان إنما هو بقدره تعالى، ولو شاء لألجأهم إليه إلجاء، قال تعالى ﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّ أَغْشَىٰ لَهُمْ حُضُوعٌ﴾ [الشعراء: ٤] ولكنه أمهلهم، وأخر العذاب عنهم ليستجيب من قدر له الإيمان منهم، فلما كان هذا رفقا من الله بالعباد، وتلطفاً بنبيه ﷺ وتأنيساً له، كان المناسب كما ذكر أبو جعفر أن يعدل عن التعبير بـ ﴿رَبِّهِمْ﴾ إلى التعبير بـ ﴿الَّذِينَ﴾ لما في الرحمة من معاني الرفق والتلطف والتأنيس^(٢).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الفتح ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: ١١] وقوله أيضاً في السورة نفسها ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤]، وثمة مشابهة آخر أغفلها أصحاب التوجيه، وحقه أن يأتي قبل آتي الفتح؛ وهو قوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^(٣) [الأحزاب: ٩]، فوقع التعبير أولاً بـ ﴿بَصِيرًا﴾ في سورة الأحزاب، ثم عدل عنه إلى ﴿خَبِيرًا﴾ في الفتح، ثم عدل إلى ﴿بَصِيرًا﴾ مرة ثانية. والمتشابهات الثلاثة في موضوعات مختلفة، فآية الأحزاب في سياق إخبار الله تعالى عما جرى في وقعة الخندق وامتنانه على المؤمنين بأن كفاهم القتال ورد الكفار خائبين^(٤)، وآية الفتح الأولى في سياق الإخبار عما تخلف عن الخروج مع رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية، وآية الفتح الثانية في امتنان الله تعالى على المؤمنين بأن أظهرهم على الكفار بالحديبية وهياً لهم أسباب مصالحتهم بلا قتال^(٥)، فموضوع هذه الآية الثانية مقارب لموضوع آية الأحزاب، لأنهما في الامتنان على المؤمنين بكفائتهم القتال.

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦٩٢ - ٦٩٣، وكشف المعاني: ٢٥٤.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦٩٣ - ٦٩٤.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٤٤٣ - ٤٤٤، وملاك التأويل: ٢: ٨٦٠، وقارن بمتشابه القرآن العظيم لابن المنادي: ٧٥.

(٤) انظر: الأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ٢: ٢٣٥ وما بعدها.

(٥) انظر السابق: ٢: ٥٢٧ و ٥٣٣.

وبين البصير والخبير فرق، فالأول من باب العلم بالظاهر، والثاني من باب العلم بالباطن^(١)، ولهذا كان لكل منهما موضع لا يناسب الآخر، ولذلك عُذِلَ عن التشابه.

أما التعبير بـ ﴿بَصِيرًا﴾ في آية الأحزاب فلأنه وقع فيها ذكر الرؤية في قوله تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لِّمَ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩] والرؤية من باب الإبصار، وهي مناسبة بينة. وأما العدول إلى ﴿خَبِيرًا﴾ في آية الفتح الأولى فوجهه كما نبه الخطيب الإسكافي وأبو جعفر الزبير أن الله تعالى أخبر فيها عن المنافقين الذين تخلفوا عن الغزو بقوله ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١] أي يظهرون خلاف ما يبطنون، وهو من باب العلم بالباطن، فاقتضت المناسبة العدول إلى ﴿خَبِيرًا﴾ الذي هو من نفس الباب. وأما العدول إلى ﴿بَصِيرًا﴾ في آية الفتح الثانية فلأنه كما نبهنا وقع فيها ذكر ما هو من باب العلم بالظاهر، قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنٍ مِّمَّكَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤] فهذه أمور ظاهرة لا يناسبها إلا العدول إلى ﴿بَصِيرًا﴾^(٢).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة غافر ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] وقوله في سورة فصلت ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٣) [فصلت: ٣٦]، والمتشابهان في موضوعين مختلفين؛ فالأول في التعريف بسبب امتناع المشركين من اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن عليه أن يدفع شرهم بالالتجاء إلى الله، والثاني في التعريف بأحسن الخصال من التوحيد والعمل الصالح ودفع السيئة بالتي هي أحسن والأمر بالالتجاء إلى الله إذا عرضت وساوس تدعو إلى الانتقام^(٤). وقد وقع التعبير أولاً بـ ﴿الْبَصِيرُ﴾، وعُدِلَ عنه ثانياً إلى ﴿الْعَلِيمُ﴾، والفرق بينهما بين.

أما التعبير بـ ﴿الْبَصِيرُ﴾ في آية غافر فلأنه كما نبه ابن قيم الجوزية [ت ٧٥١هـ] ورد فيها قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِي يَكِيدُ يَكِيدُونَ فِي عَايَةِ اللَّهِ يَغَيِّرُ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ

(١) انظر: درة التنزيل: ٤٤٤، وملاك التأويل: ٢: ٨٦٠.

(٢) انظر المصدرين المذكورين في الحاشية السابقة، والصفحة نفسها.

(٣) انظر: العقد الجميل: ٨٦.

(٤) انظر: الأنصاري، تجريد البيان: ٢: ٤٠٨ و ٤٢٦.

مَا هُمْ بِبَلِغِيَةٍ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴿٥٦﴾ [غافر: ٥٦] فلاستعاذة فيها من الناس الذين يجادلون في آيات الله، وأفعال هؤلاء مُعَايِنَةٌ تُرَى بالبصر^(١)، فكان التعبير بـ ﴿الْبَصِيرُ﴾ فيها مناسباً. وذكر البقاعي أن هؤلاء لما كان لهم مكر ظاهر وباطن ناسب التعبير بـ ﴿الْبَصِيرُ﴾ لأنه صالح للبصر والبصيرة، فيعم محسوس أفعالهم ومعلومها^(٢). وأما آية فصلت فلاستعاذة فيها من نزغ الشيطان، قال تعالى ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٦] ونزغ الشيطان وساوس وخطرات باطنة يلقيها في القلب ويتعلق بها العلم، فاقتضت المناسبة العدول إلى ﴿الْعَلِيمُ﴾ كما أشار ابن قيم والبقاعي^(٣).

وصفوة القول فيما تقدم من أمثلة أن العدول عن التشابه بالمبدلات اللفظية متقاربها ومتباينها وما كان من أسماء الله تعالى منها مراعى به إحراز المناسبة المعنوية على أتم وجه، وأنه لم يكن من قبيل التفنن والتنويع في العبارة فقط، لأنه لو كان كذلك لأمكن وقوع أحد اللفظين المعدول عنه وإليه موقع الآخر، وقد أكدت الأمثلة استحالة ذلك بتعدد أوجه التناسب، مما يعني أنه لولا العدول لاختل التناسب.

ب. العدول بالمبدلات الحرفية للتناسب المعنوي:

كنّا بينا في مقدمة العدول بالمبدلات فيما عرضناه من آراء المتكلمين على الإعجاز أن القرآن الكريم يراعي وضع كل حرف من حروف المعاني موضعه الأخص به الأنسب له، فدل هذا على أن العدول عن التشابه مقصود به تحقيق التناسب المعنوي في المتشابهين. وهذا أوان إثبات ذلك بالأمثلة التي سنتناول فيها المبدلات الحرفية الجارة فالعاطفة فالنافية.

أ - العدول بالمبدلات الحرفية الجارة :

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة الرعد ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢] وفي سورة لقمان ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩] وفي

(١) انظر: ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد: ٢: ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ٢٠٥/٨، و ٩٣/١٧.

(٣) انظر: ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد: ٢/٢٣٩، والبقاعي، نظم الدرر: ٢٠٥/٨، و ٩٣/١٧.

سورتي فاطر والزمر كما في سورة الرعد ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(١) [فاطر: ١٣، والزمر: ٥]، والأجل المسمى قيل: هو يوم القيامة، وقيل: هو منتهى دورة كل منهما، أي للشمس سنة وللقمر شهر، وقيل غير ذلك^(٢). والمهم أن موضوع التشابهات الأربع واحد؛ وهو ذكر دلائل قدرة الله تعالى، وقد وقع التعبير أولاً بـ ﴿لِأَجَلٍ﴾، وعُدل عنه ثانياً إلى ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾، وثالثاً إلى ﴿لِأَجَلٍ﴾، ويمكن إجمال ذلك بأن العدول من ﴿لِأَجَلٍ﴾ إلى ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾.

واللام تؤدي معنى قريباً من معنى إلى^(٣)، ولذلك جعلها بعضهم موافقة لـ «إلى» واستدلوا بهذا التشابه^(٤)، وأبى آخرون الموافقة، قال الزمخشري: «فإن قلت ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ و﴿يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أهو من تعاقب الحرفين؟ قلت: كلا، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن»^(٥) واتفق هو وغيره ممن وجّه هذا التشابه على أن «إلى» لانتهاء الغاية، والمعنى أن كلاً من الشمس والقمر يستمر في الجريان حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له^(٦). واختلفوا في معنى اللام هنا؛ فذهب الخطيب الإسكافي إلى أن معناها التعليل وتابعه الكرمانى، والمعنى عليه: يجري لكي يبلغ الأجل المسمى^(٧)، وذهب الزمخشري إلى أنها للاختصاص وتابعه أبو حيان^(٨)، والمعنى عليه: «يجري لإدراك أجل مسمى، تجعل الجري مختصاً بإدراك أجل مسمى، ألا ترى أن جري الشمس مختص بآخر السنة، وجري القمر مختص بآخر الشهر»^(٩). وليس بين الاختصاص والتعليل كبير فرق، لأنه إذا كان بلوغ الأجل سبب

- (١) انظر: درة التنزيل: ٣٧٤، والبرهان: ٢٣٠ و ٣٠٣، وملاك التأويل: ٢: ٧٩١، وكشف المعاني: ٢٩٦ - ٢٩٧، والعقد الجميل: ٣٩.
- (٢) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ٥: ٣٦٠، و ٧: ١٩٣، والآلوسي، روح المعاني: ١٣: ٨٩، و ٢١: ١٠٢ - ١٠٣، و ٢٢: ١٨١.
- (٣) انظر: درة التنزيل: ٣٧٤.
- (٤) انظر: ابن هشام، مغني اللبيب: ٢٨٠، وأوضح المسالك، له: ٣: ٣٢، والسيوطي، همع الهوامع: ٢: ٢٨٠، والإتقان: ١: ٥٤١.
- (٥) الزمخشري، الكشف: ٣: ٢٣٧، ويقصد بـ «ضيق العطن» من ضاقت عليه العبارة، كما يقال ضيق العطن لقليل المال.
- (٦) انظر: درة التنزيل: ٣٧٤، والزمخشري، الكشف: ٣: ٢٣٧، وكشف المعاني: ٢٩٧، وغير ذلك.
- (٧) انظر: درة التنزيل: ٣٧٤ - ٣٧٥، والبرهان: ٣٠٣، ووقع في المطبوع «الصلة» بدل «العلة» وذكر المحقق في حاشيته أن الكلمة في بعض نسخ المخطوط وفي بصائر ذوي التمييز «العلة»، ورأى أنها تصحيف. والصواب خلاف ما رآه، فمعنى كون اللام للعلة التعليل، وهو ظاهر.
- (٨) انظر: الزمخشري، الكشف: ٣: ٢٣٧، وأبو حيان، البحر المحيط: ٧: ١٩٣.
- (٩) انظر المصدرين المذكورين في الحاشية السابقة، والصفحة نفسها.

الجري كان مختصاً به، ولذلك مزج بعض من وجه هذا التشابه بين معنيي التعليل والاختصاص كما سيأتي، واقتصر آخرون على التعليل لظهوره.

وقبل أن نبين مناسبة العدول عن التشابه ترتيباً على ذلك الفرق يحسن أن نشير إلى أن الذي أدى إلى القول بموافقة اللام لـ «إلى» هو أن اللام للاختصاص بالشيء، و «إلى» لنهايتها كما مر، والاختصاص بالشيء قد يكون اختصاصاً بنهايته، فيتفق الحرفان في تأدية المعنى العام، بيد أن هذا لا يلغي خصوصية كل منهما من حيث الدلالة على الانتهاء والاختصاص أو التعليل، ولا يجيز وقوع أحدهما موقع الآخر، وإنما لكل منهما موقع مناسب لأجله عدل عن التشابه، وهو ما بينه من وجه هذا التشابه.

وللعدول هنا مناسبة من وجهين كما بينوا، الأول بينه الخطيب الإسكافي وتابعه عليه ابن جماعة؛ وهو أن آيات الرعد وفاطر والزمر وردت في سياق الإخبار عن ابتداء الخلق، فناسب ذلك أن يُخبر عن علة جري الكواكب، من حيث كان تعليل الفعل أنسب بابتداء وقوعه، قال تعالى في آية الرعد ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]، وقال في آية الزمر ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٥٠]، وقال في سورة فاطر مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [فاطر: ١١] ثم قال ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣] ويضاف إلى ذلك أنه وقع في سياق هذه الآية أيضاً ذكر نعم الله التي خلقها لمصالح الخلق كما ذكر الخطيب الإسكافي، فتأكدت مناسبة التعبير باللام التي يقع الفعل من أجلها، قال تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ [فاطر: ١٢] ثم قال ﴿وَمِنْ كُلِّ تَآكُلُونَ لَحْمًا طَرِيفًا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢] ثم قال ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ ^(١) الآية [فاطر: ١٣]. أما آية لقمان المشابهة فذكر الخطيب الإسكافي وابن جماعة

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٧٥، وكشف المعاني: ٢٩٧، وذكر ابن جماعة في كشف المعاني أن آيتي فاطر والزمر تقدمهما ذكر النعم، وهو سهو، والصواب ما ذكرناه عن الخطيب الإسكافي الذي يتابعه ابن جماعة. وجدير بالذكر أنهما لم يتعرضا لآية الرعد.

أنها وقعت في سياق التنبيه على البعث ويوم القيامة، قال تعالى ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨] وقال أيضاً ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْقَا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ [لقمان: ٣٣]، فلما كان ذلك اليوم هو الغاية التي ينتهي إليها جري الشمس والقمر، كانت المناسبة تقتضي العدول إلى الحرف الدال على انتهاء الغاية، فقيل: ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾^(١).

أما الوجه الثاني فبينه البقاعي، وقد مزج فيه بين معني اللام الاختصاص والتعليل، ونظر فيه إلى السياق ومقصود السورة في بعض تلك المتشابهات، وإلى السياق وحده في بعضها الآخر، وتفصيل ما بينه أن آية الرعد كانت في سياق التدبير، أي تدبيره سبحانه لمنافع الكون، لأنه تعالى قال ﴿كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ [الرعد: ٢] مما يفهم أن جري الشمس والقمر لتدبير المنافع التي منها تحوّل الفصول وتغير النبات وضبط الأوقات، فلما كان حصول هذه المنافع المتكررة يقتضي جرياً مختصاً بوقت معلوم اقتضت المناسبة تعليل الجري بلام الاختصاص، أي لأجل اختصاص كل منهما بوقت معين، الشمس أجلها سنة، والقمر أجله شهر^(٢). وأما آية فاطر فسياقها لقسر المتنافرات على ما أَرَادَهُ اللهُ، لأنه تعالى قال ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [فاطر: ١٣]، والقسر يناسبه التعليل والاختصاص، أي ليكون كلٌّ جارياً لأجل مختص به مضروب له لا يقدر أن يتعداه. ثم إن التعبير بهذه اللام هنا مناسب من حيث كان مقصود السورة إثبات تمام القدرة لله تعالى، وبهذا اجتمعت للتعبير باللام هنا مناسبتا السياق والسورة^(٣). وأما آية الزمر فلا تختلف كثيراً عن سابقتها، لأن سياقها للقهر، قال تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الزمر: ٥٤]، واختصاص العلة بالمعلول أدل على القهر من ذكر الغاية مجردة عن العلة، ولهذا كان التعبير باللام أنسب. وهو أنسب أيضاً لمقصود هذه السورة الذي هو الدلالة على أن الله تعالى غالب لكل شيء^(٤)، لأن تعليل الجري واختصاصه بأجل محدد

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٧٤ - ٣٧٥، وكشف المعاني: ٢٩٧.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١٠: ٢٧٢.

(٣) انظر: السابق: ١٦: ٢٧ - ٢٨، وقارن ب: ١٦: ١.

(٤) انظر: السابق: ١٦: ٤٥٤، وقارن ب: ١٦: ٤٣٦.

أدخل في الغلبة من ذكر الغاية. وقد عُدل عن التعبير باللام إلى التعبير بـ «إلى» في آية لقمان المشابهة مراعاة لمناسبة السورة، لأن مقصود سورة لقمان إثبات حكمة الله تعالى في أقواله وأفعاله، قال البقاعي: «ولما كان محط مقصود السورة الحكمة، وكانت هذه الدار مرتبطة بحكمة الأسباب والتطوير، والمد في الإبداع والتسيير، كان الموضع لحرف الغاية، فقال ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩] لا يتعداه في منازل معروفة في جميع الفلك لا يزيد ولا ينقص، هذا يقطعها في الشهر مرة، وتلك في السنة مرة»^(١).

وواضح أن توجيه البقاعي فيه بعد وتمحل فضلاً عن أن بعضه لا يصح، وهو توجيهه وقوع اللام في آية فاطر بأن سياقها لفسر المتنافرات، ويريد بهذا السياق قوله تعالى ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣]، فهذا التوجيه لا يصح لأن سياق آية لقمان لفسر المتنافرات أيضاً وقد عُدل في آيته عن اللام، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩] وربما لذلك لم يوجه البقاعي آية لقمان سياقياً. وأياً كان فإن توجيه الخطيب الإسكافي بدقته ووضوحه كافٍ في بيان مراعاة العدول للتناسب.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ﴾ [البقرة: ١٣٦] وفي سورة آل عمران ﴿قُلْ - ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾^(٢) [آل عمران: ٨٤] فالمتشابهان في شيء واحد؛ هو أن الدين المرتضى عند الله هو الإيمان بالله وبكتبه التي أنزلها على رسله وعدم التفرقة بينهم، بخلاف ما عليه أهل الكتاب من التفرقة، ولذلك أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ وأمته أن يخبروا عن أنفسهم بأنهم يدينون ذلك الدين الحق، ومع أن الموضوع واحد اختلف الحرف المعدى به الإنزال، فوقع في سورة البقرة ﴿إِلَيْنَا﴾، وعُدل عنه في آل عمران فقيل ﴿عَلَيْنَا﴾ رعاية للمناسبة المعنوية، لأن بينهما فرقاً يقتضي وضع كل منهما في موضع لا يناسب الآخر.

(١) السابق: ١٥: ٢٠٠ - ٢٠١، وقارن بـ: ١٥: ١٤٠.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٣٤، والبرهان: ١٣١، وملاك التأويل: ١: ٩٤، وكشف المعاني: ١٠٧، والعقد الجميل: ٢٣ - ٢٤.

أما الفرق فهو أن «إلى» للانتهاء، وإذا عُدِّي به الإنزال كان معناه انتهاء المنزل ووصوله إلى من قُصد به بلا تخصيص بجهة معينة، أما «على» فمعناه الاستعلاء، وإذا عُدِّي به الإنزال أفاد معنى الانتهاء من جهة العلو خاصة^(١)، وهذا يعني أن للإنزال جهتين؛ جهة علو بالنظر إلى أوله وتقتضي «على» وجهة انتهاء بالنظر إلى آخره وتقتضي «إلى»^(٢).

وأما المناسبة فمدارها كما نبه جماعة على أن آية البقرة صُدِّرت بخطاب الأمة بلفظ ﴿قُولُوا﴾، فناسب أن يعدَّى الإنزال بـ ﴿إِلَيْنَا﴾، لأن القرآن أول ما ينزل ينزل على رسول الله ﷺ ثم ينتهي إلى المسلمين ويصل إليهم من كل جهة يأتي مبلغه إياهم منها، فلا يتخصص بجهة معينة، وما عُطف على ﴿إِلَيْنَا﴾ من قوله ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكَ إِلَّا بِرُحْمَةٍ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ الآية [البقرة: ١٣٦] المراد به أنه أنزل إلى أتباع الأنبياء المذكورين. ولما صُدِّرت آية آل عمران بخطاب رسول الله ﷺ بلفظ ﴿قُلْ﴾ كانت مراعاة التناسب تقتضي العدول إلى تعدية الإنزال بـ «على» المختص بجهة العلو، لأن القرآن الكريم ينزل على رسول الله ﷺ من جهة العلو خاصة^(٣).

وكشف البقاعي عن مقتضى آخر مناسب لذلك العدول؛ هو مقصود السورة، فبين أن التعبير بـ ﴿عَلَيْنَا﴾ مناسب لمقصود سورة آل عمران الذي هو التوحيد، وذلك من حيث كان رسول الله ﷺ أخلق بالتوحيد وأعرق فيه، فاقترضت المناسبة النظر إليه ورعاية جانبه، فقيل: ﴿عَلَيْنَا﴾^(٤).

وجدير بالذكر أن الزمخشري اعترض على ذلك التوجيه السياقي بآيات عُدِّي فيها الإنزال بـ «إلى» في خطاب رسول الله ﷺ وبـ «على» في خطاب المؤمنين، ورمى مَنْ وجه بذلك التوجيه بالتعسف، ولم يبين الوجه المناسب للعدول، وتابعه على ذلك جماعة^(٥). وهذا - مع رسوخه في البلاغة القرآنية - موقف غريب منه، لأن التوجيه توخَّى البحث عن

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٥، والبرهان: ١٣١، وكشف المعاني: ١٠٧-١٠٨.

(٢) انظر: الألوسي، روح المعاني: ٣: ٢١٥.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٣٥-٣٦، والبرهان: ١٣١-١٣٢، وملاك التأويل: ٩٥/١-٩٦، وكشف المعاني: ١٠٧-١٠٨، وأبو حيان، البحر المحيط: ٥١٦/٢-٥١٧، والبقاعي، نظم الدرر: ٢/ ١٨٨، والسيوطي، قطف الأزهار: ٣٣٠/١-٣٣١، ومعترك الأقران: ٧٠/١، والإتقان: ٩٩٨/٢-٩٩٩، والألوسي، روح المعاني: ٣: ٢١٥.

(٤) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ٤: ٤٧٣-٤٧٤، وقارن بـ: ٤: ١٩٥-١٩٦-١٩٧.

(٥) انظر: الزمخشري، الكشاف: ١: ٤٤٢، والفخر الرازي، التفسير الكبير: ٨: ١٢٤، والنسفي، مدارك التنزيل: ١: ٢٥٢-٢٥٣، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: ١: ٣٨١.

المناسبة السياقية للعدول عن التشابه - والتي تتجلى فيها بلاغة القرآن في النظم - لا عن التفريق بين المتشابهين مجردين من سياقهما كما فعل هو .

٢. العدول بالمبدلات الحرفية العاطفة :

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة الكهف ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧] وفي سورة السجدة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾^(١) [السجدة: ٢٢] فالمتشابهان في الإخبار عن حال المعرض عن التدبر بآيات الله إثر وعظه بها بأنه لا أحد أظلم منه، ولكن اختلف العاطف الدال على المدة الفاصلة بين الإعراض والتذكير، فهو أولاً فاء، وثانياً معدول به عن ذلك إلى ﴿ثُمَّ﴾، والمقتضي لذلك مناسبة كل من المتشابهين لسياقه الذي وقع فيه.

والفاء وثم يشتركان في الدلالة على الترتيب المعنوي، أي «أن ما بعدهما في اللفظ متأخر عما قبلهما في المعنى»^(٢) ويختلفان في أن الفاء للتعقيب وثم للمهلة والتراخي في الزمان^(٣)، وهذا يعني أن ما بعد الفاء يقع قريباً مما قبلها، وما بعد ثم يتراخى زمنه عما قبلها ويبتعد عنه^(٤). وبهذا اختلف المعنى في الآيتين؛ ففي الأولى وقع الإعراض مصادمة مباشرة وصدأً من غير تأخر عن التذكير، وفي الآية المشابهة كان عن مهلة وروية لتراخيه عن التذكير وتأخره عنه^(٥). وثمة فرق آخر بين الحرفين يترتب عليه اختلاف معنوي من وجه آخر؛ وهو أن «ثم» قد ترد للتراخي والتباعد غير الزماني؛ كالتباعد الرتبي وتباعد ما بين الأحوال؛ أي تباعد حال ما بعدها عما قبلها، فتؤدي معنى التعجب والاستبعاد، نحو قول القائل لصاحبه: وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها، استبعاداً لتركه الانتهاز، وعلى هذا

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٨٢ - ٢٨٣، والبرهان: ٢٥٦، وملاك التأويل: ٢: ٦٤٧، وكشف المعاني:

٢٤٠، والعقد الجميل: ٢٠ .

(٢) درة التنزيل: ٢٨٣ .

(٣) انظر: البرهان: ٢٥٦ .

(٤) انظر: درة التنزيل: ٢٨٣ .

(٥) انظر: كشف المعاني: ٢٤١ .

معنى «ثم» في الآية المشابهة ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ كما قال الزمخشري، أي أن الإعراض عن آيات الله مع غاية وضوحها وإرشادها إلى السعادة العظمى - بعد التذكير بها - مستبعد في العقل^(١).

أما المقتضي المناسب للعدول عن التشابه باعتبار الوجه الأول من الفرق فهو أن سياق آية الكهف كما نبه غير واحد لذكر الأحياء من الكفار الذين ذُكروا فأعرضوا عقب التذكير، وهم بعد متوقع منهم أن يؤمنوا، قال تعالى ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَمُجَادِلِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخِذُوا عِبَانِي وَمَا أَنْذَرُوا هَؤُلَاءِ﴾ [الكهف: ٥٦] فمجادلتهم بالباطل لدحض الحق والاستهزاء بالآيات إعراض، وإنما وقع هذا عقب تذكير الرسل لهم ودعائهم إياهم المدلول عليه بقوله تعالى ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦] فناسب التعبير بالفاء في قوله ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾^(٢). وليس سياق آية السجدة كذلك، وإنما هو كما نبه الخطيب الإسكافي وغيره في ذكر من مات على الكفر، لقوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] إلى قوله ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢، ٢١] فالمعنى أنهم ذُكروا مرة بعد مرة ثم أعرضوا بالموت، لأن السياق البعيد يدل كما رأى الخطيب الإسكافي على أن قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ يُقال للكفار يوم القيامة عند الانتقام منهم، والحاصل أن الإعراض الذي حدث بالموت تراخى عن التذكير، فلم يكن ليناسب لو قيل هنا ﴿فَأَعْرَضَ﴾، ولذلك عُدل إلى ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ﴾. هذا ما ذهب إليه الخطيب الإسكافي وتابعه عليه الكرمانى^(٣).

وذهب أبو جعفر بن الزبير مذهباً آخر، فرأى أن سورة السجدة لم يُذكر فيها تكذيب المكذبين للرسل كما ذكر في سورة الكهف، وإنما ذكر فيها انقسام المكلفين إلى مؤمن وفاسق، ومآل كل منهما، فقال تعالى في مآل الفاسقين ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا

(١) انظر: الزمخشري، الكشاف: ٣: ٢٤٦، وملاك التأويل: ٢: ٦٤٩ - ٦٥٠.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٢٨٣، والبرهان: ٢٥٦ - ٢٥٧، وملاك التأويل: ٢: ٦٥٠ - ٦٥١، وكشف المعاني: ٢٤١.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٢٨٣، والبرهان: ٢٥٧.

أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا أَعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ دُوفُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿السجدة: ٢٠﴾ فذكر جزاءهم الذي استحقوه لتماديهم على الكفر مدى حياتهم، فلما لم تقع الإشارة هنا إلى مباشرتهم الرسل بالتكذيب كما كان في سورة الكهف صار إعراضهم وتكذيبهم كأنه عُلِمَ بذكر الجزاء، ولما كان الجزاء متأخراً اقتضى إحراز المناسبة العدول إلى العاطف الدال على التأخر والمهلة، فقيل: ﴿مُرْ أَعْرَضْ﴾^(١).

وذهب ابن جماعة مذهباً ثالثاً، فذكر أنه لم يتقدم آية السجدة ما تقدم آية الكهف مما يناسب التعبير بالفاء، وإنما تقدمها قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ [السجدة: ٢٠] أي استمروا على فسقهم، والمناسب لهذا الاستمرار الدال على التطاول والتراخي في المدة أن يُعَبَّرَ بـ «ثم» المؤذنة بالتراخي^(٢)، فاقضى ذلك العدول إليها.

وقد يُعْتَرَضُ على توجيه ابن جماعة بأن ﴿فَسَقُوا﴾ لا يُفْهَمُ الاستمرار، والاعتذار عنه بأنه لما ذُكِرَ في جزاء الفاسقين أن تعذيبهم بالنار سببه تكذيبهم بها في الدنيا كما حُكي في تمة الآية المتقدمة آنفاً - وهي قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ إلى قوله ﴿وَقِيلَ لَهُمْ دُوفُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] - عُلِمَ أنهم استمروا على الفسق والتكذيب إلى أن ماتوا. وبهذا يقرب توجيه ابن جماعة من توجيه أبي جعفر بن الزبير والخطيب الإسكافي، إلا أن توجيه الخطيب الإسكافي أوضح وأوجه من صاحبيه .

وأما المقتضي المناسب للعدول عن التشابه باعتبار الوجه الثاني من الفرق، أي باعتبار حمل «ثم» على معنى الاستبعاد، فبينه أبو جعفر بن الزبير والبقاعي، فذكر أبو جعفر أن الخطاب في سورة الكهف من أولها إلى الآية المتكلم فيها للعرب؛ والمقصود بالآيات فيها، أي في ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٧] آيات القرآن، يدل على ذلك قوله تعالى في سياق الآية ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: ٥٤] وقوله أيضاً ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: ٥٧] والحجة قائمة على العرب إذا سمعوا بعض آيات القرآن وعلموا عجزهم عن الإتيان بمثله، فالحجة قائمة عليهم عقب سماعهم

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦٥١ .

(٢) انظر: كشف المعاني: ٢٤١ .

وتدبرهم، فناسب ذلك التعبير بالفاء الدالة على التعقيب، فقيل: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾. أما آية السجدة المشابهة فليست كذلك، لأنها عامة في حق العرب وغيرهم، والإخبار فيها عمّن شاهد آية بينة وكذب، يدل على ذلك قوله تعالى في سياقها ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَتْ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨] فهذا عام في المكلفين، وعليه يكون المقصود بالآيات فيها؛ أي في ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ [السجدة: ٢٢] كل ما قامت به الدلالة من آيات القرآن الكريم وآيات الأنبياء والرسول وآيات رسولنا ﷺ، فلما كان المعنى على التعميم - وفيه من كثرة الآيات وتنوعها ووضوحها ما يستبعد في العقل التوقف عن الإيمان به والإعراض عنه - اقتضت المناسبة العدول إلى «ثم» لتؤدي معنى الاستبعاد على نحو تعجبي، ولتشير إلى عظم جريمة المعرض، فقيل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة: ٢٢] أي بعد هذه الكثرة وذلك الوضوح يعرض عنها! هذا مستبعد في العقل^(١).

وقصر البقاعي كلامه في آية الكهف على الإشارة إلى دلالة الفاء على السببية، ولم يبين المناسبة وإنما اكتفى بالقول: «ولما كان التذكير سبباً للإقبال فعكسوا فيه قال تعالى ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾»^(٢). أما آية السجدة المشابهة فأشار إلى أنه عُبر فيها بأداة البعد «ثم» لرعي التقابل، لأنه تقدمها وصف المؤمنين بأنهم لم يتمالكوا أن خروا سجداً عند تذكيرهم بآيات الله، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥] فلما كان هذا الوصف دالاً على غاية الخضوع والإقبال اقتضت المقابلة وصف أضدادهم بغاية البعد والإعراض عند التذكير بالآيات، فعُدل إلى ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ لدلاتها على أن الإعراض مع بلوغ الآيات الغاية في الوضوح مستبعد في العقل^(٣)، ووقع المستبعد هو الغاية التي لا غاية وراءها.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في قصة آدم من سورة البقرة ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ [البقرة: ٣٥] وفي القصة نفسها من سورة الأعراف ﴿وَيَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦٤٧ حتى ٦٥٠.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١٢: ٩٢، وقد وجّه ذلك بمناسبة غير نصية، فاطرحناها لخروجها عن منهجنا كما نبهنا في موضع سابق.

(٣) انظر: السابق: ١٥: ٢٦٢.

وَزَوَّجَكَ الْجَنَّةَ فَكَلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا^(١) [الأعراف: ١٩]، فمع أن المتشابهين في قصة واحدة، والإخبار فيهما واحد، عُدل عن الواو في ﴿وَكَلَا﴾ إلى الفاء في ﴿فَكَلَا﴾.

والفرق بين العاطفين أن الواو تفيد الجمع بين متعاطفيها بلا قيد، ولا تفهم الترتيب إلا بقرينة، أما الفاء فتفيد الجمع بينهما على سبيل الترتيب والتعقيب، فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو^(٢). والأصل في العطف بهما «أن كل فعل عطف عليه ما يتعلق به تعلق الجواب بالابتداء، وكان الأول مع الثاني بمعنى الشرط والجزاء، فالأصل فيه عطف الثاني على الأول بالفاء دون الواو كقوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا أَذْخُلُوا هَذِهِ الْفَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨] فعطف ﴿كُلُوا﴾ على ﴿أَذْخُلُوا﴾ بالفاء لما كان وجود الأكل منها متعلقاً بدخولها، فكأنه قال: إن دخلتموها أكلتم منها، فالدخول موصل إلى الأكل، والأكل متعلق بوجوده وجوده، يبين ذلك قوله تعالى في مثل هذه الآية من سورة الأعراف ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ أَسْكُنُوا هَذِهِ الْفَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٦١] وعطف ﴿كُلُوا﴾ على قوله ﴿أَسْكُنُوا﴾ بالواو دون الفاء، لأن ﴿أَسْكُنُوا﴾ من السكنى، وهي المقام مع طول لبث، والأكل لا يختص وجوده بوجوده، لأن من يدخل بستاناً قد يأكل منه وإن كان مجتازاً، فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجواب بالابتداء وجب العطف بالواو دون الفاء^(٣).

والمقتضي لذلك العدول مناسبة السياق القريب والسياق البعيد، وفي كلٍّ أوجه، أما مناسبة السياق القريب فتدور على اختلاف المراد بـ ﴿أَسْكُنْ﴾؛ وهو قول الخطيب الإسكافي - وتابعه عليه الكرمانى والفخر الرازى وغيرهما - وقد رتبته على أن وقت الخطاب الذي خاطب به آدم في الآيتين المتشابهتين مختلف، وتفصيل ذلك أن ما في البقرة خطاب لآدم قبل دخول الجنة، فكان ﴿أَسْكُنْ﴾ فيها بمعنى الإقامة وطول اللبث، والأكل لا يختص وجوده بوجود السكنى، لأن من يدخل بستاناً قد يأكل منه وإن كان مجتازاً، فلما لم يتعلق الثاني بالأول تعلق الجواب بالابتداء ناسب التعبير بالواو الدالة على الجمع بين الإقامة

(١) انظر: درة التنزيل: ١٠، والبرهان: ١١٩، وملاك التأويل: ١: ٤١، وكشف المعاني: ٩٢، والعقد الجميل: ٩.

(٢) انظر: الفخر الرازى، التفسير الكبير: ١٤: ٤٥، وملاك التأويل: ١: ٤١ - ٤٢.

(٣) درة التنزيل: ١٠ - ١١، ووقع في الأصل فيما وضعناه بين قوسين فكلوا بالفاء، والصواب بالواو.

والأكل، ولا يصلح هنا إلا الواو، لأنه لو عُبر بالفاء لوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة لدلالة الفاء على الترتيب والتعقيب. أما آية الأعراف المشابهة فخطاب آدم فيها قبل دخوله الجنة، لأن الله تعالى أخرج إبليس من الجنة بقوله ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨] وخاطب آدم بقوله ﴿وَبَتَّادُمْ أَسْكَنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ [الأعراف: ١٨]، فكان ﴿أَسْكَنْ﴾ فيها بمعنى ادخلها ساكنًا واتخذها مسكنًا لمقابلة ﴿أَخْرِجْ﴾، ولما كان اتخاذ المسكن لا يمتد زماناً طويلاً يمكن أن يُجمع فيه بين الاتخاذ والأكل، بل يقع الأكل عقبه، كان الأنسب العدول إلى الفاء^(١).

وعضد ابن جماعة هذا الوجه - وتابعه السيوطي - بأن يبين مناسبة اقتران ﴿أَسْكَنْ﴾ بالواو في آية البقرة مع مراعاة حمله فيها على معنى أقم، ومناسبة اقترانه بالفاء في آية الأعراف على أنه فيها بمعنى اتخذ مسكنًا، أي أنه يبين مناسبة المناسبة التي بينها الخطيب الإسكافي ومن تابعه، فأشار إلى أن ما وقع في آية البقرة أبلغ مما وقع في آية الأعراف، لأن الله تعالى قال في آية البقرة ﴿وَقُلْنَا يَتَّادُمْ أَسْكَنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥] وقال في آية الأعراف ﴿وَبَتَّادُمْ أَسْكَنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: ١٩] ففي آية البقرة مما ليس في الأعراف نسبة القول إليه تعالى بـ ﴿وَقُلْنَا يَتَّادُمْ﴾ وهو يدل على التعظيم، وزيادة ﴿رَغَدًا﴾ وهو يدل على التوسعة، وفيها أيضاً قوله ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ وهو أعم من قوله في الأعراف ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، فلما كان الواقع في آية البقرة أبلغ في التوسعة والإكرام ناسبه التعبير بالواو الدالة على الجمع بين السكنى والأكل، لما في ذلك من الدلالة على زيادة الإكرام، ولا سيما أن ﴿أَسْكَنْ﴾ هنا بمعنى أقم. ولما كان الواقع في آية الأعراف أقل دلالة على التوسعة والإكرام ناسبه وقوع ﴿أَسْكَنْ﴾ بمعنى اتخذ مسكنًا، والعدول إلى الفاء لترتب الأكل على ذلك الاتخاذ^(٢)، إذ هما بهذا المعنى دون الواقع في آية البقرة.

(١) انظر: درة التنزيل: ١١، والبرهان: ١١٩ - ١٢٠. والفخر الرازي، التفسير الكبير: ٣: ٤، والزرکشي، البرهان في علوم القرآن: ١: ١٢٨، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٣٠ - ٢٣١.
(٢) انظر: كشف المعاني: ٩٢ - ٩٣، وانظر أيضاً: السيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٣٢، ومعتزك الأقران: ١: ٦٧، والإنقان: ٢: ٩٩٦.

وقبل أن نعرض لمناسبة السياق البعيد لآبد من الإشارة إلى أن ما ذهب إليه ابن جماعة من كون ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أعم من ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، يعكّر عليه ذهاب أبي جعفر بن الزبير إلى خلافه؛ فقد ذكر أن ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أعم لأنه يفهم إباحة الأكل من ثمر كل موضع في الجنة، فإذا قيل: كل من حيث شئت من مواضع هذا البستان، فالمعنى على إباحة الأكل من كل ما في مواضعه، أما إذا قيل: كل هذا العنقود حيث شئت من هذا البستان - وهذا ما نظر به ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ - فالمعنى على إباحة أكل عنقود معين حيث شاء من أماكن البستان، ولا تعرض بهذه الإباحة لأكل ما في كل موضع موضع منه إلا باحتمال ضعيف. هذا ما ذكره أبو جعفر بن الزبير^(١)، فنقول: ويقوّي هذا الاحتمال الضعيف ويرجّحه ورود ﴿قُلْنَا﴾ والتصريح بـ ﴿رَعَدًا﴾، وسيتضح هذا فيما سيأتي.

وأما مناسبة السياق البعيد فبينها البقاعي وابن عاشور من المفسرين المحدثين وأبو جعفر بن الزبير، ولم يفرق هؤلاء بين السكّنى في الآيتين؛ فذكر البقاعي أن سياق آية البقرة لمجرد بيان النعم التي أوجبت الشكر لله تعالى باختصاصه بالعبادة، وذلك فيما بينه تعالى من نعمته على كل نفس بقوله ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، ثم في تذكير الخلق بما أنعم على أبيهم آدم من نعم الاستخلاف في الأرض وإيتائه العلم وإسجاد الملائكة له وإسكانه الجنة وغير ذلك مما ذكر في قصته، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ثم قال ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَتَّكِدُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣] ثم قال ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤] ثم قال ﴿وَقُلْنَا يَتَّكِدُمُ أَشْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، فلما كان هذا السياق لمجرد بيان النعم كان المناسب عطف الأكل بالواو في قوله ﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾^(٢). أما آية الأعراف

(١) انظر: ملاك التأويل: ١ : ٤٤ .

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١ : ٢٨٣، وقارن ب: ١ : ٢٨٠ - ٢٨١ .

فوقعت في قصة آدم المتصلة بتذكير الله للخلق بما منحهم من التمكين لهم في الأرض، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا﴾ [الأعراف: ١٠] ثم وصلت بقصة آدم في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، ولهذا الاتصال رأى البقاعي أن السياق هنا للتعريف بأن الله سبحانه مكن لأبينا آدم في الجنة أعظم من تمكينه لنا في الأرض، بأن حباه رغد العيش مقارناً لوجوده فيها، والفاء أصرح في الدلالة على هذا المعنى من الواو، وأنسب لهذا السياق منها، لأنها تدل على أن المأكل كان مع الإسكان لم يتأخر عنه^(١)، ولذلك وقع التعبير هنا بـ ﴿فَكَلَّا﴾ معدولاً به عن مشابهه ﴿وَكَلَّا﴾ في آية البقرة.

ونحا ابن عاشور من المفسرين المحدثين منحى قريباً من البقاعي فذكر أن آية البقرة «أفادت السامعين أن الله امتن على آدم بمنة سكنى الجنة والتمتع بثمارها، لأن المقام هنالك لتذكير بني إسرائيل بفضل آدم وبذنبه وتوبته، والتحذير من كيد الشيطان الذي هم واقعون في شيء منه عظيم»^(٢) أما التذكير بفضل آدم فلا أنه حُكي في قصته في سورة البقرة أن الله تعالى منّ عليه بالاستخلاف في الأرض وبالعلم وبسجود الملائكة له، وبسكنى الجنة والتوسعة عليه وعلى زوجه فيها، كما تقدم في توجيه البقاعي. وأما التذكير بذنب آدم وتوبته فلأن الله تعالى نهاه وزوجه عن قربان شجرة مخصوصة في الجنة، ولكنهما أكلا منها بإزال الشيطان لهما، ثم تاب آدم من زلته تلك، قال تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٥-٣٦] أي من الجنة وما فيها من النعيم، ثم أخبر الله بتوبته فقال ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، وأما أن ذلك كله لتذكير بني إسرائيل فلأن قصة آدم التي دارت على ما تقدم ذكره من فضله وذنبه وتوبته وصلت بذكر النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل من لدن قوله تعالى ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلُ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]، والحاصل من ذلك أن المقام لما كان للتذكير بفضل آدم وبذنبه وتوبته كما ذكر ابن عاشور، وكان مرد هذا التذكير إلى تعديد النعم كما هو واضح فيما فصلنا، كان عطف

(١) انظر: السابق: ٧: ٣٧١، وقارن ب: ٧: ٣٦٢.

(٢) ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير: ٨: القسم الثاني: ٥٤.

الأكل بالواو مناسباً^(١)، وهو وجه قريب مما رأيناه عند البقاعي آنفاً. أما آية الأعراف فرأى ابن عاشور أنه أخبر بها في المقام الذي حُكي فيه الغضب على إبليس وطرده من الجنة، لأن الله تعالى أخبر عن إخراج إبليس منها بقوله ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مَذْهُورًا﴾ [الأعراف: ١٨] وعن إدخال آدم بقوله ﴿وَبَنَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩]، والمناسب لهذا المقام الإخبار بتعجيل المنة لآدم، لما فيه من مزيد التنغيص لإبليس، والفاء أدل على هذا من الواو، لأنها تفيد أن التمتع بشمار الجنة كان عقب الأمر بسكنائها، وهي مئة عاجلة تؤذن بتمام الإكرام^(٢)، ولهذه المناسبة عدل هنا إلى الفاء، فقليل ﴿فَكَلا﴾.

وكان أبو جعفر بن الزبير قد ذهب مذهباً مخالفاً للبقاعي وابن عاشور في رؤيته أن القصد بآية البقرة مجرد الإخبار والتعريف بما جرى في قصة آدم، وأن القصد بآية الأعراف تعداد النعم على آدم وذريته، وأن هذا هو المقتضي المناسب لاختصاص كل من العاطفين بآيته، قال أبو جعفر: «أما الوارد في البقرة فقصد به مجرد الإخبار والإعلام لرسول الله ﷺ بما جرى في قصة آدم - صلوات الله وسلامه عليه - وابتداء خلقه، وأمر الملائكة بالسجود له، وما جرى من إياية إبليس عن السجود، ثم ما أمر به آدم من سكنى الجنة والأكل منها، ولم يقصد غير التعريف بذلك من غير ترتيب زمني أو تحديد غاية، فناسبه الواو وليس الفاء»^(٣) ثم قال: «وأما آية الأعراف فمقصودها تعداد نعم الله - جل وتعالى - على آدم وذريته، ألا ترى ما تقدمها من قوله ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٠] وما أتبع به هذا من ذكر الخلق والتصوير وأمر الملائكة بالسجود لآدم، ثم قوله مُفْرِدًا لإبليس ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مَذْهُورًا﴾ [الأعراف: ١٨] ثم بعد ذلك أمر آدم - عليه السلام - بالهبوط متبعاً بالتأنيس له، ووصيته في قوله ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٧] فناسب هذا المقصد العطف بالفاء المقتضية للترتيب، والواو لا تقتضي ذلك وإنما بابها الجمع حيث لا [يراد] ترتيب»^(٣) ثم زاد في تبين مناسبة وقوع الفاء هنا، فقال: «وإنما ورودها هنا لما ذكرته من

(١) انظر: السابق، والصفحة نفسها.

(٢) ملاك التأويل: ١: ٤٢.

(٣) السابق، والصفحة نفسها، ووقع في الأصل يرد، والصواب يراد وهو ما وقع في بعض النسخ المخطوط كما أشار المحقق في الحاشية ٩ من الصفحة ٤٢، وهو أيضاً ما وقع في معترك الأقراء للسيوطي الذي نقل توجيه أبي جعفر بتمامه، انظر: معترك الأقراء: ٣: ١٥٨.

قصد تجريد التفصيل المحصل لتعداد النعم^(١). والظاهر أنه يعني أن تعداد النعم يناسبه التفصيل فيها، وفي العطف بالفاء تفصيل بالقياس إلى العطف بالواو، لدلالة الفاء على ترتب الأكل على السكنى ودلالة الواو على مطلق الجمع بينهما، فكان العدول إلى الفاء مناسباً لتعداد النعم من جهة ذلك التفصيل.

وغير خاف أن توجيه أبي جعفر مع وجاهة نتيجه تُصادمُ مقدمتهُ مقدمة توجيه البقاعي وابن عاشور كما أشرنا، ونعني بذلك ما ذهب إليه من أن القصد بآية البقرة وما اكتنفها التعريف بما جرى في قصة آدم، والقصد بآية الأعراف وما اكتنفها تعداد النعم على آدم وذريته، فهذا مصادم لمقدمة توجيه البقاعي وابن عاشور التي تدور على أن سياق آية البقرة لبيان النعم، وسياق آية الأعراف للتعريف بالتمكين لآدم في الجنة وبتعجيل المنة له. والذي أدى إلى تلك المصادمة أنه وقع تعداد للنعم في سياق الآيتين المتشابهتين، بيد أن التدقيق في السياق البعيد لكل منهما يبين أن آية البقرة قُصد فيها التعداد قصداً، وآية الأعراف جاء فيها تبعاً، لأن سياق آية البقرة لاستحقاق الله تعالى للعبادة بما أنعم على خلقه ابتداء من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ﴿البقرة: ٢٢١﴾ ولذلك كان تعداد النعم هنا مقصوداً، وكثير المذكور منها، وتعددت أصناف المنعم عليهم؛ فذكرت نعم الله على الناس كافة، ثم على آدم خاصة، ثم على بني إسرائيل. أما آية الأعراف فسياقها البعيد للأمر باتباع القرآن والنهي عن اتباع غيره، لأنه تعالى قال ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣] ولذلك طوي ذكر كثير من النعم التي ذكرت في سياق آية البقرة، واقتصر منها على ما يتعلق بالنهي عن اتباع غير القرآن والتحذير منه، فالنعمُ المعدودة في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١٠] وغير ذلك من النعم المذكورة في قصة آدم هنا؛ هي نعم سيقت في معرض النهي عن اتباع إبليس والتحذير منه، ودليله قول الله تعالى عقب قصة آدم ﴿يَبْقَىٰ آدَمُ لَا يَفْئِنَّاكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٧]

(١) ملاك التأويل: ١: ٤٣.

فسياق آية الأعراف المشابهة للبقرة إذاً هو النهي عن اتباع إبليس والتحذير منه، وهذا قريب جداً مما ذهب إليه البقاعي، إذ رأى أن السياق للتعريف بأن الله تعالى مكن لأبينا آدم في الجنة أعظم من تمكينه لنا في الأرض، فهذا ملابس لما قلناه ومتعلق به. وجملة القول أن مقدمة توجيه البقاعي وابن عاشور أصوب من مقدمة توجيه أبي جعفر، فضلاً عن أنها تتمشى مع توجيه الخطيب الإسكافي وابن جماعة.

ونرى أن العدول يحتمل مناسبة أخرى، هي أن قصة آدم في سورة البقرة مجملة، فناسبها الواو لدلالته على مطلق الجمع، أما سورة الأعراف فجاءت القصة فيها مفصلة، فلم يُخبر على سبيل المثال عن إزالال الشيطان لآدم وزوجه في سورة البقرة إلا بقوله تعالى ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦] على حين فُصِّل ذلك في سورة الأعراف بقوله ﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِبَدَىٰ لَٰهُمَا مَا يُورِي عَيْنُهُمَا مِّنْ سَوَاءٍ ۖ وَكَانَ مَأْوَٰهُمْ رَبُّكُمَا عَن هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ ۖ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَاصِحٌ ۖ فَدَلَّٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢٢] فلما كانت القصة في سورة الأعراف مفصلة اقتضت المناسبة العدول إلى الفاء، فقليل ﴿فَكَلا﴾، لأن من شأن التفصيل التدقيق، والفاء تحقق ذلك بدلالتها على أن الأكل مرتب على السكنى، بخلاف الواو الدالة على الجمع بلا ترتيب.

ومن أمثلة العدول الحرفي عن التشابه في قصتين مختلفتين قوله تعالى في قصة لوط من سورة الأعراف ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۖ إِلَّا أَن قَالُوا﴾ [الأعراف: ٨٢] وفي القصة نفسها من سورتي النمل والعنكبوت ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۖ إِلَّا أَن قَالُوا﴾ [النمل: ٥٦، والعنكبوت: ٢٩]، وقد أغفل أصحاب التوجيه مشابهاً آخر، وهو قوله تعالى في قصة إبراهيم من سورة العنكبوت ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۖ إِلَّا أَن قَالُوا﴾^(١) [العنكبوت: ٢٤]، فعطف القرآن ما في قصة لوط من الأعراف بالواو ﴿وَمَا﴾، ثم عدل عنه إلى العطف بالفاء ﴿فَكَلا﴾ في هذه القصة نفسها وفي قصة إبراهيم الواردتين في سورتي النمل والعنكبوت.

(١) انظر: درة التنزيل: ١٦٠ - ١٦١، والبرهان: ١٩٣، وملاك التأويل: ١: ٤١٨، والعقد الجميل: ٨١.

وقد رتب أصحاب التوجيه المناسبة هنا على أن الأصل في العطف بالفاء أن يكون ما بعدها أثراً لفعل وقع قبله، لأنها تفيد السببية أو ما يشبه معنى الجزائية على نحو ما مر في المثال السابق، والفعل أوضح إحراراً لهذين المعنيين؛ نحو ﴿سَقَرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦٠]، و﴿وَتُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾^(١) [الإسراء: ٦٠]، ولأنها تفيد التعقيب، والتعقيب يكون مع الأفعال^(٢)، ولا تفيد الواو شيئاً من ذلك، وإنما هي لمطلق الجمع.

أما مناسبة العدول بالنظر إلى إفادة الفاء السببية أو ما يشبه معنى الجزائية فيبينها الخطيب الإسكافي وأبو جعفر بن الزبير ومحمد رشيد رضا من المفسرين المحدثين؛ فذكروا أن آية الأعراف سُبقت بجملة اسمية - وهي قوله تعالى ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠] - وهي دون الجملة الفعلية في إعطاء معنى السببية وتقديره، فحسن العطف بالواو في قوله ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾. أما آيتا النمل والعنكبوت الثانية فُسبقتا بجملة فعلية - وهي قوله تعالى قبل آية النمل ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، وقوله قبل آية العنكبوت ﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] فـ «تجهلون»، و«تأتون»، وتقطعون، وتأتون» جمل فعلية مسوغة لتقدير معنى السببية، فكان الأنسب أن يعطف عليها بالفاء ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ جرياً على الأصل^(٣)، ولذلك عدل هنا إلى الفاء عن الواو الواقعة في آية الأعراف.

ويمكننا توجيه آية العنكبوت الأولى التي أغفلوها بمثل توجيههم آيتي العدول النمل والعنكبوت الثانية، لأنها كهاتين مسبوقه بجملة فعلية فيما حكاها الله تعالى من قول إبراهيم لقومه ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧] فإن هذه الجملة على بعدها مرتبطة ارتباطاً مباشراً بقوله تعالى ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ [العنكبوت: ٢٤] في بعض الأقوال، وما بينهما من الآيات اعتراض كما نقل أبو حيان^(٤)، فقوله تعالى ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مسوغة لتقدير معنى السببية، وهو من ثم سبب محتمل للعدول إلى التعبير بالفاء محقق للتناسب المعنوي.

(١) انظر: درة التنزيل: ١٦٢ - ١٦٣، وملاك التأويل: ١: ٤٢٧، ورضا، محمد رشيد، تفسير المنار: ٨: ٥١٣.

(٢) انظر: البرهان: ١٩٣ - ١٩٤.

(٣) انظر: درة التنزيل: ١٦٢ - ١٦٣، وملاك التأويل: ١: ٤٢٨، ورضا، محمد رشيد، تفسير المنار: ٨: ٥١٣ - ٥١٤.

(٤) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ٧: ١٤٧.

وأما مناسبة العدول بالنظر إلى إفادة الفاء التعقيب فينها الكرمانى - وتابعه بعضهم - ولم يتعد كثيراً عما رآه أصحاب الوجه الأول، إذ بنى بيانه على أن آية الأعراف مسبوقه باسم - وهو ﴿مُسْرِفُونَ﴾ في قوله تعالى ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠] - فعطفت الجملة ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٨٢] بالواو لأن الاسم لا يناسبه التعقيب. أما آيتا النمل والعنكبوت الثانية فمببوقتان بفعل - وهو ﴿تَجْهَلُونَ﴾ في قوله تعالى ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، و﴿وَتَأْتُونَ﴾ في قوله ﴿وَتَأْتُونَ فِي كَادِيكُمْ الْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٢٩] - والفعل يناسبه التعقيب، فاقضى إحراز هذه المناسبة العدول إلى الفاء، فقبل: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾^(١).

وما ذكره الكرمانى من مناسبة العدول إلى الفاء في آيتي النمل والعنكبوت الثانية ينطبق على آية العنكبوت الأولى التي أغفلوها، لأن قوله تعالى فيها ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ [العنكبوت: ٢٤] معطوف على قوله ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وما بينهما اعتراض على قول كما أشرنا سابقاً، فلما كانت الآية مسبوقه بالفعل ﴿تُرْجَعُونَ﴾ اقتضت رعاية التناسب العدول إلى العطف بالفاء لدالتها على التعقيب ولكون الفعل يناسب التعقيب.

٣. العدول بالمبدلات الحرفية النافية :

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة البقرة ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥] وفي سورة الجمعة ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٢) [الجمعة: ٧٠-٧١] فالمتشابهان في الإخبار عن حال اليهود المعاصرين لرسول الله - ﷺ - بانتفاء تمنيه الموت، ومع اتحاد الإخبار فيهما عدل القرآن عن النفي بـ ﴿لَنْ﴾

(١) انظر: البرهان: ١٩٣ - ١٩٤، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ١٠٢٦، والأنصاري، زكريا، فتح الرحمن: ٢٠٠، والآلوسي، روح المعاني: ٨: ١٧١.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٢٤، والبرهان: ١٢٨، وملاك التأويل: ١: ٨٣ - ٨٤، وكشف المعاني: ١٠٣، والعقد الجميل: ١٦.

إلى النفي بـ «لا» مراعاة للمناسبة المعنوية. وجوّز بعضهم التفنن؛ على القول بترادف الحرفين على نفي المستقبل^(١)، وهو وجه مرجوح، لأن الترادف خلاف الأصل، فالأصل التفريق، وهو مذهب جل من تعرض لهذا التشابه. وعليه رتبوا المناسبة.

وقد فرقوا بين الحرفين من أوجه، منها أن «لن» أبلغ ألفاظ النفي، أما «لا» فلمطلقه من غير مبالغة، وهو مذهب الخطيب الإسكافي، وتابعه عليه جماعة^(٢)، وعبر بعضهم عن هذه الأبلغية بالتوكيد^(٣)، والمراد بذلك ما ذكره الزمخشري من أن لن «تفيد تأكيد النفي الذي تعطيه لا، وذلك أن لا تنفي المستقبل، تقول: لا أفعل غداً، فإذا أكدت نفيها قلت: لن أفعل غداً»^(٤) والقول بالتوكيد مذهب المحققين كما ذكر السيوطي^(٥). ومن أوجه الفرق أيضاً أن «لن» تفيد النفي على التأييد بخلاف «لا»، وهو قول للزمخشري رجع عنه إلى مذهب الجماعة في أنها لا تقتضيه^(٦). ومن الأوجه أيضاً ما ذهب إليه ابن الزملكاني (ت ٦٥١ هـ) من أن «لن» زمان نفيها قصير، أما «لا» فطويل ومتسع، وهذا ما أراده بأن «لن تنفي ما قرب، وأن لا يمتد معنى النفي فيها كما يمتد في (النفس)»^(٧) وتابعه على ذلك ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ). ومن الأوجه أيضاً ما ذكره أبو جعفر بن الزبير من أن «لن» تختص بالمضارع ونفي المستقبل، لأن «لن يفعل» جواب سيفعل، أما «لا» فدخلها على المضارع لنفي ما يأتي حالاً كان أو استقبالاً^(٨). وخلاصة الأوجه أن «لن» أبلغ في النفي من «لا» وأكد، وهي تفيد النفي المؤبد، ويقصر زمان نفيها، وتختص بنفي المستقبل، ومع أن كل هذه الأوجه فيه خلاف سوى الأخير^(٩) فإنها

(١) انظر: الألوسي، روح المعاني: ٢٨ : ٦٩.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٢٤، والبرهان: ١٢٨، والفخر الرازي، التفسير الكبير: ٣ : ١٩٢، وكشف المعاني: ١٠٣ - ١٠٤، وأبو حيان، البحر المحيط: ١ : ٣١١، والسيوطي، قطف الأزهار: ١ : ٢٩١.

(٣) انظر: السيوطي، قطف الأزهار: ١ : ٢٩١.

(٤) الزمخشري، الكشف: ٢ : ١١٣، وانظر أيضاً: ٤ : ١٠٣.

(٥) انظر: السيوطي، قطف الأزهار: ١ : ٢٩١.

(٦) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ١ : ٣١١، و ٨ : ٢٦٧.

(٧) ابن الزملكاني، التبيان: ٨٤، وانظر أيضاً: المجيد، له: ١٠٧، وما وضعناه بين قوسين هو في الأصل النفي بالياء، وصوابه ما أثبتناه.

(٨) انظر: ملاك التأويل: ١ : ٨٤، وانظر أيضاً: السيوطي، معترك الأقران: ٣ : ٣٧٢.

(٩) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ٨ : ٢٦٧، وابن هشام، مغني اللبيب: ٣٧٤، والسيوطي، جمع الهوامع: ٢ : ٣ - ٤.

صالحة لتعليل العدول بالمناسبة، وهو ما رآه من وجه هذا التشابه، إذ رتبوا على كل وجه مناسبة، فتعددت المناسبات تبعاً لتعدد أوجه الفرق.

أما مناسبة العدول باعتبار الوجه الأول من الفرق فهي كما كشف عنها الخطيب الإسكافي - وتابعه جماعة - أنه ذكر في سياق آية البقرة ادعاء اليهود خلوص الدار الآخرة؛ أي الجنة، لهم من دون الناس، قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٩٤] وفي هذا مبالغة، لأن الخلوص غاية ما يطلبه المطيع، فناسب نفي تمنيه الموت المؤدي إلى بطلان ما ادعوه بـ «لن» من حيث كانت أبلغ ألفاظ النفي. أما آية الجمعة المشابهة فادعائهم فيها دون المذكور في البقرة، وهو زعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس، قال تعالى ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ [الجمعة: ٦] ولا يلزم من الولاية لله الاختصاص بجنته، لأن الولاية وسيلة إلى الجنة، فاقتضت المناسبة عند نفي تمنيه الموت المؤدي إلى بطلان ما ادعوه العدول عن «لن» إلى ما هو دونه في النفي، فاختر «لا»، وقيل ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْهُ﴾ لدلالته على مطلق النفي من غير مبالغة^(١).

وأشار ابن جماعة إلى مناسبة أخرى للعدول باعتبار هذا الوجه الأول من الفرق، وهي أن آية البقرة وردت بعدما ذكر من كفر اليهود وعصيانهم وقتلهم الأنبياء، قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْخِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] وقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَبِكُفْرُوا بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١] وقال ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ ءِيمَنُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]، فناسب هذا المذكور من كفرهم وعصيانهم الذي بالغوا فيه حرف المبالغة في نفي تمنيه الموت، فقيل: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾. أما آية الجمعة فلم يتقدمها مثل ذلك، وإنما هي مسبوقة بدمهم لتكذيبهم

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٤ - ٢٥، والبرهان: ١٢٨، وكشف المعاني: ١٠٣، وأبو حيان، البحر المحيط: ١: ٣١١، والباقعي، نظم الدرر: ٢: ٦٠، و ٢٠: ٥٩، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٩١ - ٢٩٢.

بآيات الله وظلمهم، قال تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]، فلما كان المذكور هنا أخف مما ذكر في سياق آية البقرة اقتضى إحراز التناسب العدول عن نفي تمنيه الموت بـ «لن» إلى «لا» لخلوه من المبالغة^(١).

وأشار ابن حمزة اليميني (ت ٧٤٩ هـ) إلى مناسبة أخرى باعتبار وجه المبالغة أو التوكيد من الفرق، وذلك في معرض استدلاله على كون «لن» موضوع للمبالغة في النفي وتوكيده، وحاصل ما أشار إليه أنه وقع في سياق آية البقرة عدة مؤكدات يناسبها النفي بـ «لن» لأن الله تعالى قال ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٩٤] فقد أكد بـ «لَكُمْ» على جهة الملك والاختصاص من بين سائر الناس، ووصف الدار بكونها آخرة مبالغة في أمرها وإيضاحاً لشأنها، وقرره بقوله ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ إيضاحاً للأمر أيضاً، ثم قال ﴿خَالِصَةً﴾ يعني مختصين بها دون غيركم، وهكذا قوله ﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ فيه نهاية الاختصاص، فلما حصل تأكيد هذا الخطاب بهذه الأنواع من التوكيد أتى بالنفي بـ «لن»، لما بالغ في (إثباته) بالغ في نفيه^(٢). ونقل السيوطي عن صاحب المناجاة أن نفي تمنيه الموت هنا مؤكد بجملة مستقلة تلت ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾، وهي قوله تعالى ﴿وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَرْضَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ﴾^(٣) [البقرة: ٩٦]، فصار نفي التمني هنا مكتنفاً بالمؤكدات من جانبيه، فلم يناسبه إلا التعبير بالنافي الموضوع للتأكيد والمبالغة وهو «لن». أما آية الجمعة فلم يؤكد فيها نفي تمنيه الموت بجملة مستقلة كما أشار صاحب المناجاة فيما نقله السيوطي عنه^(٤)، ولم يسبق الآية من المؤكدات ما سبق مشابعتها آية البقرة، فاقتضى إحراز التناسب العدول إلى النفي بـ «لا» لخلوها من التوكيد.

وأضاف الألوسي [ت ١٢٧٠ هـ] مناسبة أخرى، فذكر أنه وقع في سياق المتشابهين ادعائهم الاختصاص من دون الناس، ولكنهم لما زادوا في البقرة أن الاختصاص أمر مكشوف

(١) انظر: كشف المعاني: ١٠٤.

(٢) ابن حمزة اليميني، الطراز: ٢: ٢٠٩ - ٢١٠، ووقع في الأصل إثباته، وواضح أنه مصحّف عن إثباته كما ذكرنا.

(٣) انظر: السيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٩٢.

(٤) انظر: السابق، والصفحة نفسها.

لا شبهة فيه محققة عند الله - وهو ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٤] - ناسبه تأكيد ما ينفي ذلك الاختصاص؛ أي تأكيد نفي تمنيه الموت، فكان التعبير بـ «لن» النافي المؤكد هنا واقعاً موقعه^(١). أما آية الجمعة فالاختصاص فيها غير واضح وضوحه في مشابهتها؛ من حيث كونه ولاية الله، فضلاً عن أن ادعاءهم إياه مجرد زعم - وهو ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ [الجمعة: ٦] فاقتضت المناسبة عند نفي ذلك الاختصاص؛ بنفي تمنيه الموت، العدول إلى النافي الخالي من التوكيد، فقيل ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْهُ﴾.

وأما مناسبة العدول باعتبار الوجه الثاني من الفرق؛ أي باعتبار إفادة «لن» النفي المؤبد، فأشار إليها أبو حيان، ولكنه اكتفى بتوجيه آية البقرة، وبنى توجيهه على ظاهر قوله تعالى ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٥] الذي هو إخبار غيبي يراد منه تكذيب اليهود في ادعائهم الاختصاص بالجنة، قال أبو حيان: «وظاهره أن من ادعى أن الجنة خالصة له دون الناس ممن اندرج تحت الخطاب في قوله ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ [البقرة: ٩٤] لا يمكن أن يتمنى الموت أبداً، ولذلك كان حرف النفي هنا لن الذي قد ادعى فيه أنه يقتضي النفي على التأييد، فيكون قوله ﴿أَبَدًا﴾ على زعم من ادعى ذلك للتوكيد^(٢). وليس ظاهر هذه الآية أولى من مشابهتها في إفهام نفي تمنيه الموت على التأييد أو في الإشعار به، إلا إذا كان الذي جعل أبا حيان يذهب ذلك المذهب وقوع المبالغة في ادعائهم الاختصاص بالجنة في آية البقرة، فإذا صح هذا - وهو الأقرب - كانت مناسبة العدول في آية الجمعة إلى «لا» الذي لا يفيد استمرار النفي على التأييد عائدة إلى أن ادعاءهم الاختصاص بالولاية فيها دون ادعائهم في البقرة، على نحو ما سبق بيانه في المناسبات المبنية على أبلغية «لن».

وأما مناسبة العدول باعتبار الوجه الثالث من الفرق فأشار إليها ابن الزمكاني (ت ٦٥١هـ) ومن تابعه في معرض استدلالهم على أن «لن» تنفي ما قرب، و «لا» يمتد معنى النفي فيها، فقد رأوا أن حرف الشرط «إن» في قوله تعالى في سياق آية البقرة ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [البقرة: ٩٤] دخل على «كان»، و «كان» فعل ناقص لا يدل على

(١) انظر: الألوسي، روح المعاني: ٢٨: ٩٦.

(٢) أبو حيان، البحر المحيط: ١: ٣١١.

الحدث، وإنما يدخل على المبتدأ والخبر ليقرن مضمون الجملة بالزمان الماضي؛ أي ليدل على الزمان الماضي الذي وقع فيه ذلك الحدث، وكأنه قيل: إن كان قد وجبت لكم الدار الآخرة وثبتت لكم في علم الله فتمنوا الموت الآن، وبهذا يكون حرف الشرط داخلاً على فعل أمدّه قريب بالقياس إلى ما وقع في آية الجمعة، فناسب أن يكون الجواب ﴿وَلَنْ يَمَمَّوْهُ﴾ من حيث كان «لن» لنفي ما قرب. وقد نبهوا على أن وقوع ﴿أَبَدًا﴾ هنا بإزاء ﴿لَنْ﴾ لا يعارض ما ذهبوا إليه، لأن لفظ «الأبد» قد يأتي بعد فعل الحال نحو: زيد يقوم أبداً، وقد يأتي للزمن القريب تفخيماً لأمره وإعطاءً له معنى الزمن الطويل نحو: زيد يصلي أبداً. أما آية الجمعة فأرأوا فيها أن حرف الشرط الوارد في سياقها داخل على فعل تام دال على حدث في قوله تعالى ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ﴾ [الجمعة: ٦] فصارت الصيغة من صيغ العموم، لأن حرف الشرط لا يختص بوقت دون وقت، وإنما يعم جميع الأزمنة، وكأنه قيل: متى زعموا ذلك في وقت من الأوقات وقيل لهم: تمنوا الموت فلا يتمنونه، فلما كان حرف الشرط دالاً على هذا المعنى من العموم اقتضى إحراز التناسب العدول إلى «لا» لاتساع معنى النفي فيها، على حين فات العموم من آية البقرة لدخول «إن» على «كان» كما تقدم^(١).

وأما مناسبة العدول باعتبار الوجه الأخير من الفرق فهي كما بين أبو جعفر بن الزبير وتابعه السيوطي أن نفي التمني في البقرة هو جواب لحكم أخروي يُستقبل - وهو خلوص الجنة لهم كما ادعوا المدلول عليه بقوله تعالى ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ حَالِصَةً﴾ [البقرة: ٩٤] فناسبه النفي بـ «لن» من حيث كان هذا الحرف موضوعاً لنفي المستقبل، لأن «لن» جوابٌ سيفعل. أما في آية الجمعة فكان نفي التمني جواباً لحكم دنيوي ووصف حالي لا استقبال فيه - وهو زعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس كما قال تعالى ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ [الجمعة: ٦] - فاقتضت مراعاة التناسب العدول إلى النافي «لا» لأنه يدخل على الحال، وقد يدخل على المستقبل^(٢).

(١) انظر: ابن الزمكاني، التبيان: ٨٥، والمجيد، له: ١٠٧ - ١٠٨، وابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد: ٩٦: ١.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ١: ٨٤، والسيوطي، معترك الأقران: ٣: ٣٧٢.

تبين الأمثلة السابقة أن العدول عن التشابه بالمبدلات الحرفية مراعى به تحقيق التناسب المعنوي في المتشابهين، وأنه لولا العدول لذهب هذا التناسب واختل البيان المعجز.

ج. العدول بالمبدلات التعقيبية للتناسب المعنوي :

«التعقيب» مصطلح من مصطلحات الدراسات القرآنية^(١)، قليل الشيوع، فلم يستعمله من أصحاب التوجيه إلا أبو جعفر بن الزبير، وقد وقع في كتابه كثيراً^(٢)، ويشير استعماله له إلى أن المراد به ختام الآية، وأنه لا يكون إلا جملة أو أكثر^(٣)، فهو يخالف الفاصلة عند من اختار أنها كلمة آخر الآية^(٤)، ومثاله قوله تعالى ﴿فَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمُنْعُ الْحَيَوَاتِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦] فالتعقيب قوله ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وكذلك قوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ من قوله ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾^(٥) [النساء: ١٣٠]. وقد يكون التعقيب آية يعقب بها مقطع مؤلف من قصة أو من عدة آيات نحو الآية ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمْ كَذِبَان﴾ التي تكررت كثيراً في سورة الرحمن، وكان بعض مكرراتها تعقيباً لمقطع وبعضها لآية^(٦).

والمناسبة البيانية في التعقيبات القرآنية مطلوبة ليحصل بها ترابط الكلام وزيادة البيان، قال الزركشي: «اعلم أن من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام

(١) انظر: أبو زيد، أحمد، التناسب البياني في القرآن: ٩٦ - ٩٧.

(٢) انظر على سبيل المثال: ملاك التأويل: ١: ٤٢٦، و ٢: ٥٦٨، و ٦٣٦ - ٦٣٧، و ٨٥٧.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٦٣١ وقارن بـ ٦٢٩، وانظر أيضاً: ٢: ٦٣٥، و ٢: ٨٤٧ - ٨٤٨.

(٤) انظر الاختيار والخلاف في تعريف الفاصلة في كتاب محمد الحساوي: الفاصلة في القرآن: ٢٢ حتى ٢٦. والتعقيب بالمفهوم الذي ذكرناه يندرج تحت الفاصلة عند كثير من القدماء والمعاصرين، انظر على سبيل المثال: كتاب محمد الحساوي: الفاصلة في القرآن: ٢٢ حتى ٢٦، و ١٨١ - ١٨٢، وانظر أيضاً: مقال د. نعيم اليافي «قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن» في مجلة التراث العربي، العدد: ١٥ - ١٦: ١٤٦. وقارن على سبيل المثال بين ما ذكره أبو جعفر بن الزبير في ملاك التأويل: ٢: ٨٥٠ وبين ما ذكره الزركشي في البرهان: ١: ٨٦. والأولى التفريق بين التعقيب والفاصلة بما ذكرناه، لأن ثمة جملاً أو عبارات لا يمكن عدها فواصل لطولها - انظر على سبيل المثال: ملاك التأويل: ١: ٢٠٣، و ٣٠٠ - ٣٠١، وثمة آيات لا تعدى كلمة واحدة، فلا ينطبق عليها مفهوم التعقيب.

(٥) انظر: ملاك التأويل: ١: ٤٢٦، و ١: ٢١٨ على الولا.

(٦) انظر: السابق: ٢: ٨٨٦ وما بعدها، وانظر مثلاً آخر في: ٢: ٩٠٩.

وأواخره، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله، فلا بد أن تكون مناسبة للمعنى المذكور أولاً، و
إلا خرج بعض الكلام عن بعض^(١) ولأجل تلك المناسبة وقع العدول عن التشابه في
القرآن الكريم.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ
الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وفي سورة النحل ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ
اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) [النحل: ١٨]، فالمتشابهان في موضوع واحد، هو كثرة نعم الله تعالى
على الخلق وعجزهم عن إحصائها، والإشارة بذلك إلى عجزهم عن شكرها، ومع أن
الموضوع واحد عدل القرآن عن التعقيب بـ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ إلى التعقيب بـ
﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مراعاة للتناسب المعنوي.

وقد راعى العدول ذلك التناسب من أوجه، أحدها ما ذهب إليه أبو جعفر بن الزبير
وتابعه عليه السيوطي، وهو أن المتشابهين وقع في سياقهما ذكر نعم الله، إلا أن سياق آية
إبراهيم ذكر فيه مع ما تقدم مقابلة العبيد الإنعام بالتبديل واتخاذ الأنداد، فناسبه التعقيب
بوصف الإنسان بالظلم، وسياق آية النحل متمحّض لذكر النعم، فناسب ذلك العدول إلى
قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، قال أبو جعفر بن الزبير: «آية إبراهيم تقدمها قوله تعالى
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨] ثم قوله ﴿وَجَعَلُوا
لِلَّهِ أَدَادًا لِّيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] ثم ذكر إنعامه على عباده في قوله ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٣٢] إلى
قوله ﴿وَأَتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَاءٍ سَائِطُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فناسب ما ذكره تعالى من توالي إنعامه
ودرور إحسانه، ومقابلة ذلك من العبيد بالتبديل وجعل الأنداد، وصف الإنسان بأنه ظلموم
كفار. أما آية النحل فلم يتقدمها غير ما نبّه سبحانه عباده المؤمنين من توالي (آلائه) وإحسانه
وما ابتدأهم به من نعمه، من لدن قوله ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤] ثم توالى (آي)
الامتنان والإحسان، فقال تعالى ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلْقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْعٌ﴾ [النحل: ٥] فذكر

(١) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ١ : ٧٨.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٢ : ٥٨٠، والعقد الجميل: ١٠٥.

تعالى بضعاً وعشرين من أمهات النعم، إلى قوله منبهاً وموقظاً من الغفلة والنسيان ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] ثم أتبع بقوله سبحانه ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] فناسب ختام هذا قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] ^(١).

والوجه الثاني من مراعاة العدول للتناسب ما ذهب إليه أبو حيان وتابعه عليه الألوسي، وهو قريب من الأول، ومداره على أن آية إبراهيم وقع في سياقها النص على كفران العبيد النعمة وظلمهم باتخاذ الأصنام، فناسبها التعقيب بوصف الإنسان بالظلم والكفر، أما آية النحل فأطنب في ذكر النعم في سياقها، ولما كان الغفران والرحمة من نعمه تعالى اقتضى التناسب العدول هنا إلى التعقيب بهما، قال أبو حيان في آية إبراهيم: لما «تقدم قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨] وبعده ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [إبراهيم: ٣٠] فكان ذلك نصاً على ما فعلوا من القبائح من كفران النعمة والظلم الذي هو الشرك بجعل الأنداد، ناسب أن يختتم بدم من وقع ذلك منه، فجاء ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ^(٢). وقال في الآية المشابهة: «وأما في النحل فلما ذكر عدة تفضلات وأطنب فيها وقال ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] - أي من أوجد هذه النعم السابق ذكرها ليس كمن لا يقدر على الخلق ولا على شيء منه - ذكر من تفضلاته اتصافه [بالغفران] والرحمة تحريضاً على الرجوع إليه، وأن هاتين الصفتين هو متصف بهما كما هو متصف بالخلق، ففي ذلك إطماع لمن آمن به وانتقل من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق وأنه يغفر زَلَّه السابق ويرحمه» ^(٣).

ونقل الألوسي وجهاً آخر قريباً جداً من السابق ومقصوراً على آية النحل، فقال: «وقيل: إنما ختم سبحانه آية النحل بما ختم للإطناب هناك في ذكر النعم مع تقدم الدعوة

(١) ملاك التأويل: ٥٨٠/٢ - ٥٨١، وما وضعناه بين قوسين من قوله قومهم ساقط من الأصل، والآء هو في الأصل الآية فصوبناه مما نقله السيوطي عن أبي جعفر في معترك الأقران: ٣١٧/٣، وقوله أي هو في الأصل آية والصواب ما أثبتنا كما هو ظاهر. وانظر متابعة السيوطي لأبي جعفر في معترك الأقران: ٣١٧/٣.

(٢) أبو حيان، البحر المحيط: ٤٢٨/٥ - ٤٢٩، وانظر أيضاً: الألوسي، روح المعاني: ٢٢٩/١٣.

(٣) أبو حيان، البحر المحيط: ٤٢٩/٥، وما بين القوسين هو في الأصل بالعذاب، وواضح أن الصواب ما أثبتناه وهو ما نقله الألوسي في روح المعاني: ١٣: ٢٢٩ عن أبي حيان.

إلى الشكر صريحاً، فكان مظنة التقصير فيه، ويناسب الإطناب في سرد النعم أن يذكر منها ما يتعلق بذلك، وهو الغفران والرحمة^(١). أي أن شكر النعم المدعو إليه في سياق الآية بقوله تعالى ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤] هو مظنة التقصير لكثرة النعم، فناسبه العدول إلى التعقيب بصفتي الغفران والرحمة.

والوجه الثالث من أوجه مراعاة العدول للتناسب ما ذهب إليه الزركشي وتابعه عليه السيوطي؛ وهو «أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جُبل عليه، فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه. وأما آية النحل فسيقّت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق صفاته، فناسب ذكر وصفه سبحانه»^(٢). ومراده بأن سياق آية إبراهيم في وصف الإنسان وما جُبل عليه: أن الإنسان مجبول على النسيان والملل، ومن هنا وقع كفرانه للنعمة^(٣)، والظاهر أن الزركشي أراد بسياق آية إبراهيم ما يدل على ذلك الكفران من قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا بَعَثَ اللَّهُ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: ٢٨]، أما سياق آية النحل وأنه في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته فلا أنه تعالى قال ﴿يُزِلُّ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ فَحَقَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣٠٢] ثم ذكر نعماً كثيرة، ثم قال ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] فهذا مراد الزركشي بكون السياق لإثبات الألوهية على ما يبدو، والمهم أن هذا السياق يناسبه صفات الله تعالى لا صفات الإنسان، ولهذا عدل القرآن هنا إلى التعقيب بـ ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

والوجه الرابع من أوجه التناسب ما ذهب إليه البقاعي من أن أكثر سورة إبراهيم في الكلام على الكفرة ومآلهم، وفي بيان أن أكثر الخلق هالك معرض عن نعمة الهداية التي تدعو إليها الرسل، نحو قوله تعالى ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣٠٢] وما تلا ذلك من ذكر الأقوام البائدة التي كفرت برسالتها، ونحو ما ذكر أيضاً من

(١) الألوسي، روح المعاني: ١٣: ٢٣٠.

(٢) الزركشي، البرهان: ١: ٨٦، وانظر أيضاً: السيوطي، معترك الأقران: ١: ٣٥، والإتقان: ٢: ٩٥٧.

(٣) انظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير: ١٩: ١٣٠.

وصف أعمال الكفار وعذابهم، وذكر الذين بدلوا نعمة الله كفراً، ونحو الإشارة إلى أن أكثر الخلق ضال بما حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام من قوله ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ * رَبِّ إِنِّي أَخْلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴿إبراهيم: ٣٦-٣٥﴾ وغير ذلك، فلما كان أكثر هذه السورة مداره على ذكر الكفرة وإعراضهم عن نعمة الهداية ناسب تعقيب الآية بصفتي الإنسان الظلم والكفران. وزاد البقاعي على ذلك الإشارة إلى أن هذا التعقيب مناسب من وجه آخر لمطلع السورة؛ وهو قوله تعالى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَتَىٰ كِتَابُكُمُ الْبَيِّنَاتُ أَنَّكُم مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [النور: ٢٤] يَأْذَنُ رَبُّهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿إبراهيم: ١﴾ فوصف الناس بأنهم في الظلمات يناسبه وصف الإنسان بالظلم والكفران. أما آية النحل فذكر البقاعي أنها سورة النعم، أي أنه ذكرت فيها نعم كثيرة كما سبق بيانه، فناسبها العدول إلى التعقيب بما يندرج في النعم. وأشار أيضاً إلى أن هذا العدول مناسب من وجه آخر لمطلع السورة كما كان في سابقتها، لأن مطلع سورة النحل قوله تعالى ﴿أَنَّىٰ أَمُرُّهُ فَلَا سَتَعْلُوهُ﴾ [النحل: ١] فالنهي عن استعجال العذاب رحمة؛ لما فيه من الإمهال والإمتاع بالمنافع، فناسبه التعقيب بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ^(١).

ومن أمثلة العدول التعقيبي أيضاً قوله تعالى في سورة النساء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] وفي آية لاحقة من السورة نفسها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ لَبِيعًا﴾ ^(٢) [النساء: ١١٦]، فالمتشابهان في عظم ذنب الإشراك بالله تعالى، ولكن لم يقع التعبير عن طبيعة هذا الإشراك التي يفيدها التعقيب بلفظ واحد، فعبر القرآن في الآية الأولى بـ ﴿فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، وعدل عنه في الثانية إلى ﴿فَقَدْ ضَلَّ لَبِيعًا﴾.

وقد ذكر أصحاب التوجيه وجهين من المناسبة التي عدل القرآن عن ذلك التشابه لأجلها، أحدهما ما رآه أبو جعفر بن الزبير من أن الآية الأولى وقع قبلها ذكر أهل الكتاب، وأن الثانية وقع قبلها ذكر المنافقين، وأنه ذكر في سياق الأولى افتراء أهل الكتاب وتحريفهم

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١٠: ٤٢٢ - ٤٢٣.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٧٩، والبرهان: ١٥٥، وملاك التأويل: ١: ٢٠٧، وكشف المعاني: ١٣٨، والعقد الجميل: ٥٠.

ابتداء من قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيَرِيدُونَ أَن تَصْلُوا
الْكَيْسِلَ﴾ [النساء: ٤٤] ثم قال تعالى ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]
فناسب ذلك أن يوصفوا بالافتراء الذي هو أخص صفات من كذب من أهل الكتاب فقال
تعالى ﴿فَقَدْ أَفَرَقَ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]. أما الآية المشابهة فرأى أنه ذكر قبلها ما يخص
منافقي أيام نبينا ﷺ ابتداء من قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ
بِمَا أَرْكَأَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] ثم قال تعالى ﴿وَلَا تُجِدِلْ عَنِ الَّذِينَ
يَحْتَابُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٧] إلى أن قال ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا نَبَّأَهُ الْهُدَىٰ﴾
[النساء: ١١٥]، فلم يتخلل هذه الآيات ذكر افتراء ولا تحريف، وإنما ذكر المنافقون لنفاقهم
وما صدر منهم من غير الكذب والافتراء، فناسب ذلك أن يُعدل إلى التعقيب بذكر الضلال،
ف قيل: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(١) [النساء: ١١٦].

والوجه الثاني من مناسبة العدول ما اتفق عليه جماعة من أن الآية الأولى في ذكر أهل
الكتاب، وأيد بعضهم ذلك بأنها أتبعته بقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾
[النساء: ٤٩] وقوله ﴿انظُرْ كَيْفَ يَقْرَوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكِتَابَ﴾ [النساء: ٥٠] وتركبة النفس والافتراء من
شأن اليهود، واتفقوا على أن الآية الثانية في ذكر المشركين، وأيد ذلك بعضهم بأنها أتبعته
بقوله تعالى ﴿إِن يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا﴾ [النساء: ١١٧]، ثم أوضحوا أن أهل الكتاب
الذين كان السياق لهم في الآية الأولى افتروا على الله ما لم يقله، لأنهم عرفوا مما أوتوا
من الكتاب صحة نبوة محمد ﷺ ووجوب اتباع شريعته وما يدعو إليه من الإيمان بالله، ومع
ذلك كفروا وأشركوا، فصار ذلك افتراء على الله، فكان تعقيب الآية الأولى بقوله تعالى
﴿فَقَدْ أَفَرَقَ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] مناسباً. أما المشركون وعبداء الأصنام الذين كان
السياق لهم في الآية المشابهة فليس لهم كتاب، والجهل فيهم فاش، ولم يأتهم بالهدى
سوى رسول الله ﷺ، فكفروا وأشركوا فضلوا بذلك ضلالاً يُستبعد وقوعه^(٢)، فكان إحراز

(١) انظر: ملاك التأويل: ١: ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٨٠، وكشف المعاني: ١٣٩، وأبو حيان، البحر المحيط: ٣: ٣٥١، والبقاعي،
نظم الدرر: ٥: ٢٩٨ و ٤٠٤، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٧٥١، والآلوسي، روح المعاني:
١٤٨: ٥.

التناسب يقتضي العدول إلى التعقيب بوصفهم بالضلال، ولذلك قيل ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٤٨].

فالوجهان متقاربان، وإن كان الأول أوجه لتعلقه بجزئيات السياق ومسايرته لها، وليس بينهما اختلاف من حيث كون سياق الآية الثانية لذكر المنافقين على قول أبي جعفر، ولذكر المشركين على قول الجماعة، لأن المنافقين أكثرهم أهل أوثان كما ذكر البقاعي؛ وهو ممن قال بقول الجماعة^(١).

وثمة وجه ملحق بالوجه الثاني، ذكره أبو حيان واقتصر فيه على توجيه الآية الثانية؛ وهو أنها لما كانت مسبقة بذكر الهدى في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى﴾ [النساء: ١١٥] كان المناسب العدول إلى التعقيب بوصف المشرك بالضلال^(٢)، ف قيل: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

ومن أمثلة العدول التعقيبي عن المشابه القصصي قوله تعالى في التعقيب على الإخبار بعذاب قوم لوط في سورة الأعراف^(٣) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤] وقوله في التعقيب على الإخبار نفسه في سورتي الشعراء والنمل ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾^(٤) [الشعراء: ١٧٣، والنمل: ٥٨]، فعدل القرآن عن التعقيب بـ ﴿فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُ الْمُجْرِمِينَ﴾ في سورة الأعراف إلى التعقيب بـ ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ في النمل والشعراء مراعاة للمناسبة المعنوية.

وقد بين أبو جعفر بن الزبير تلك المناسبة بأنه وقع في سياق آية الأعراف ما يشير إلى الإجماع ويناسبه، وهو توبيخ لوط عليه السلام لقومه على الفاحشة بأنهم لم يسبقوا إلى ارتكابها، قال أبو جعفر: «لما تقدم في الأعراف ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] حصل منه أن ارتكابهم (ما) لم يسبق إليه غيرهم، (و) قد جمع إلى قبح

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ٤٠٤: ٥.

(٢) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ٣: ٣٥١.

(٣) انظر: الألوسي، روح المعاني: ٨: ١٧٢.

(٤) انظر: البرهان: ١٩٢، وملاك التأويل: ١: ٤١٨، والعقد الجميل: ٨١.

الفحش الاجترام، فأعقب بقوله ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤] ^(١). أما آية النمل فبين أبو جعفر أنه حُكي في سياقها توبيخ لوط عليه السلام لقومه بضرب آخر من التوبيخ، يُستفاد منه الإنذار والتعنيف المناسب لما عُقبت به؛ وهو أنهم يأتون الفاحشة مع مشاهدة بعضهم بعضاً، قال أبو جعفر: «ولما تقدم في النمل قوله تعالى ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤] حصل منه تعنيف وإنذار لم يقع مثله في الأعراف، إذ ليس موقع قوله ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] في الإنذار والتعنيف كموقع تعريفهم بعلمهم بها وشنعة معانية بعضهم بعضاً في ارتكابها، فناسب إنذارهم بهذا ما أعقب به من قوله ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل: ٥٨] ^(٢).

ويمكن أن يقال في آية النمل أيضاً إن النص على إتيانهم الفاحشة مع مشاهدة بعضهم بعضاً فيما حُكي من توبيخ نبيهم لهم ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤] إن النص على ذلك دال على أنهم بلغوا بمرتكبهم غاية القبح، فناسبه العدول إلى وصف جزائهم بغاية الذم، وهو ما دلت عليه «ساء» إذ هي بمعنى بئس.

أما آية الشعراء فقد أغفلها أبو جعفر، وتحتل مناسبة العدول فيها أن يقال: إنه لما وقع في سياقها قول لوط عليه السلام لقومه ﴿إِنِّي لَعَمْرُكُم مِّنَ الْفَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨] أي المبغضين - وقد دل هذا على غاية نفوره منهم وذمه لهم - ناسبه العدول إلى وصف جزائهم بغاية الذم، فقيل: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣].

ويحتمل العدول في آيتي الشعراء والنمل وجهاً آخر من المناسبة؛ وهو احتمال مترتب على القول بأن تعقيب آية الأعراف بقوله تعالى ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤] لا يختص بقصة قوم لوط، وإنما هو تعقيب على قصص قوم نوح وهود وصالح ولوط كلها ^(٣)، فالمناسبة على هذا بيّنة في آية الأعراف لما حُكي في كل من هذه القصص من مرتكبات القوم وعذابهم. وعلى هذا تكون مناسبة العدول في آيتي الشعراء

(١) ملاك التأويل: ١: ٤٢٦، وقد زيدت في الأصل ما، والصواب إسقاطها، ووقع وقد، والأصوب فقد.

(٢) السابق، والصفحة نفسها، ووقع في الأصل ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾.

(٣) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ٤: ٣٣٦، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ١٠٢٨.

والنمل اختصاص التعقيب فيهما بقصة قوم لوط، ولذلك روعي في تعقيبهما بـ ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ مناسبة صدرهما الذي حُكي فيه عقاب هؤلاء القوم خاصة بقوله تعالى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ [الشعراء: ١٧٣، والنمل: ٥٨].

يثبت ما تقدم أن العدول عن التشابه بواسطة المبدلات التعقيبية مقصود به مراعاة التناسب المعنوي، وأن هذا متأكد كما يدل تعدد الأوجه، وأنه متحقق في الموضوعات وفي القصص على السواء.

د. العدول بالمبدلات الصيغية للتناسب المعنوي :

سبقت الإشارة فيما قدمناه بين يدي العدول بالمبدلات إلى أن القرآن الكريم يراعي وضع كل كلمة موضعها المناسب لها، ومن هنا كانت كل صيغة فيه واقعة موقعها الذي لا يحسن فيه غيرها ولو كانت الصيغتان مما يقال بترادفه، ولذلك عدل القرآن عن التشابه بالمبدلات الصيغية. وهذا ما سنحاول إثباته هنا بأثلة من عدول الصيغة الفعلية، فالاسمية - الفعلية، فالاسمية.

وقد تكلمنا في أنواع المتشابه كلاماً مفصلاً على ما نريده بالصيغة، وقلنا هناك: إننا سندرج تحتها كل ما يتناول هيئة الكلمة، ونلحق بذلك بعض المبدلات كالتعريف والتذكير، والتذكير والتأنيث، والإظهار والإضمار.

أ. العدول بمبدلات الصيغة الفعلية :

وستناول أمثلة هذه الصيغة من جهتين؛ من جهة زمن الفعل، ومن جهة بنائه؛ أي من حيث التجريد والزيادة.

ب. العدول بمبدلات الصيغة الزمنية :

ومن أمثله قوله تعالى في سورة الحجر ﴿كَذَلِكَ نَسْأَلُكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٢-١٣] وفي سورة الشعراء ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(١) [الشعراء: ٢٠٠-٢٠١]، فوقع التعبير بالفعل المضارع

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٥٨٤، والعقد الجميل: ١٠٥.

أولاً، ثم عدل إلى الماضي. والضمير في المتشابهين مراد به القرآن، وقيل: المراد بالثاني الكفر بالقرآن والتكذيب به، وعلى القولين سلوكه في قلوبهم إدخاله، والمعنى أدخلنا القرآن - أو التكذيب به - في قلوب المجرمين مشركي مكة، ففهموا معانيه وأدركوا عجزهم عن معارضته وأنه ليس من كلام البشر، ثم امتنعوا عن الإيمان به كما سبق لهم في الأزل^(١). فالمعنى في المتشابهين واحد، أو هو متقارب على القول باختلاف المراد بضمير السلك، وأياً كان فالعدول لمراعاة المناسبة.

وتترتب المناسبة على أن صيغة المضارع «نسلكه» دالة على التجدد والاستمرار، بخلاف صيغة الماضي فإنها تدل على الحدوث في الزمن الماضي وعلى انقطاعه^(٢).

وقد بين هذه المناسبة أبو جعفر بن الزبير والبقاعي، فذهب أبو جعفر إلى أن آية الحجر وردت في سياق الإخبار عن كفار قريش، فقد وقع قبلها قوله تعالى ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا إِلَهُنَّ الَّذِي نُنْزِلُ عَلَيْهِ الذِّكْرَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] وهم المعنيون بقوله تهديداً ووعيداً ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٣] فلما كان السياق للإخبار عنهم، وكان منهم من استمر على كفره وقت نزول القرآن وبعده، ناسب قوله ﴿سَلَكُوكُمُ﴾ الدال على الحال والمشعر باستمرار حالهم على الكفر وموافاتهم عليه. أما آية الشعراء فرأى أنه تقدمها الإخبار عن الأقوام السابقة التي كذبت بعد أن سلك الله في قلوبها كتب أنبيائها المتضمنة لمعاني القرآن، فقد قال تعالى بعد ذكر تلك الأقوام ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢] أي القرآن، ثم قال ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، فلما كان زمان تلك الأقوام قد مضى وانقطع ناسب عند الإخبار بسلوك القرآن في قلوب المجرمين أن يعدل إلى التعبير بلفظ الماضي، فقيل: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾^(٣) [الشعراء: ٢٠٠].

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٥٨٥ - ٥٨٦، والآلوسي، روح المعاني: ١٤: ١٨، و١٩: ١٢٨ - ١٢٩،

والزحيلي، د.وهبة، التفسير الوجيز ضمن الموسوعة القرآنية الميسرة: ٢٦٣ و ٣٧٦.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٥٨٦، والبقاعي، نظم الدرر: ١١: ٢٧، و١٤: ١٠١.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٥٨٥ - ٥٨٦. والضمير في قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ الشعراء: ١٩٦ مفسر بأنه معاني القرآن كالتوحيد والمواعظ والقصص، أو بأنه إشارة إلى القرآن، أو بأنه تبشير برسول الله ﷺ، انظر: الآلوسي، روح المعاني: ١٩: ١٢٥ - ١٢٦. واختارنا الأول لأن ظاهر عبارة أبي جعفر يقتضيه، وعبارته «أما آية الشعراء فقد تقدمها ذكر قوم نوح... وغيرهم من الأمم المكذبين بعد سلوك ما ذكر سبحانه» ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ الشعراء: ١٩٦ في قلوبهم» ملاك التأويل: ٢: ٥٨٦.

وقال البقاعي في آية الحجر: «وعبر بالمضارع الدال مع التجدد على الاستمرار لاقتضاء المقام له - كما تقدم في أولها - فقال ﴿نَسْلُكُهُ﴾ [الحجر: ١٢] أي الذكر»^(١). يعني أن أول السورة يقتضي التعبير بالمضارع، لأنه جاء في أولها قوله تعالى ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] والمعنى أنه من المؤكد المقطوع به أنهم يودون لأن يكونوا مسلمين وداً كثيراً جداً ومتكرراً كما ذكر البقاعي^(٢)، فناسب ذلك التكرار التعبير بالمضارع الدال على التجدد والاستمرار، أي كلما تجدد لهم السلك ودوا. ويضاف إلى ذلك أن سياق الآية للتأكيد كما أشار البقاعي في توجيهه لمشابهتها^(٣)، ويُفهم من إشارته أنه تقدم الآية قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الحجر: ١١٠] فناسب ما في ذلك من التوكيد صيغة المضارع لدلالاتها على التجدد والاستمرار المشيرين لتوكيد السلك. أما آية الشعراء فرأى البقاعي أنها بخلاف ذلك لخلو سياقها من التأكيد، فكان يكفي عند التعبير بالسلك مجرد الحدث^(٤)، ولذلك عدل إلى الماضي فقل: ﴿سَلَكَتْهُ﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الحج ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْحَجِيمِ﴾ [الحج: ٥١] وكذلك قوله في أولى آيتين مشابھتين لها في سورة سبأ ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ هُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزِ أَلِيمٍ﴾ [سبأ: ٥] وقوله في الثانية ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾^(٥) [سبأ: ٣٨] فالمتشابهات الثلاث في وعيد المكذبين بآيات الله الذين يظنون أن الله لا يقدر عليهم^(٦)، وقد اختلف التعبير فيهما، فوقع في آتي الحج وسبأ الأولى ﴿سَعَوْا﴾ بصيغة الماضي، وعدل عنه إلى ﴿يَسْعَوْنَ﴾ بصيغة المضارع في آية سبأ الثانية مراعاة للمناسبة المعنوية.

(١) البقاعي، نظم الدرر: ١١ : ٢٧.

(٢) انظر: السابق: ١١ : ١١.

(٣) انظر: السابق: ١٤ : ١٠١.

(٤) انظر: السابق، والصفحة نفسها.

(٥) انظر: العقد الجميل: ١٢٥.

(٦) انظر: الأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ٢ : ٢٠، و٢٦٣، و٢٧٥.

وتترتب المناسبة على الفارق بين الصيغتين؛ وهو أن صيغة الماضي تدل على وقوع الفعل ولو مرة واحدة، أما صيغة المضارع فلتجديده^(١).

وبيان هذه المناسبة كما نبه البقاعي أن آية الحج واردة في سياق الإنذار، لأنه وقع قبلها قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩]، والمناسب لذلك الإنذار التعبير عن السعي بصيغة الماضي، لأن دلالتها على إيقاع الفعل بلا تجدد مشيرة إلى أنهم لو أوقعوا السعي مرة واحدة لكانوا من أصحاب الجحيم، فهذا التخويف أنسب ما يكون لسياق الإنذار. ويقرب من هذا آية سبأ الأولى، لأن سياقها لتهديد من جحد أدلة الساعة، إذ اكتنفها قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلِيمٌ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣] وقوله ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن شَاءَ نَحْصِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِم كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: ٩]، فلما كان السياق للتهديد ناسبه التعبير عن السعي بصيغة الماضي كسابقتهما. أما آية سبأ الثانية فسياقها للترغيب في الإيمان، لأنه تقدمها قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ [سبأ: ٣٥، ٣٤] إلى قوله ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، فلما كان هذا السياق للترغيب في الإيمان اقتضت المناسبة العدول إلى التعبير بصيغة المضارع، فقبل ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ﴾ أي الذين يستمرون على تجديد السعي من غير توبة هم المستحقون للعذاب^(٢)، ففي هذا ترغيب في التوبة والمصارعة إلى الإيمان، ولو عُبر هنا بصيغة الماضي لم يكن مناسباً لهذا السياق، لأن دلالتها منافية للترغيب في الإيمان من حيث كانت تسد باب التوبة على من أوقع السعي ولو مرة.

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١٣: ٦٨، و١٥: ٥١٦.

(٢) انظر: السابق، والصفحة نفسها، وانظر أيضاً: ١٥: ٤٤٨.

العدول بمبدلات الصيغة البنائية :

ومن أمثلته قوله تعالى في قصة آدم من سورة البقرة خطاباً لآدم وحواء وإبليس بعد أن أمرهم بالهبوط من الجنة ﴿فَأَمَّا يَا تِئْتِكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] وقوله أيضاً في القصة نفسها من سورة طه ﴿فَأَمَّا يَا تِئْتِكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشَقُّ﴾^(١) [طه: ١٢٣]، والمعنى إن أتتكم هداية من الله برسول وكتاب، فمن آمن بالله وعمل بطاعته^(٢) فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ولا يضلون ولا يشقون، فالقصة واحدة، والمعنى العام في المتشابهين واحد، وقد عدل القرآن عن التعبير بصيغة الفعل المجرد ﴿تَبِعَ﴾ إلى المزيد ﴿اتَّبَعَ﴾ مراعاة للمناسبة المعنوية.

وقد رتب أصحاب التوجيه المناسبة هنا على فروق بين الصيغتين، منها أن «تبع» أصل، وهو ينبئ عن تلؤ التابع للمتبوع في فعله بلا تكلف ولا كبير تعمل أو علاج، نحو قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] فعبر بـ «تبع» لأنه أراد: من سلك سبيلي بأن جرى على مقتضى الفطرة من غير تردد أو كبير علاج، أما «اتبع» ففرع عن «تبع»، والزيادة في مبناه تبرز زيادة في معناه، فتنبئ صيغته عن التعمل والعلاج، نحو قوله تعالى خطاباً للمؤمنين ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [النور: ٢١] فعبر بـ «اتبع» لأنهم ألفوا الطاعات حتى إنهم إن وقع منهم مخالفة فبتعمل وعلاج، لأنها خلاف مألوفهم^(٣). وقريب من الفرق السابق أن «تبع» يدل على أدنى اتباع، أما «اتبع» ففيه تكلف^(٤)، وعبر بعضهم عن ذلك بأن الزيادة لتأكيد فعل الاتباع^(٥). ومن الفروق أيضاً أن «تبع» لا يلزم منه مخالفة للفعل قبله، و «اتبع» المزيد تشعر الزيادة فيه بتجديد الفعل^(٦). ومع أن هذه الفروق يقرب بعضها

(١) انظر: البرهان: ١٢١، وملاك التأويل: ١: ٤٥، وكشف المعاني: ٩٣، والعقد الجميل: ٩.

(٢) انظر: الأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ١: ٢٨ و ٦٩٥، والزحيلي، د. وهبة، التفسير الوجيز

ضمن الموسوعة القرآنية الميسرة: ٨ و ٣٢١.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ١: ٤٦ - ٤٧ - ٤٨.

(٤) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١: ٢٩٨، و ١٢: ٣٦١.

(٥) انظر: الأنصاري، زكريا، فتح الرحمن: ٢٣.

(٦) انظر: كشف المعاني: ٩٣، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٣٦.

من بعض، بل لا تكاد تخرج عن شيء واحد، فإن لكل منها وجهاً من المناسبة يقتضي إفراده عن سواه.

أما مناسبة العدول بالنظر إلى الفرق الأول؛ أي الخلاف في الدلالة على التعامل والعلاج، فبينها أبو جعفر بن الزبير بأن آية البقرة لم يُحك في سياقها من إغواء إبليس لآدم ما فيه كبير معالجة، فناسب أن يعبر فيها بـ ﴿تَبَعَ﴾، أما آية طه فذكر في سياقها كيفية الإغواء، فأفهم هذا قوة كيد إبليس فاقتضى إحراز المناسبة العدول إلى الصيغة الدالة على المعالجة، فقيل: ﴿اتَّبَعَ﴾، قال أبو جعفر: «لما تقدم آية البقرة قوله تعالى ﴿وَقُلْنَا يَتَّكِدُمْ أَشْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥] - إلى قوله - ﴿فَمِنْ تَبَعَ هَذَا﴾ [البقرة: ٣٨] ولم يرد فيها مما كان من إبليس سوى ما أخبر تعالى عنه من قوله ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦] من غير تعرض لكيفية تناوله ما فعل، ولا إبداء علة ولا كبير معالجة، ناسب هذا ﴿تَبَعَ﴾ [البقرة: ٣٨]. ولما ورد في آية طه ذكر الكيفية في إغوائه بقوله ﴿هَلْ أَذُنُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لَّا يَبُلَى﴾ [طه: ١٢٠] وقد حصل من هذا الإشارة إلى ما بسط من قوله في الأعراف ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠] وقاسمهما على ذلك، فكأن هذا كله قد تحصل مذكوراً في آية طه بما تضمنته من الإشارة إليه، فأفهم الآية قوة كيد اللعين واستحكام حيلته حتى احتكك الكثير من الذرية وحملهم على عبادة الطواغيت، وتلقت النفوس المتعامية ذلك منه بقبول، فصار تمييز الحق لا يحصل إلا بمعالجة وتعمل، فناسبه ﴿فَمِنْ اتَّبَعَ﴾ [طه: ١٢٣] ^(١).

وأما المناسبة بالنظر إلى الفرق الثاني؛ أي الخلاف في الدلالة على التكلف، فيمكن التماسه في توجيه البقاعي للمتشابهين، وذلك أنه رأى أن المدعو إليه في آية البقرة مطلق العبادة ^(٢). والظاهر أن مراده بذلك كون سياق الآية البعيد لمطلق العبادة، وذلك من لدن قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عَبْدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]

(١) ملاك التأويل: ١: ٤٨ - ٤٩، وقوله: «وقاسمهما على ذلك» إشارة إلى ما حكاه تعالى من إغواء إبليس لآدم وحواء بقوله ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ﴾ [البقرة: ٢١] أي أقسم لهما. وقوله «احتكك» إشارة إلى ما حكاه تعالى من قول إبليس ﴿لَأَحْبَبْتُكَ ذُرِّيَّتَهُ﴾ [الإسراء: ٦٢] أي ذرية آدم، واحتكك: ألجمه باللجام أو استولى عليه، انظر: المفردات للراغب الأصفهاني: ٢٦٠ - ٢٦١.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١٢: ٣٦١.

فناسب الدعوة إلى مطلق العبادة التعبير بـ ﴿تَبِعَ﴾ لأن المعنى كما ذكر البقاعي أوقع أدنى اتباع يُعْتَد به^(١). ويؤكد هذه المناسبة الاكتفاء في جزاء التابع هنا بنفي الخوف الذي قد يكون عن توبة من ضلال^(٢)، إذ قال تعالى في الجزاء ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. أما آية طه فرأى البقاعي أن المقام فيها للخشية، لأن السورة مفتوحة بقوله تعالى ﴿إِلَّا نَذْكِرَهُ لِمَن يَخْشَى﴾ [طه: ٣]، وأن المقام أيضاً للبعث على الجد بالعداوة - ويشير بذلك إلى ما ورد في سياق الآية من قوله تعالى ﴿فَقُلْنَا يٰٓأَدَمُ إِنَّ هٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِرَجُلِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّ مِّنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧] - وأن المقام أيضاً للإقبال على الذكر، قال تعالى ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ [طه: ١٠٠] وأنه أيضاً للتحفظ من المخالفة ولو بالنسيان، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(٣) [طه: ١١٥]. ومجمل ما رآه البقاعي أن المقام في آية طه للجد في العبادة والمبالغة فيها، ولا يناسب هذا إلا صيغة افتعل لما فيها من تكلف، ولذلك عدل القرآن إلى التعبير بـ ﴿اتَّبَعَ﴾. ويؤكد هذه المناسبة أن جزاء المتبع هنا - وهو ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] - أبلغ مما في آية البقرة، لأنه يلزم من نفي الضلال والشقاء نفي الخوف والحزن بخلاف العكس^(٤).

وأما المناسبة بالنظر إلى الفرق الثالث؛ أي الخلاف في الدلالة على التأكيد، فدل عليها زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ) بقوله في توجيه آية طه: «لأن (القصة) لما بُنيت من أول الأمر على التأكيد بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ﴾ [طه: ١١٥] ناسب اختصاصها بالزيادة المفيدة للتأكيد»^(٥) فلهذه المناسبة عدل القرآن إلى صيغة ﴿اتَّبَعَ﴾ عن ﴿تَبِعَ﴾ الواقعة في آية البقرة، على أن زكريا الأنصاري لم يبين وجه المناسبة في آية البقرة، وإنما اكتفى بأن ما فيها وارد على الأصل، ويمكن القول: إن سياق آية البقرة خال من التأكيد فناسبه التعبير بما وقع فيه.

(١) انظر: السابق: ١ : ٢٩٨.

(٢) انظر: السابق، والصفحة نفسها.

(٣) انظر: السابق: ١٢ : ٣٦١.

(٤) انظر: السابق، والصفحة نفسها.

(٥) الأنصاري، زكريا، فتح الرحمن: ٢٣، ووقع في الأصل القضية، والصواب ما ذكرنا.

وأما المناسبة بالنظر إلى الفرق الرابع؛ أي الخلاف في الإشعار بتجديد فعل الاتباع، فبينه ابن جماعة - وتابعه عليه السيوطي - بأن سياق قصة آدم في البقرة لبيان أنه تبع الهدى، ولم يجر فيها ذكر لمخالفة ذلك، قال تعالى ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّٰثَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَبَعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: ٣٨٣٦] فالتعبير بـ ﴿تَبَعَ﴾ هنا مناسب من حيث كان لا يلزم منه مخالفة للفعل قبله. أما آية طه فبين ابن جماعة أنه وقع في سياقها ذكر مخالفة وعصيان، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ يَحْدِ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] وقال ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]، فلما كان ذلك دالاً على مخالفة لفعل الاتباع ناسبه العدول إلى الصيغة المشعرة بتجديد الفعل، فقليل: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ [طه: ١٢٣] أي جدد قصد الاتباع^(١).

وثمة مناسبة أخرى نظر إليها أبو جعفر بن الزبير من جهة ترتيب المصحف، وحاصلها أنه لما كانت سورة البقرة متقدمة في الترتيب على سورة طه، وكان ﴿تَبَعَ﴾ أصلاً و﴿اتَّبَعَ﴾ فرعاً، ناسب وقوع ﴿تَبَعَ﴾ في البقرة، والعدول إلى ﴿اتَّبَعَ﴾ في طه، لأن حق الأصل التقديم، وحق الفرع التأخير^(٢).

ومن أمثلة العدول بالصيغة البنائية أيضاً ما حكاه الله تعالى في سورة الأعراف من قول هود لقومه ﴿اتَّجِدُونَنِي فِي سَمَاءٍ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: ٧١] وما حكاه سبحانه في سورة يوسف من قوله عليه السلام لصاحبيه في السجن ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠] وقوله سبحانه في سورة النجم - والمعنيون بالخطاب مشركو قريش لقوله ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرَىٰ وَمَوَاقِدَ النَّارِ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٢٠، ١٩] - قوله ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾^(٣) [النجم: ٢٣]، فالمتشابهات الثلاث جارية مجرى القصص المختلفة، لأن

(١) انظر: كشف المعاني: ٩٣، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ١: ٤٩.

(٣) انظر: البرهان: ١٩١، والعقد الجميل: ٧٩.

الأولين في قصتين مختلفتين، والثالث خطاب لقوم آخرين، وموضوع ثلاثتها واحد، وهو بطلان عبادة الأصنام. وقد عدل القرآن عن صيغة التفعيل ﴿نَزَّلَ﴾ إلى صيغة الإفعال ﴿أُنْزِلَ﴾ في سورتي يوسف والنجم مراعاة للمناسبة المعنوية.

وتترتب مناسبة العدول على الفرق بين الصيغتين؛ وهو أن الزيادة في صيغة التفعيل هنا تفيد معنى التكرار أو التكثير، وتفيد أيضاً معنى التدرج والتعديّة^(١)، أما صيغة الإفعال فالزيادة فيها للتعديّة فقط^(٢). والقول بأنهما بمعنى واحد كما هو ظاهر كلام بعضهم^(٣) خلاف الأصل، بل هو مدفوع بثبوت مناسبة كل صيغة لأيتها كما سيأتي.

وقد أشار إلى تلك المناسبة البقاعي بأن قال في آية الأعراف: «ولعله أتى بصيغة التنزيل لأن التفعيل يأتي بمعنى الفعل (المجدد)، وبمعنى الفعل بالتدرج، فقُصِدَ - لأنه في سياق المجادلة، وفي سورة مقصودها إنذار من أعرض عما دُعا إليه هذا الكتاب النازل بالتدرج - النفْي بكل اعتبار، سواء كان (تجديداً) أو تدرجاً»^(٤) أي أن التعبير بـ ﴿نَزَّلَ﴾ في آية الأعراف اقتضته مناسبتان، الأولى مناسبة سياق المجادلة - وهو قوله تعالى ﴿أَتَجِدُلُونِي فِي تِجَارَةٍ أَسَمَاءٍ﴾ [الأعراف: ٧١] - من حيث كانت صيغة ﴿نَزَّلَ﴾ تفيد التكرير، وكان من شأن المجادل كثرة المراجعة وتكرير ما يجادل به عوداً على بدء. والثانية مناسبة مقصود السورة، من حيث كانت صيغته تفيد التدرج، وكان مقصود سورة الأعراف إنذار المعرضين عما دُعا إليه القرآن، وقد نزل بالتدرج، أي منجماً.

(١) انظر: البرهان: ١٩١، والبقاعي، نظم الدرر: ٧: ٤٤١.

(٢) انظر: البرهان: ١٩١.

(٣) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ٤: ٣٢٦.

(٤) البقاعي، نظم الدرر: ٧: ٤٤١، وقارن ب: ٧: ٣٤٧، وقد وقع في الأصل المجدد و تجديداً، ولم نر أحداً من أهل التصريف ذكر ذلك المعنى لصيغة التفعيل، وإنما معنى الزيادة في نزل هذه التكرير كما صرح أبو جعفر بن الزبير في كلامه على آية عمران ٣، انظر: الملاك: ١: ١٤١، وأشار بعض أهل التصريف إلى أن معنى الزيادة في التنزيل من باب التكثير، انظر: شرح الرضي الأسترابادي للشافية: ١: ٩٣. وبين بعض أهل التصريف أن معنى التكثير في صيغة التفعيل عائد إلى تكرير وقوع الفعل، انظر: شرح الملوكي في التصريف لابن يعيش: ٧٠-٧١. فإذا لم تكن الكلمتان الواقعتان في نص البقاعي المجدد و تجديداً تصحيفاً، فلا بد من حملهما على معنى التكرير أو التكثير.

وقال البقاعي في آية يوسف التي وقع فيها العدول: «ولما كان مقصود السورة وصف الكتاب بالإبانة للهدى، وكان نفي الإنزال كافياً في الإبانة لأن عبادة الأصنام باطلة، ولم يكن في السياق كالأعراف مجادلة توجب محاكمة ومماثلة ومعالجة ومطاوله، قال نافياً للإنزال بأي وصف كان ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٠]»^(١) أي أن العدول إلى ﴿أُنزِلَ﴾ في آية يوسف اقتضته مناسبتان؛ الأولى مناسبة سياق الآية من حيث كانت الزيادة في صيغة أفعل التي جاء عليها ﴿أُنزِلَ﴾ تفيد التعدية، والتعدية واقعة على أصل الفعل، فكان النفي هنا لأصل الفعل، ولم يقع في السياق ما يستدعي نفي غير ذلك. والثانية مناسبة مقصود السورة، من حيث كان نفي أصل الفعل الذي تفيد صيغة الإنزال كافياً في إبانة بطلان عبادة الأصنام، وكان مقصود سورة يوسف وصف القرآن بأنه مبين للهدى، إذ من جملة تبيينه للهدى تبيينه بطلان عبادة كل معبود سوى الله تعالى.

وقال البقاعي في آية النجم التي وقع فيها العدول أيضاً: «ولما قَدَّم في الأعراف ﴿نَزَلَ﴾ النافي للتدرج لما تقدم بما اقتضاه، نفى هنا الإفعال النافي لأصل الفعل سواء كان بالتدرج أو غيره، لأن المفصل لباب القرآن فهو للمقاصد، وذلك كافٍ في ذم الهوى الذي هو مقصود السورة، فقال ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النجم: ٢٣]»^(٢) يريد أن نفي الإنزال نفي لأصل الفعل؛ أي نفي إنزال حجة بعبادتها - وهو المقصد - مما يعني أنهم عبودها بمحض هواهم، ولما كان السياق لتوبيخهم وذهمهم أفهم ذم هواهم الذي سول لهم عبادتها، فناسب ذلك مقصود السورة الذي هو ذم الهوى.

أما قوله: «ولما قَدَّم في الأعراف ﴿نَزَلَ﴾ لأن المفصل لباب القرآن فهو للمقاصد» فإشارة إلى أن العدول لمراعاة المناسبة في ترتيب المصحف، ومعنى كلامه أن سورة النجم هي من المفصل - وهو من سورة ق إلى آخر القرآن^(٣) - والمفصل لذكر

(١) البقاعي، نظم الدرر: ١٠: ١٩، وقارن ب: ١٠: ١.

(٢) السابق: ١٩: ٦٠، وقارن ب: ١٩: ٤٠، ووقع في الأصل ﴿رَكَ﴾ بالتاء المشناة، وهو تصحيف ما أثبتناه.

(٣) انظر: السيوطي، الإتقان: ١: ٢٠٠، وثم أقوال كثيرة غير ما ذكرناه.

المقاصد، لأن الخواتيم أنسب لها، فلما كان قد تقدم في سورة الأعراف - وهي السابقة في الترتيب - النفي بصيغة التفعيل الدالة على التدريج، كان المناسب في سورة النجم العدول إلى صيغة الإفعال الدالة على نفي أصل الفعل، وهو المقصد.

وكان الكرمانى قد سبق البقاعى إلى توجيه هذا التشابه بترتيب المصحف ذاهباً إلى أن أفعال «للتعدي، وفعل للتعدي والتكثير، فذكر في الموضع الأول بلفظ المبالغة ليجري مجرى ذكر الجملة والتفصيل وذكر الجنس والنوع، فيكون الأول كالجنس وما سواه كالنوع»^(١) يعني أن صيغة ﴿نَزَّلَ﴾ التي على فعل لما كانت دالة على أكثر من معنى كالتكثير والتعدي كانت بمنزلة المجرى، فناسب وقوعها في سورة الأعراف السابقة في الترتيب، لأن المجرى من الكلام يناسبه التقديم على المفصل، وأن صيغة ﴿أَنْزَلَ﴾ التي على فعل لما كانت دالة على مجرد التعدي الذي هو أحد معاني ﴿نَزَّلَ﴾، كانت كالتفصيل للمراد من هذه الصيغة، وحق التفصيل التأخير، فناسب العدول إلى التعبير بها في سورتي يوسف والنجم المتأخرتين في الترتيب عن الأعراف. ثم إن نفي ﴿نَزَّلَ﴾ الذي هو نفي للمجرى إنما هو نفي لجنس الإنزال، فكان التعبير بـ ﴿نَزَّلَ﴾ في الأعراف مناسباً، من حيث كانت المناسبة تقتضي تقديم الجنس على النوع، ولما كانت صيغة ﴿أَنْزَلَ﴾ بمنزلة المفصل، كانت نوعاً من أنواع الجنس، فاقضت المناسبة العدول إلى التعبير بهذه الصيغة في سورتي يوسف والنجم بعد أن سبق التعبير بـ ﴿نَزَّلَ﴾ الذي هو بمنزلة الجنس.

٢. العدول بمبدلات الصيغة الفعلية - الاسمية :

ومن أمثله قوله تعالى في سورة الانشقاق ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢] وقوله في سورة البروج ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾^(٢) [البروج: ١٩]، فالمعنى في المتشابهين واحد، وهو الإخبار عن تكذيب مشركي العرب لرسول الله ﷺ وما جاء به. وقد عدل عن صيغة المضارع ﴿يَكْذِبُونَ﴾ إلى صيغة المصدر ﴿تَكْذِيبٍ﴾ للمناسبة المعنوية.

(١) البرهان: ١٩٢.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٥٢٩، والبرهان: ٣٥٩، وملاك التأويل: ٢: ٢٤٩، والعقد الجميل: ١٤٩.

والفرق بين الصيغتين أن المضارع يدل على الاستقبال، كما يصلح للحال، والمصدر لا يدل على زمان، وإنما يُستفاد منه الاستمرار والثبوت^(١).

وقد بين أبو جعفر بن الزبير مناسبة ذلك العدول ذاهباً إلى أن آية الانشقاق تقدمها وعيد أخروي من لدن قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ [الانشقاق: ١١٠] إلى قوله ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩] أي لتلاقن أحوالاً بعد أخرى من شدائد يوم القيامة، فلما كان وقوع ذلك في المستقبل الذي هو يوم القيامة، وكان الكفار مكذبين به، كان التعبير بصيغة المضارع هنا مناسباً من حيث دلالتها على الاستقبال^(٢). أما آية البروج فقد رأى أنه وقع فيها التعبير بالمصدر لأنه «تقدمها قوله تعالى ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ وَرِعُونَ وَنُودٍ﴾ [البروج: ١٨١٧] وحديث هؤلاء وأخذهم بتكذيبهم قد تقدم ومضى زمانه، وهؤلاء مستمررون على تكذيبهم، فقبل ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: ١٩] وجيء بالمصدر ليحرز تماذيبهم، وأن ذلك شأنهم أبداً فيما أخبرهم به، وفيما تدعوهم إليه وتخبرهم به، ولفظ المصدر أعطى لما قصد من هذا من لفظ المضارع»^(٣).

والأظهر في المناسبة أن يقال: لما تقدم الآية قوله تعالى ﴿هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ وَرِعُونَ وَنُودٍ﴾ [البروج: ١٨١٧] أي جنود فرعون وقبيلة ثمود الذين جندوا لمحاربة الرسل، وكان هؤلاء قد كذبوا واستمروا على تكذيبهم حتى أهلكهم الله، ناسب عند الإخبار عن مشركي العرب المكذبين أن يُعدل إلى التعبير بصيغة المصدر لمشابهة قلوب هؤلاء لأسلافهم في التكذيب، ولو جاءت الصيغة هنا بالمضارعة لانتفت المناسبة.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في قصة نوح من سورة الأعراف ﴿قَالَ يَنْقُورُ لَيْسَ بِ صَلَٰةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مَن لَّا يَفْعَلُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢٦١] وقوله في قصة هود من السورة نفسها ﴿قَالَ يَنْقُورُ لَيْسَ بِ سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾^(٤) [الأعراف: ٦٨٦٧]

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٩٤٩.

(٢) انظر: السابق، والصفحة نفسها.

(٣) السابق، والصفحة نفسها.

(٤) انظر: درة التنزيل: ١٥٢، والبرهان: ١٨٩، وملاك التأويل: ١: ٤٠٠، وكشف المعاني: ١٧٩، والعقد الجميل: ٧٨.

فالمتشابهان في قصتين مختلفتين، والعدول عن الفعل المضارع ﴿أَصَحَّ﴾ إلى اسم الفاعل ﴿نَاصِحٌ﴾ لمراعاة المناسبة المعنوية.

والفرق بين الصيغتين أن «صيغة الفعل تدل على التجدد ساعة فساعة، وأما صيغة اسم الفاعل فإنها دالة على الثبات والاستمرار على ذلك الفعل»^(١).

وقد رتبوا مناسبة العدول على ذلك الفرق، فاتفقوا في توضيحها على أن قوم نوح قد رموه بالضلال فيما حكى الله عنهم من قولهم ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] والضلال من صفات الفعل يتجدد بترك الصواب إلى ضده في زمن قصير ومراراً كثيرة، فقبول بالفعل ﴿أَصَحَّ﴾ لمناسبته له في التجدد. وأن قوم هود قد رموه بالسفاهة فيما حكى الله عنهم من قولهم ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] والسفاهة من صفات الغرائز، لأنها ضد الحلم، فهي صفة لازمة لصاحبها، فناسب عند نفيها العدول إلى قوله ﴿نَاصِحٌ﴾ لدلالة اسم الفاعل أو الجملة الاسمية على الثبوت والاستمرار^(٢).

٣. العدول بمبدلات الصيغة الاسمية :

ونقصد به العدول عن التشابه باسم إلى آخر، كأن يكون من صيغة مشتقة إلى أخرى وسنسميها الاشتقاقية، أو من صيغة جمع إلى أخرى أو منها إلى صيغة مفردٍها وسنطلق عليهما الصيغة الجمعية. وسنتبع ذلك مبدلات من أنواع أخرى كنا أشرنا إلى أننا سنلحقها بالعدول الصيغي؛ الأول العدول عن نوع من أنواع تعريف الاسم إلى نوع آخر، وعن الاسم المعروف إلى المنكر أو العكس، وسنجعل ذلك تحت اسم الصيغة التعريفية، والثاني العدول عن الضمير المذكر إلى المؤنث أو العكس، وسنجعله تحت اسم الصيغة التذكيرية، والثالث العدول عن الاسم الظاهر إلى ضميره أو العكس، وسنتناوله تحت اسم الصيغة الإظهارية.

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير: ١٤: ١٥٦.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١٥٣، وملاك التأويل: ١: ٤٠٠ حتى ٤٠٣، وكشف المعاني: ١٧٩، والبقاعي،

نظم الدرر: ٧: ٤٣٠ و ٤٣٦، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ١٠١٨.

العدول بمبدلات الصيغة الاشتقاقية :

ومن أمثلته قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩] وقوله في السورة نفسها ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾^(١) [الأنعام: ١٤١] فالتشابه في قوله في الأولى ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ مع قوله في الثانية ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾، ومعناهما متقارب؛ وهو تشابه بعض أفراد الزيتون والرمان وعدم تشابه بعضها، والتشابه كما قيل في المنظر كاللون والحجم، أما الاختلاف فبالطعم^(٢). وقد عدل القرآن عن ﴿مُشْتَبِهًا﴾ إلى ﴿مُتَشَبِهًا﴾ مراعاة للمناسبة المعنوية.

وقد فرق بعضهم بين الصيغتين كما تقدم في موضع سابق من هذا البحث بأن التفاعل لمشاركة أمرين أو أكثر في أصل الفعل، وهو عام يقع على الشبه الشديد والضعيف، وأن الافتعال للمبالغة في إثبات أصل الفعل، وهو خاص بشدة الشبه، فمعنى ﴿مُشْتَبِهًا﴾ ملتبس من شدة الشبه، وليس كذلك ﴿مُتَشَبِهًا﴾ إلا إذا اقترن بما يدل على شدته^(٣). وقد ذهب آخرون إلى أن الصيغتين بمعنى واحد^(٤)، وهو خلاف الأصل، فالمختار الأول ولا سيما إذا ثبتت المناسبة.

وقد أشار البقاعي إلى مناسبة ذلك العدول، فقال في الآية الأولى: «ولما ذكر الأقوات من الثمار والحبوب والأدهان وأشرف الفواكه وأعمها، وكانت أشبه شيء بالآدمي في نشئه وبعثه واتفاقه واختلافه، وكان اشتباه بعضها واختلاف بعضها - مع كونها تُستقى بماء واحد

(١) انظر: البرهان: ١٧٥، وملاك التأويل: ١: ٣٣٨، والعقد الجميل: ٧٠.

(٢) انظر: الأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ١: ٢٨٠ و ٢٩٣.

(٣) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ٧: ٢١٢، ورضا، محمد رشيد، تفسير المنار: ٧: ٦٤٣.

(٤) انظر على سبيل المثال: ملاك التأويل: ١: ٣٣٩، وأبو حيان، البحر المحيط: ٤: ١٩١، والآلوسي، روح المعاني: ٧: ٢٤٠.

وفي أرض واحدة - دالاً على القدرة والاختيار، وكان السياق لإثبات الوجدانية ونفي الشريك بإثبات كمال القدرة التي هي منفية عن غيره - فلا يصح أن يكون له شريك، لأنه لا يكون إلا مشابهاً لشريكه كمال المشابهة فيما وقعت الشركة فيه - وللبعث؛ فكان المراد التفكير في ظواهرها وتقلباتها من العدم إلى الوجود وبعد الوجود، ولمحاجة أهل الكتاب الموسومين بالعلم المنسويين إلى حدة الأذهان وغيرهم من الفرق، وكان افتعل يأتي (للتصرف) - وهو المبالغة في إثبات أصل الفعل والاجتهاد في تحصيله والاعتماد، فكان حصوله إذا حصل أكمل - قال بانياً حالاً من كل ما تقدم ﴿مُشْتَبِهًا﴾ [الأنعام: ٩٩] أي في غاية الشبه بعضه لبعض حتى لا يكاد يتميز، فلو قُطع ثمرتا شجرتين منه لم يتميز ثمرة هذه من ثمرة هذه^(١) يعني أن التعبير بـ ﴿مُشْتَبِهًا﴾ في الآية الأولى مناسب للسياق باعتبارات، فهو أولاً مناسب باعتبار أن السياق لإثبات الوجدانية ونفي الشريك بإثبات كمال القدرة، لأن اشتباه بعض الثمار واختلاف بعضها مع أن الأصل واحد هو من باب إثبات كمال القدرة، وذلك السياق قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكْتُمْ مَّا خَوَلْتَكُمْ وِرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَّ عَنْكُمْ مَّا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] إلى قوله ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]. وهو ثانياً مناسب باعتبار أن السياق لمحاجة أهل الكتاب الموصوفين بالعلم ولمحاجة غيرهم من المشركين، لأن الغرض من المحاجة نفي الشريك بإثبات كمال القدرة والاختيار، فالمناسبة هنا كالسابقة، ومراد البقاعي بسياق المحاجة قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ أَرَاكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَأَهْلَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤] إلى قوله ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالِ أُنحِتُوا فِي اللَّهِ فَقَدْ هَدَيْنَا وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٨٠] إلى ما تلا ذلك من آيات^(٢). وهو ثالثاً مناسب باعتبار أن السياق لإثبات البعث -

(١) البقاعي، نظم الدرر: ٧: ٢١١ - ٢١٢، ووقع في الأصل للتعريف، وذكر المحقق في الحاشية ٣ من الصفحة: ٢١٢ أن في بعض النسخ للتعريف. وكلاهما وهم صوابه للتصرف كما أثبتنا، وهو مصطلح صرفي، انظر: شرح الشافية للرضي: ١: ١١٠.

(٢) انظر تفصيل ذلك عند البقاعي، نظم الدرر: ٧: ١٥٥.

وهو ما ذكرناه قريباً في الإشارة إلى سياق ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرْدَى﴾ - بالاستدلال بما يطرأ على النبات من التغيرات والأحوال، والاشتباه حال من تلك.

وقال البقاعي في الآية الثانية «ولما كان معظم القصد في هذا السياق نفي الشريك وإثبات الفعل بالاختيار، لم يدعُ الحال إلى ذكر كمال الشبه، فاكتفى بأصل الفعل فقليل ﴿مُشْتَبِهًا﴾ [الأنعام: ١٤١]»^(١) ويشير بدلالة السياق على نفي الشريك وإثبات الفعل بالاختيار إلى قوله تعالى في صدر الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١] أي جنات مرفوعات عن الأرض لا تصلح إلا بذلك فإذا لم تُرفع تلف ثمرها، وجنات غير مرفوعات فإذا رفعت تلفت، فدل ذلك على أن اختلافها بفاعل مختار ليس له شريك ولا يكون إلا ما يريد^(٢)، والحاصل أنه لما كان السياق لإثبات الفعل بالاختيار، وكان مجرد التشابه كافياً في الدلالة عليه، ناسب العدول إليه، إذ لو لم يكن بفاعل مختار لاستوت الثمار ولا سيما في الشجرة الواحدة.

ويحتمل العدول وجهاً آخر من المناسبة، وهو أن المذكور في الآية الأولى أخص مما في مشابهتها، ففي الأولى ﴿تُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ [الأنعام: ٩٩] فالمنظور إليه هنا الثمار كما هو واضح من ذكر الحب، والقنوان - وهي من النخل كالعناقيد من العنب - والأعناب، والتمر بالقياس إلى الشجر خاص، فناسب هذا الخصوص التعبير بالصيغة الدالة على خصوص التشابه ﴿مُشْتَبِهًا﴾، ثم إن الثمر لصغره يشتد اشتباهه على الناظر بخلاف الشجر. أما الآية الثانية فالمذكور فيها عام، قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ [الأنعام: ١٤١] فالجنات المعروشات هي من أشجار العنب، ولكن لما لم يقع التعبير بالعنب هنا كما في مشابهتها دل على أن المراد عموم الشجر لا خصوص الثمر، وكذلك النخل ذكر هنا على عمومه، وخص منها هناك الطلع والقنوان، وكذلك الزرع ذكر هنا عاماً، وذكر هناك حبه المتراكب؛ فالمنظور إليه هنا الأشجار، أو على الأقل

(١) البقاعي، نظم الدرر: ٧: ٢٩٠.

(٢) انظر السابق: ٧: ٢٨٩ - ٢٩٠.

ما هو أعم من الثمار، فناسب هذا العموم العدول إلى التعبير بالصيغة الدالة على عموم التشابه ﴿مُتَشَبِّهًا﴾، ثم إن الشجر لكبره وظهوره لا يشتد تشابهه على الناظر كما يشتد تشابه ثمره.

ومن أمثلة العدول عن التشابه بالصيغة الاشتقاقية أيضاً قوله تعالى في وصف الكافرين في سورة هود ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِرُونَ﴾ [هود: ٢٢] وفي سورة النمل ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾^(١) [النحل: ١٠٩] فالمتشابهان في الإخبار عن خسران الكافرين يوم القيامة، وقد عدل القرآن عن وصفهم بصيغة التفضيل ﴿الْآخِرُونَ﴾ الدالة على أنهم أخسر الناس إلى صيغة الفاعل ﴿الْخَسِرُونَ﴾ الدالة على مجرد ثبوت الخسران لهم ليراعي المناسبة المعنوية.

وبيان تلك المناسبة كما رأى الخطيب الإسكافي - وتابعه الكرمانلي - أن آية هود تقدمها الإخبار عن أن الكفار يضاعف لهم العذاب يوم القيامة بسبب صدهم عن الدين وصددهم غيرهم عنه، قال تعالى ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفَرُونَ﴾ [هود: ١٩١٨] ثم قال ﴿يُضَاعَفْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [هود: ٢٠] فناسب وصفهم بـ ﴿الْآخِرِينَ﴾. أما آية النحل فأخبر فيها عن ضلال الكافرين في أنفسهم من غير تعرض لإضلالهم غيرهم، قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧] فلما كان ضلال هؤلاء أخف من ضلال المذكورين في هود ناسب العدول إلى اسم الفاعل فقليل ﴿هُمْ الْخَسِرُونَ﴾^(٢).

وللمناسبة وجه آخر بينه أبو جعفر بن الزبير، إذ رأى أن آية هود تقدمها آيات مبنية على المفاضلة، فكان التعبير بصيغتها أي ﴿الْآخِرُونَ﴾ مناسباً، ولم يكن في سياق آية النحل ما يستدعي المفاضلة، فاقتضت المناسبة العدول إلى صيغة اسم الفاعل، قال أبو جعفر: «آية هود قد تقدمها ما يفهم المفاضلة، ألا ترى أن قوله تعالى ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾

(١) انظر: درة التنزيل: ٢١٩، والبرهان: ٢٢٠، وملاك التأويل: ٢: ٥١٢، والعقد الجميل: ٩٧.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٢١٩ - ٢٢٠، والبرهان: ٢٢٠.

[هود: ١٧] يُفهم من سياقها أن المراد ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ كمن كفر وجحد وكذب الرسل، ثم أتبع هذا بقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [هود: ١٨] فهذا صريح مفاضلة، ثم استمرت الآي في وصف من ذكر وعرضهم على ربهم، وقول الأَشْهَاد ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٩، ٢٠] إلى ذكر مضاعفة العذاب لهم، واستمر ذكرهم إلى قوله ﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِرُونَ﴾ [هود: ٢٢] فناسب لفظ ﴿الْآخِرِينَ﴾ بصيغة التفاضل ومقصود التفاوت ما تقدم^(١) ثم قال في الآية المشابهة: «وأما آية النحل فلم يقع قبلها أفعال التي للمفاضلة والتفاوت ولا ما يفهمها، وإنما قبلها اللَّهُ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٤، ١٠٥] وبعد هذا ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨]^(٢) ثم أردف قائلاً: «ولم يكن ليناسب ما ورد هنا لفظ المفاضلة، إذ ليس في الكلام ما يستدعي ذلك لا من لفظه ولا من معناه»^(٣).

. العدول بمبدلات الصيغة الجمعية :

. عدول الصيغة الجمعية - الجمعية :

ومن أمثلته قوله تعالى في سورة البقرة مذكراً بني إسرائيل بنعمه على آبائهم ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَارِعُوا إِلَىٰ الْحُسَيْنِ﴾ [البقرة: ٥٨] وفي سورة الأعراف ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَاقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَارِعُوا إِلَىٰ الْحُسَيْنِ﴾^(٤) [الأعراف: ١٦١]، فقال أولاً ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَارِعُوا إِلَىٰ الْحُسَيْنِ﴾ وقال ثانياً ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَارِعُوا إِلَىٰ الْحُسَيْنِ﴾ فوق التعبير أولاً بجمع التكسير، وعُدل عنه ثانياً إلى الجمع السالم، مع أنهما في قصة واحدة.

(١) ملاك التأويل : ٢ : ٥١٢.

(٢) السابق : ٢ : ٥١٣.

(٣) السابق، والصفحة نفسها.

(٤) انظر : درة التنزيل : ١٤ - ١٥، والبرهان : ١٢٣، وملاك التأويل : ١ : ٥٨، وكشف المعاني : ٩٦،

والعقد الجميل : ١١.

والفرق بين الصيغتين أن الجمع السالم دال على القلة، وجمع التكسير دال على الكثرة^(١).

وقد نبه أصحاب التوجيه على وجهين من التناسب الذي راعاه العدول؛ الأول نبه عليه الخطيب الإسكافي وتابعه عليه جماعة، وقد نظر فيه إلى السياق القريب فرأى أنه لما كان صدر آية البقرة فعلاً مسنداً إلى الله تعالى بقوله سبحانه مخبراً عن نفسه ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ [البقرة: ٥٨] ناسب التعبير بصيغة الجمع الدال على الكثرة، لأنه مما يليق بكرمه غفران الذنوب الكثيرة، فقيل: ﴿خَطَيْنَاكُمْ﴾. ولما كان صدر آية الأعراف فعلاً لم يُسنده تعالى إلى نفسه ناسب العدول إلى صيغة الجمع السالم الدال على القلة، فقيل: ﴿خَطَيْنَاكُمْ﴾^(٢).

والثاني حاصل من جملة ما نبه عليه أبو جعفر بن الزبير وابن جماعة، وقد نظرا فيه إلى السياق البعيد فرأيا أنه لما كان سياق آية البقرة لتعداد النعم على بني إسرائيل من لدن قوله تعالى ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] ناسب التعبير بصيغة جمع التكسير ليطابق ما قصد من تكثير الآلاء والنعم. وليس كذلك سياق آية الأعراف، بل هو لتوبيخ بني إسرائيل من لدن قوله تعالى ﴿قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فناسبه العدول إلى الصيغة الدالة على تقليل مغفرة الخطايا، فقيل: ﴿خَطَيْنَاكُمْ﴾^(٣).

وبهذا يتقوى الوجه الأول، وتتأكد مناسبة العدول، وبهذا أيضاً يمكن الانفصال من اعتراض المعترض على الوجه الأول واعتباره العدول مجرد تغنن في التعبير^(٤).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في قصة موسى من سورة الأعراف ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠] وفي سورة طه ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه: ٧٠] وفي سورة الشعراء ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾^(٥) [الشعراء: ٤٦]، فالمتشابهات الثلاث في قصة واحدة، وفي موقف

(١) انظر: درة التنزيل: ١٥، والفخر الرازي، التفسير الكبير: ٣: ٩٢، وملاك التأويل: ١: ٦٢.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١٥ - ١٦، والبرهان: ١٢٤، والفخر الرازي، التفسير الكبير: ٣: ٩٢ - ٩٣، وأبو حيان، البحر المحيط: ١: ٢٢٥.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ١: ٦٢ - ٦٣، وكشف المعاني: ٩٧، والسيوطي، معترك الأقران: ١: ٦٨، والإتقان: ٢: ٩٩٧.

(٤) انظر: الألوسي، روح المعاني: ١: ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٥) انظر: درة التنزيل: ١٧٤، والبرهان: ١٩٨، والعقد الجميل: ٨٤ - ٨٥.

واحد يصور انقلاب سحرة فرعون عليه وإيمانهم بالله بعد أن جاؤوا يتحدثون موسى عليه السلام بما جاءهم به من المعجزات، ومع أن الموقف واحد عدل القرآن عن تصوير حالهم من ﴿سَجِدِينَ﴾ إلى ﴿سُجَّدًا﴾ ثم إلى ﴿سَجِدِينَ﴾ لمراعاة المناسبة المعنوية.

والمناسبة المحتملة لذلك أنه تقدم آية الأعراف قوله تعالى تأييداً لموسى عليه السلام ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، والإيحاء فيه خفاء، فناسبه التعبير بصيغة جمع السلامة الدالة على القلة، لأن القلة أدخل في باب الخفاء. أما آية طه فعبر عن التأييد في سياقها بلفظ القول، قال تعالى خطاباً لموسى ﴿فَلَنَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ۖ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ [طه: ٦٨ - ٦٩]، ولفظ القول أظهر من الإيحاء، فاقتضت المناسبة العدول إلى صيغة الجمع الدالة على الكثرة، لأن الكثرة أدخل في باب الظهور، فقليل ﴿سُجَّدًا﴾. وأما آية الشعراء فلم يتقدمها لفظ القول ولا لفظ الإيحاء، فطوي فيها ذكر التأييد، وفُصرت على الإخبار بما فعله موسى، قال تعالى ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ [الشعراء: ٤٥] فلم يكن ليناسبها التعبير بصيغة جمع التكسير، ولذلك عدل عنها إلى صيغة جمع السلامة الدالة على القلة لمناسبتها عدم التصريح بالتأييد، لأن كليهما من باب عدم الظهور.

- عدول الصيغة الجمعية - الإفرادية :

ومن أمثلته قوله تعالى في وصف المؤمنين في سورة المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩] وفي سورة المعارج ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾^(١) [المعارج: ٣٤]، فالمتشابهان في مدح المؤمنين بالمحافظة على الصلاة وبأوصاف أخرى فيما اكتنفهما من آيات، ومع أنهما في شيء واحد عدل القرآن عن التعبير بصيغة الجمع ﴿صَلَاتِهِمْ﴾ إلى صيغة الإفراد ﴿صَلَاتِهِمْ﴾.

وصيغة الإفراد تدل على الحدث، لأنها اسم مصدر، وتقع على جنس الصلاة فتشمل جميع أنواعها، ولذلك كان الأصل ألا تُجمع، إلا أنها جمعت تفخيماً، وإشارة إلى أنواعها وأعدادها من الفرائض والنوافل^(٢).

(١) انظر: ملك التأويل: ١: ٣٣٢، والعقد الجميل: ١٢٥.

(٢) انظر: ملك التأويل: ١: ٣٣٢، والبقاعي، نظم الدرر: ١٣: ١٠٩، و ٢٠: ٤١٠.

وقد بين المناسبة أبو جعفر بن الزبير ذاهباً إلى أن التعبير بصيغة الجمع الدالة على التفخيم في آية المؤمنين نوسب به ما اكتنفها من تفخيم وصف المؤمنين وتفخيم جزائهم؛ فقد وصفهم الله تعالى بالفلاح - وهو الظفر بالمراد والبقاء في الخير - وبالشعور في الصلاة، وبالإعراض عن اللغو، فقال ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣:١]، وفخم جزاءهم بأن وصفهم بأنهم الوارثون، وبتخصيصهم بإرث الفردوس - وهو أعلى الجنة ومنه تتفجر أنهارها - ووصفهم بالخلود فيها، فقال ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠:١١]. أما آية المعارج فرأى أبو جعفر أن ما اكتنفها من وصف المؤمنين وجزائهم لم يقع باللفظ المفخم كمشابهتها، وإنما وُصفوا هنا بمداد متهم على صلاتهم وإنفاقهم من أموالهم، قال تعالى ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٢:٢٥]، وقيل في جزائهم ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥:٣٥]، فلما كان هذا الجزاء وذاك الوصف دون ما ذكر في سياق آية المؤمنين، اقتضت المناسبة العدول إلى صيغة الأفراد، فقليل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾^(١).

وأشار البقاعي إلى نحو ما ذهب إليه أبو جعفر في آية المؤمنين، إذ رأى أن سياقها لأهل الرسوخ في المحاسن، لأنهم وُصفوا فيه بأجمع ما ذكر في وصف المؤمنين، فناسب التعبير بصيغة الجمع لما فيها من الإشارة إلى محافظتهم على الفرائض والنوافل بأنواعها^(٢). أما آية المعارج فقال البقاعي فيها: «ولكون السياق (هذا) للتخلي عن الأوصاف الجارة إلى الكفر وخذ الصلاة، إشارة إلى أنه يكفي في ذلك الفرائض، وإن كان الجنس يشمل»^(٣) يريد أنه لما كان السياق للتخلي عن الأوصاف الجارة إلى الكفر - وهو قوله تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩:٢٢] - لأنها - وإن كانت تشمل جميع أنواع الصلاة - تشير مقارنة بصيغة الجمع إلى أنهم لو اكتفوا بالمحافظة على أداء الفرائض لكان كافياً.

(١) انظر: ملاك التأويل: ١: ٣٣٢ - ٣٣٣.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ٢٠: ٤١٠، وقارن ب: ١٣: ١٠٩ - ١١٠.

(٣) انظر السابق: ٢٠: ٤٠٩، ووقع في الأصل هذا، والأنسب هنا لأنه قرنه بالكلام على آية المؤمنين.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا السَّيِّئَةُ﴾ [البقرة: ٨٠] وفي سورة آل عمران ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا السَّيِّئَةُ﴾ [آل عمران: ٢٤]، فالمتشابهان في الإخبار عن افتراء اليهود على الله بأنه لا يعذبهم إلا مدة يسيرة؛ عبر القرآن عنها بـ ﴿أَنِي كَأَمَّا مَعْدُودَةٌ﴾ في البقرة، ثم عدل عنها في آل عمران إلى ﴿مَعْدُودَتٍ﴾، فوصف الأيام التي هي جمع قلة مرة بالإنفراد ومرة بالجمع رعاية للمناسبة.

والصيغتان سواء في الدلالة على القلة، وإنما تختلفان في الأصالة والفرعية، لأن الأصل في صفة الجمع - إذا كان مفردة مذكراً - أن تكون مؤنثة، نحو ﴿سُرٌّ مَرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣] ويجوز جمعها فيقال: سرر مرفوعات؛ إلا أن هذا فرع^(٢). وظاهر كلام بعضهم أن الوصف بصيغة الجمع يدل على أكثر من العدد الذي يدل عليه الوصف بصيغة المفرد - وإن كانتا لا تخرجان عن معنى القلة - لأنه يقال: «وقد يأتي: سرر مرفوعات، على تقدير: ثلاث سرر مرفوعة وتسع سرر مرفوعات»^(٣). وأغرب ابن جماعة فقال: «﴿مَعْدُودَةٌ﴾ جمع كثرة، و﴿مَعْدُودَتٍ﴾ جمع قلة»^(٤) ولعله أراد أن وصف الأيام بصيغة «معدودة» يدل على كثرتها؛ وهو خلاف القياس، والظاهر أنه تأوله بما نُقل عن أهل التفسير من أخبار^(٥). فالراجع الأول، وخلاصة القول أن الصيغتين تستويان في الدلالة على القلة، وأن الوصف بالمفرد أصل وبالمجموع فرع إذا كان الموصوف جمعاً لمذكر غير عاقل.

وقد أشار البقاعي إلى مناسبة العدول فذكر أن الأيام جمع قلة - وقد يستعار للكثرة - ولذلك كان وصفه بصيغتي الأفراد والجمع في المتشابهين لتأكيد معنى القلة، أي ليؤكدوا ما

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٢ - ٢٣، والبرهان: ١٢٧، وملاك التأويل: ١ : ٨١، وكشف المعاني: ١٠٢ - ١٠٣، والعقد الجميل: ١٤.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٢٣ - ٢٤، والبرهان: ١٢٧.

(٣) البرهان: ١٢٧.

(٤) كشف المعاني: ١٠٣.

(٥) انظر: السابق، والصفحة نفسها.

زعموه من أنهم لا يُعذبون إلا أياماً منقضية، فكان الوصف بالمفرد في آية البقرة كافياً في الدلالة على هذا المعنى كما رأى البقاعي^(١). وقال في آية آل عمران: «لما كان المقام هنا لتناهي اجترائهم على العظائم لاستهانتهم بالعذاب لاستقصارهم لمدته، والتصريح بقتل الآمرين بالقسط عامة وبجبوط الأعمال، وكان جمع القلة قد يستعار للكثرة، أكدت إرادتهم حقيقة القلة بجمع آخر للقلة، ف قيل على ما هو الأولى من وصف جمع القلة لما لا يعقل بجمع (جبراً) له: ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]»^(٢) ويفهم من هذا أنه لما كان المقام للمبالغة في جرائمهم ناسبه مبالغتهم في تأكيد قلة الأيام التي يعذبون فيها بالوصف بالجمع السالم، لأنه موضوع للقلة. ويؤكد هذا الفهم قول الألوسي في هذه الآية: «وُحْصِ الجمع هنا لما فيه من الدلالة على القلة كموصوفه، وذلك أليق بمقام التعجيب والتشنيع»^(٣).

فالعدول إذاً لمناسبة المقام؛ مقام تناهي اجترائهم على العظائم عند البقاعي، ومقام التعجيب والتشنيع عند الألوسي، وإشارة الأول إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ لِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ﴾ [آل عمران: ٢١-٢٢] إلى قوله ﴿وَعَرَّضْهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْرُوقُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤]. وإشارة الثاني - وهو بعض الأول - إلى قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُعْجِبُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٣-٢٤] أي أليس عجيباً ما يصدر من أحرار اليهود الذين حصلوا نصيباً وافراً من التوراة؛ يدعون إلى الاحتكام إليها فيعرضون مع اعتقادهم بصحة ما فيها، وإنما ذلك بسبب استقلالهم مدة عذابهم في النار^(٤).

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١: ٤٩٤ - ٤٩٥.

(٢) السابق: ٤: ٣٠٤ - ٣٠٥. ووقع في الأصل فيما وضعناه بين قوسين جبراً، ولعل الصواب آخر.

(٣) الألوسي، روح المعاني: ٣: ١١١.

(٤) انظر: الأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ١: ١٠٧.

وأشار الخطيب الإسكافي وتابعه الكرمانى - إلى أن العدول نوسب به ترتيب المصحف، لأنه إذا اجتمع الأصل والفرع في المتشابهين قُدم الأصل، فلما كانت صيغة الإفراد ﴿مَعْدُودَةً﴾ أصلاً؛ من حيث وقوعها صفة جمع لمفرد مذكر غير عاقل، ناسب التعبير بها في آية البقرة لتقدمها في الترتيب، ولما كانت صيغة الجمع ﴿مَعْدُودَتٌ﴾ فرعاً، ناسب العدول إليها في سورة آل عمران التالية للبقرة^(١).

ويحتمل أن يكون العدول لمراعاة وجه آخر من التناسب، هو أجرى مع ظاهر الدلالة اللغوية لصيغتي الإفراد والجمع، وذلك أن سياق آية البقرة في ذكر مرتكب واحد من مرتكبات اليهود السيئة، وهو تحريفهم كلام الله؛ من لدن قوله تعالى خطاباً للمؤمنين ﴿أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْحَقُونَ بِهِ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَن يَوْمُوا لَهُمْ إِفْكٌ﴾ [البقرة: ٧٥] إلى قوله ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١] فلما اكتفي هنا بمرتكب واحد من مرتكباتهم ناسبه وصف الأيام بصيغة الواحد. أما آية آل عمران فذكر في سياقها ثلاثة مرتكبات، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] ثم قال ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣] فهذا داخل في كفرهم بآيات الله، أو أنه مرتكب رابع، وعلى كلٍّ فالمرتكبات المذكورة في هذا السياق أكثر مما ذكر في سياق آية البقرة، وهي جمع قلة، فاقترضت مراعاة التناسب العدول إلى وصف الأيام بصيغة جمع القلة عند الإخبار عن استقصارهم مدة العذاب، فقليل: ﴿مَعْدُودَتٌ﴾.

. العدول بمبدلات الصيغة التعريفية :

. عدول الصيغة التعريفية - التعريفية :

من أمثلته قوله تعالى في سورة النور ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨] وفيها أيضاً في الآية التي بعدها ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٣ - ٢٤، والبرهان: ١٢٧.

حَكِيمٌ» [النور: ٥٩]، وأضاف أصحاب التوجيه في سياق توجيههم آيتي سورة النور أيضاً ﴿وَيَبِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» [النور: ١٨] و﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١) [النور: ٦١]، والمتشابهات الأربع بمعنى واحد، إلا أن كل واحد وارد في موضوع مخالف للآخر، فالذي في أول آية في السورة (أي: ١٨) وارد في موضوع الزنى والقذف، والثاني (٥٨) في استئذان المماليك والصغار في دخولهم على الكبار، والثالث (٥٩) في استئذان البالغين، والرابع (٦١) في الأكل من بيوت الأقارب أو الصديق. وقد عدل القرآن عن تعريف الآيات بأل إلى التعريف بالإضافة، ثم عدل إلى أل، فهو بالإجمال من التعريف بأل إلى التعريف بالإضافة بالهاء.

وبين التعريف بأل والإضافة فرق، فقد تأتي أل للتعريف العهدي، وهو المقصود بها هنا، ليشير إلى الآيات المذكورة في السياق^(٢)، أما التعريف بالإضافة فتعريف اختصاص^(٣).

ومناسبة العدول أن المتشابهات المعرفة بأل جاءت بعد ذكر علامات ليس هي أفعالاً تتخصص بها قدرة الله تعالى كما ذكر الخطيب الإسكافي وتابعه ابن جماعة، أو لأنها معلومة يمكن الوقوف عليها كما ذكر الكرمانى، فالآية الأولى جاءت بعد ذكر حد الزاني والقاذف، وإلى القذف الإشارة بالضمير في «مثله» من قوله تعالى ﴿يُعْطِيكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾ وَيَبِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ﴿٨﴾﴾ [النور: ١٨١٧]، والآية الثانية في سياق ذكر الأوقات الثلاثة التي توجب استئذان المماليك والصغار في دخولهم على الكبار، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبِسُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ لَكُمْ﴾ [النور: ٥٨] إلى أن قال ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ [النور: ٥٨]، والآية الثالثة في سياق ذكر القرابات التي أجاز تناول طعامها، قال ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] إلى أن قال ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٢٢ - ٣٢٣، والبرهان: ٢٨٠، وكشف المعاني: ٢٧٢ - ٢٧٣، والعقد الجميل: ٣٠، وانظر أيضاً: ملاك التأويل: ٢: ٧٤٢.
(٢) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٧٤٢.
(٣) انظر: كشف المعاني: ٢٧٣.

بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عِبَادِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَمْهَلِكُمْ ﴿[النور: ٦١]﴾ إلى أن قال ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ [النور: ٦١] أي يبين لكم العلامات التي نصبها على ما يبيح ويحظر. فلما كانت المذكورات في سياق هذه المتشابهات من حد الزاني والقاذف والأوقات الثلاثة الموجبة للاستئذان والأكل من بيوت القربات، لما كانت علامات معلومة - وليست أفعالاً تختص بها قدرته تبارك وتعالى وإنما هي أفعال العبد - كان التعبير بـ ﴿الآيَاتِ﴾ فيها معرفة بأل مناسبة لها. أما الآية التي عدل فيها عن تلك المتشابهات فبخلاف ذلك، لأنه وقع في سياقها ذكر بلوغ الحلم، قال تعالى ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَذِنُوا كَمَا اسْتَذِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ [النور: ٥٩] فلما كان إِبلاغ الحلم من فعل الله تعالى وخلقه لا من فعل العبد كما بين الخطيب الإسكافي وابن جماعة، ولما لم يُذكر في هذا السياق للبلوغ علامات يمكن الوقوف عليها، وإنما تفرد سبحانه بعلم ذلك، كما بين الكرمانى، وكان هذا وذاك دالاً على اختصاصه تعالى بما ذكر، اقتضى تحقيق التناسب العدول إلى تعريف الآيات بإضافتها إليه تعالى، فقيل: ﴿آيَاتِهِ﴾، ولا يناسب غير ذلك^(١).

عدول الصيغة التعريفية - التنكيرية :

ومن أمثلته قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿[الأنعام: ٢١]﴾ وفي آية أخرى من نفس السورة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٩٣] وفي آية ثالثة من نفس السورة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ﴾ [الأنعام: ١٤٤] وفي سورة الأعراف ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأعراف: ٣٧] وفي سورة يونس ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [يونس: ١٧] وفي سورة الكهف - وقد أغفله أصحاب التوجيه - ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الكهف: ١٥] وفي سورة العنكبوت ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ [العنكبوت: ٦٨] وفي سورة الصف ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾^(٢) [الصف: ٧]، والمعنى في كلها أن من اختلق الكذب على

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٢٢ - ٣٢٣، والبرهان: ٢٨٠ - ٢٨١، وكشف المعاني: ٢٧٣.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٤٨٢، والبرهان: ٣٤٥، وملاك التأويل: ١: ٢٩٩ - ٣٠٠، وكشف المعاني: ٣٥٥ - ٣٥٦، والعقد الجميل: ٢٠.

الله أظلم من كل ظالم، وقد عدل القرآن عن التعبير بـ ﴿كَذِبًا﴾ المنكر إلى المَعْرِفِ ﴿الْكَذِبَ﴾، ولم يرد معرفاً إلا في سورة الصف.

وبين الصيغتين فرق في الدلالة بينه الخطيب الإسكافي، فأشار أولاً إلى أن «الكذب» مصدر^(١)، يريد: اسم مصدر، ثم بين الفرق فقال: «والمصدر إذا عُرِفَ قُصِدَ به الجنس، والفرق بين معرفته ونكرته إذا قال القائل: قلت كذباً؛ أي قلت نوعاً من أنواع الكذب التي هي كثيرة، وإذا قال: قلت الكذب؛ فكأنه قال: قلت القول الذي يشهد بالكذب ويُشار إليه به، وليس يُراد به الجنس كله؛ كما لا يُراد إذا قال: شربت الماء؛ كل الماء، وإنما يراد بعضه بدلالة العُرف»^(٢) أي أن المنكر اسم جنس، فهو واقع على أنواع كثيرة، والمَعْرِفِ يدل على حقيقة الكذب الحاضرة في الذهن، لأن أَل فيه لتعريف الماهية. وذهب أبو جعفر بن الزبير إلى أنها هنا عهدية^(٣). ويمكن الجمع بأن تُجعل للعهد الجنسي على مذهب من يقسم العهد إلى جنس وشخص^(٤). والمهم أنها هنا للدلالة على حقيقة الكذب المعهود في الأذهان، أي هذا الكذب المعلوم الذي لا يتشكك فيه أحد^(٥).

وقد أشار الخطيب الإسكافي إلى أن مناسبة تنكير الاسم في تلك المتشابهات أنه وقع في كل آية منها ما يدل على أكثر من نوع من أنواع الكذب، فقال: «وإنما يُختار التنكير إذا قارنه لفظ يقتضيه أو كلام متقدم عليه يوجب له ذلك، ومما قارنه لفظ يقتضي له التنكير كل موضع جاء فيه ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ﴾ فقولُه ﴿أَوْ كَذَّبَ﴾ يقتضي أحد كذابين، وإذا ضَمَّ إلى الكذب الأول كذباً ثانياً يُثنى به الأول المذكور، وما يكون له أمثال يتنكر بعضها ببعض، كما كان ذلك فيما يقع على واحد من أمة شائع فيها فيكون فيها نكرة، فإذا جاءت بعد كذبٍ قرينة تقتضي له التنكير فأكثر ما جاء منكراً معها، وهو ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْفَالِلُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، ﴿أَوْ قَالَ أُوْحَىٰ إِلَىٰ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾

(١) انظر: درة التنزيل: ٤٨٣.

(٢) السابق، والصفحة نفسها.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ١: ٣٠٤.

(٤) انظر: ابن هشام، مغني اللبيب: ٧٣، والسيوطي، همع الهوامع: ١: ٨٠.

(٥) انظر: ملاك التأويل: ١: ٣٠٤.

[الأنعام: ٩٣]، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يونس: ١٧]، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨]، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَٰهَهُم (نَصِيحُهُمْ) مِّنَ الْكِتَٰبِ﴾ [الأعراف: ٣٧] ^(١) ثم قال: «وأما قوله في سورة الأنعام ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤] فإنما معناه: ومن أظلم لنفسه ممن يخلق كذباً يقصد به الضلال للناس فكل من ضل منهم يكذبه، فقد أضله كذب (اختلقه)، ففيه دليل أمثال له يقتضي تنكيره، وكذلك قوله تعالى في سورة هود ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨] فكانت لفظة مَنْ (مِنْ) ﴿مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لفظة واحدة، والمعنى كل كاذب كذباً، (فمضامة أنواع الكذب لمضامة الكاذبين له تقتضي) تنكير لفظة، إذ صاروا واحداً من جماعة شائعاً فيها ^(٢) ثم أشار إلى أن العدول إلى التعريف في آية الصف لذكر كذب خاص؛ هو تكذيب أهل الكتاب بآيات الله وبرسوله ﷺ، فناسبه التعريف بآل، والمعنى على جنس التكذيب، ولكنه بدلالة العرف عند المسلمين وعلماء أهل الكتاب مخصوص بذلك التكذيب بآيات الله وبرسوله، قال الخطيب: «وأما تعريفه في سورة الصف فلأن القصد الإشارة إلى ذلك الكذب؛ وهو تكذيب اليهود بآيات الله (و) الرسول ﷺ وتكذيب النصارى بها، وقد تقدمت قصتهما في قوله ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ لِمَ تُوَدُّونَنِي﴾ [الصف: ٥] وبعده ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعِ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ [الصف: ٦-٧] أي ومن أظلم ممن يكذب الكذب الذي تشير إليه الأمم من المسلمين والنصارى واليهود على اختلاف اعتقاداتهم، فقد صح أنه الكذب المعروف عند المسلمين وعند علماء الطائفتين من أهل الكتاب» ^(٣). وتابع ابن جماعة الخطيب الإسكافي على ذلك ملخصاً كلامه ^(٤).

(١) درة التنزيل: ٤٨٣، ووقع في الأصل نصيب .

(٢) السابق: ٤٨٣ - ٤٨٤، ووقع في الأصل أخلقه، ولعل الصواب اختلقه كما ذكرنا، وزدنا من لأن السياق يقتضيها، وفي الأصل أيضاً فمضامه أنواع الكذب لمضامه الكاذبين لهم يقتضي، ولعل الصواب ما أثبتنا.

(٣) درة التنزيل: ٤٨٤، وزدنا ولاقتضاء السياق لها.

(٤) انظر: كشف المعاني: ٣٥٦.

وقال الكرمانى: «النكرة أكثر استعمالاً مع المصدر من المعرفة، وتُخصت هذه السورة بالمعرفة لأنه إشارة إلى ما تقدم من قول اليهود والنصارى»^(١) فالمناسبة على هذا كالتى أبدأها الخطيب الإسكافي، إلا أن الكرمانى لم يُبد للمنكر مناسبة.

وذهب أبو جعفر بن الزبير مذهباً قريباً من سابقه في توجيه آية العدول، فقال: «آية الصف قد تفردت عن كل ما تقدم من هذه الآي بذكر تعيين المفترى فيه الكذب منطوقاً به من غير الإجمال الوارد في الآي الآخر، بل ورد على التفصيل والتعيين، وذلك بين من قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] ثم قال ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الصف: ٦] أي فلما جاءهم الرسول الذي سماه لهم عيسى بالبينات والدلائل القاطعة والتصديق لما بين يديه من التوراة ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦] فافتروا الكذب وارتكبوا البهت فيما لا توقف فيه ولا إشكال، فقليل تعجباً من حالهم على الجاري في لسان العرب: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [الصف: ٧] فورد ﴿الْكُذِبَ﴾ معرفاً بأداة العهد ليقوم مقام الوصف، حتى كأن قد قيل: هذا الكذب لا امتراء فيه ولا توقف»^(٢). ثم أشار أبو جعفر إلى الآيات التي وقع فيها الاسم المنكر إشارة إجمالية، فقال: «ولما لم يرد في الآي الآخر ما تقدم هنا كان الوجه أن يرد منكرًا كما ثبت، فورد كل على ما يناسب»^(٣).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١] وفي سورة آل عمران ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾^(٤) [آل عمران: ٢١] فالمتشابهان في الإخبار عن اليهود، وقد عدل القرآن عن تعريف ﴿الْحَقِّ﴾ إلى تنكيره ﴿حَقٍّ﴾ رعاية للمناسبة المعنوية في كل من المتشابهين.

وقد اختلف في آل المعرفة هنا على قولين؛ الأول أنها عهديّة؛ إما للعهد المتقرر في شريعة اليهود؛ أي بغير الحق الذي عرفوه في شريعتهم؛ وهو قتل القاتل والمرتد كما قال

(١) البرهان: ٣٤٥.

(٢) ملاك التأويل: ١: ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٣) السابق: ١: ٣٠٤.

(٤) انظر: البرهان: ١٢٥، وملاك التأويل: ١: ٧٠، وكشف المعاني: ٩٩، والعقد الجميل: ١٣.

أبو جعفر بن الزبير^(١)، وإما للعهد المتقرر في شريعتنا نحن المسلمين كما قال الفخر الرازي^(٢). والثاني أنها جنسية؛ إما للماهية - وهو الأظهر كما نقل الألوسي - أي بغير حق أصلاً، لأن لام الجنس لا تفيد تعريفاً^(٣)، وإما كمالية كما ذكر البقاعي؛ أي بغير الحق الكامل، تنبيهاً على أن قتل النبي لا يقع إلا كذلك، ولما كان لا يجوز قتله أصلاً لعصمته، كان المراد من الكمالية ذمهم لإقدامهم على إراقة الدم بدون الوضوح التام^(٤). أما التنكير ﴿بَعِيرٍ حَقٍّ﴾ فلتأكيد العموم، أي بغير حق لا ما يعرفه المسلمون ولا غيرهم^(٥). فالفرق بالجملة أن آل هنا لتعريف العهد أو الجنس، وكلاهما يدل على الحقيقة الحاضرة في الذهن؛ فالتعريف من قبيل العهد الجنسي كما تقدم في المثال السابق، أما صيغة التنكير فتدل على مطلق الحقيقة لا باعتبار قيد حضورها في الذهن ولا غيره^(٦).

وقد راعى العدول التناسب من أوجه؛ الأول ما ذهب إليه الخطيب الإسكافي وتابعه عليه ابن جماعة والسيوطي من أن آية البقرة في الإخبار عن قدماء اليهود، لأنه وقع فيها «كان» الدالة على الماضي، قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ يَكَايَتِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٦١] فالتعريف مناسب لذلك، والمراد: بغير الحق الموجب للقتل عندهم المعهود في شريعتهم. وأن آية آل عمران مقصود بها اليهود المعاصرون لرسول الله ﷺ، لأنه عُبِّرَ فيها بالمضارع في قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَكْفُرُونَ يَكَايَتِ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ﴾ [آل عمران: ٢١]، ولا يعكر على ذلك الإخبار عنهم بأنهم ﴿يَقْتُلُونَ الَّذِينَ﴾ لأنهم كانوا حريصين على قتل رسول الله محمد ﷺ، وقد حاولوا ذلك، ويؤكد أنها قُصد بها المعاصرون أيضاً ختمها بالأمر بتبشيرهم بالعذاب في قوله ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]، فاقترضت مناسبة ذلك القصد العدول إلى التنكير، فقبل: ﴿بَعِيرٍ حَقٍّ﴾ لإفادته توكيد العموم وإفهامه تقوية الشناعة عليهم والتوبيخ لهم^(٧).

(١) انظر: ملاك التأويل: ١: ٧٢ - ٧٣.

(٢) انظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير: ٣: ١٠٣، وفارن بما نقله عنه أبو حيان في البحر المحيط: ١: ٢٣٧.

(٣) انظر: الألوسي، روح المعاني: ١: ٢٣٧.

(٤) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١: ٤٢١.

(٥) انظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير: ٣: ١٠٣.

(٦) انظر: ابن هشام، مغني اللبيب: ٧٣.

(٧) انظر: درة التنزيل: ١٩ - ٢٠، وفيه سقط في أثناء التوجيه، بيد أن ما في كشف المعاني: ٩٩ - ١٠٠، وقطف الأزهار: ١: ٢٦٤ - ٢٦٥ مغن عن الساقط ودال على أن صاحبيهما تابعا الخطيب ملخصين كلامه.

والوجه الثاني كالأول في أن آية البقرة لقدماء اليهود وأن مشابقتها للمعاصرين للرسول ﷺ، بيد أن مسوِّغ العدول مناسبة حال الفريقين في الكفر كما رأى أبو جعفر بن الزبير، لأن القدماء ليسوا كالمعاصرين في المجاهرة بالباطل والتمرد والاعتداء مع معاينة البراهين وثبوت صحة نبوة رسول الله - ﷺ - لهم، فناسب حال القدماء الذين لم يعاينوا أمره التعبير بالمعروف تعريف العهد الجنسي، فقليل: ﴿يَغْيِرُ الْحَقُّ﴾ لأنه ليس في قوة المنكر المرادف لقولك: بغير سبب. ولما كانت آية آل عمران في اليهود الذين عاينوا أمره ﷺ وثبت لهم صحة نبوته، واستمروا مع ذلك على كفرهم وجحودهم، كان الأنسب في التعبير عن مرتكبهم العدول إلى ما يفيد أنهم ارتكبوه بغير شبهة ولا سبب لأنه أوغل في ذمهم، وهو ما تحققه صيغة التنكير، فقليل: ﴿يَغْيِرُ حَقٌّ﴾^(١).

والوجه الثالث أنه لما كانت آل المعرفة هنا كمالية كما رأى البقاعي، وكان ذلك منبهاً على ذمهم لإراقة الدم بغير الوضوح التام كان أخف مما في آل عمران، لأن التعبير بالتنكير هناك دال على أن قتلهم بغير حق مطلقاً، فهو أبلغ، فكان الترتيب في الإخبار على عادة أفعال الحكماء في الابتداء بالأخف كما رأى البقاعي^(٢). فهذا يرشد إلى أن وجه العدول هنا مناسبة ترتيب المصحف، لأن المناسب له تقديم الأخف وتأخير الأبلغ، فلما عبّر في البقرة بالأخف اقتضت المناسبة العدول في آل عمران إلى الأبلغ فنُكِّرَ.

والوجه الرابع أبداه أبو حيان - وتابعه عليه بعضهم - قائلاً: «في البقرة جاء في صورة الخبر عن ناس معهودين، وذلك قوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ يَغْيِرُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ٦١] فناسب أن يأتي بصيغة التعريف، لأن الحق الذي كان يُستباح به قتل الأنفس عندهم كان معروفاً، كقوله ﴿وَكَلَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] فالحق هنا الذي تُقتل به الأنفس معهود معروف»^(٣) أما آية آل عمران فبين أنها أخرجت مخرج

(١) انظر: ملاك التأويل: ١ : ٧١ و ٧٣.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١ : ٤٢١، و ٤ : ٢٩٩.

(٣) أبو حيان: البحر المحيط: ٢ : ٤١٤، وانظر: الزركشي، البرهان: ٣ : ٢١٩، والسيوطي، قطف الأزهار: ١ : ٥٧٥.

الشرط، لأنه تعالى قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ﴾ [آل عمران: ٢١] فلما كانت كذلك، وكان الشرط عاماً لا يتخصص، عدل القرآن إلى التعبير بصيغة التنكير ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ لما فيها من العموم المناسب لعموم الشرط^(١).

العدول بمبدلات الصيغة التذكيرية :

ومن أمثلته قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِمَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ [النحل: ٦٦] وفي سورة المؤمنين ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِمَا فِي بُطُونِهَا﴾^(٢) [المؤمنون: ٢١] فالمتشابهان في الاستدلال على قدرة الله بما أنعم على خلقه، ومن هذه النعم تسخير لبن الأنعام - وهي الإبل والبقر والغنم - للشرب، ولكن الآية الأولى في خصوص اللبن، لأن تمتها ﴿بِمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، والثانية في عموم المنافع، لأن تمتها ﴿بِمَا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١]، والعدول عن ضمير المذكر إلى ضمير المؤنث لرعاية المناسبة في كل منهما.

وقد اختلف في «الأنعام» الذي يرجع إليه الضمير في المتشابهين على أقوال، منها أنه جمع «نعم» فيحتمل ضمير التذكير تقديرات منها أنه للبعض، أي مما في بطون بعض الأنعام، أما ضمير التأنيث فللجمع. ومن الأقوال أيضاً أن «الأنعام» اسم جمع كرهط وقوم، واسم الجمع يجوز تذكيره باعتبار لفظه المفرد، وتأنيثه باعتبار معناه الذي هو جمع، فضمير المذكر عائد على لفظ «الأنعام»، والمؤنث على معناه. وثمة أقوال وتقديرات أخرى^(٣) يغنيها عنها ما ذكرناه لوضوح المناسبة المترتبة عليه.

والمناسبة على القول الأول الذي يُقدر فيه ضمير التذكير عائداً على بعض الأنعام بيّنة، لأنه كما أوضح الخطيب الإسكافي ومن تابعه لم يُذكر في آية النحل إلا اللبن، فدل على أن

(١) انظر المصادر المذكورة في الحاشية السابقة، والصفحات نفسها.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٢٦٦ - ٢٦٧، والبرهان: ٢٤٦، وملاك التأويل: ٢: ٦٠٨ - ٦٠٩، وكشف المعاني: ٢٢٩، والعقد الجميل: ١١١.

(٣) انظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير: ٢٠: ٦٤، وأبو حيان، البحر المحيط: ٥: ٥٠٨ - ٥٠٩، والآلوسي، روح المعاني: ١٤: ١٧٦ - ١٧٧.

المراد بعض الأنعام الذي يكون له اللبن؛ وهو الإناث، فناسب التعبير بضمير التذكير لعوده على ذلك البعض، ولم يكن ليناسب لو عُبر بضمير المؤنث، لأنه يلتبس بكُلِّها. ولما ذُكر في آية المؤمنين عموم المنافع التي هي في الإناث والذكور اقتضت المناسبة العدول إلى ضمير المؤنث ليعم جميع الأنعام^(١).

أما على القول بأن «الأنعام» اسم جمع فيحتمل أن يكون العدول لوجه آخر من المناسبة؛ هو أن الاعتبار في آية النحل كان من الأنعام بلبنها فقط؛ وهو مذكر، فناسب رعاية جانب اللفظ من كلمة «الأنعام» - وهو مذكر - فأعيد الضمير بالتذكير. أما آية المؤمنين فالاعتبار فيها بمنافع كثيرة من الأنعام كما في قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ [المؤمنون: ٢١]، والمناسب لهذا رعاية جانب المعنى من كلمة الأنعام لدلالته على الجمع - وهو مؤنث لأنه جمع ما لا يعقل - ولهذا عُدل إلى ضمير المؤنث، فقبل: ﴿بُطُونَهَا﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ زُوجِنَا وَجَعَلْنَهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] وفي سورة التحريم ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ زُوجِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُنْهٍ وَكَانَتْ مِنَ الْقَتِيلِينَ﴾^(٢) [التحريم: ١٢] فالمتشابهان في قصة واحدة، قصة مريم التي حفظت فرجها - وهو جيب قميصها أو غيره - فنفخ فيه جبريل بأمر الله فحملت بعبسى^(٣). ومع أن القصة واحدة اختلف الضمير العائد إلى محل النفخ، فعبر القرآن عنه أولاً بالمؤنث ﴿فِيهَا﴾، وعدل عن ذلك ثانياً إلى المذكر ﴿فِيهِ﴾.

والمناسبة من أوجه، الأول ما رآه الخطيب الإسكافي - وتابعه الكرمانى والسيوطي - من أن التعبير بضمير المؤنث في آية الأنبياء لكون القصد فيها التعجب من حمل مريم

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٦٨، والبرهان: ٢٤٦ - ٢٤٧، وكشف المعاني: ٢٢٩، والباقعي، نظم الدرر: ١١: ١٩٣.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٣٠٢ - ٣٠٣، والبرهان: ٢٧٠، وملاك التأويل: ٢: ٧٠٤، وكشف المعاني: ٢٥٧، والعقد الجميل: ١٢٣.

(٣) انظر: الأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ١: ٧١٨، و٢: ٧٢٢، والزحيلي، د. وهبة، التفسير الوجيز ضمن الموسوعة القرآنية الميسرة: ٣٣١ و ٥٦٢.

الخارق للعادة، وقد دل على هذا القصد ذكر ابنها معها في قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] فكان إخباراً عن أن النفخ صيرها حاملاً، والحامل صفتها بجملتها، فالتقدير: صيرها النفخ حاملاً إلى أن وضعت، فناسب أن يُعاد الضمير إليها. أما آية التحريم فالقصد فيها مغاير لمشابتها، فهو لوصف مريم بعظيم الإيمان، قال تعالى ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَائِلِينَ﴾ [التحريم: ١٢] ولذلك اقتصر على وصفها بالإحصان فلم يُذكر معها ابنها بخلاف الآية المشابهة، فاقترضت المناسبة أن يُعدل إلى الاقتصار على النفخ في الفرج؛ وهو مذكر، فأعيد الضمير إليه بالتذكير، فقيل: ﴿فِيهِ﴾^(١).

والثاني من أوجه المناسبة ما رآه أبو جعفر بن الزبير من أن آية الأنبياء مقصود بها من التشريف أكثر مما قصد بمشابتها، لذكر مريم وابنها في هذه الآية، فاتسع المقصود بذلك، فناسبه التوسعة في عودة الضمير، فأعيد إلى ذاتها المطهرة بجملتها، فقيل: ﴿فِيهَا﴾. أما آية التحريم فرأى أبو جعفر أنه لم يُقصد فيها توسعة المدح كما كان في سابقتها إذ لم يُذكر معها ابنها، وإنما قصد هنا تخصيص مريم في ذاتها بعظيم إيمانها، فناسب العدول إلى الإخبار بخصوص محل النفخ؛ وهو مذكر، فأعيد إليه الضمير بالتذكير^(٢).

وأشار أبو جعفر بن الزبير - وتابعه السيوطي - إلى وجه آخر من المناسبة، منظور فيه إلى السياق البعيد، فرأى: «أن آية الأنبياء وردت منسوقة على آيات تضمنت ذكر جماعة من الرسل موصوفين بخصائص عليّة وآيات نبوية، أولهم إبراهيم عليه السلام ثم ابنه إسحق وابنه يعقوب، ثم نوح ولوط وسليمان وأيوب وعيسى، وإسماعيل وإدريس وذو الكفل وذو النون وزكريا، فلما ذكر هؤلاء الذوات العليّة عليهم السلام بخصائص ومنح، ناسب ذكر مريم وابنها عليهما السلام بما مُنحا»^(٣) أي كان المناسب لسياق هذه المنح أن يعاد ضمير النفخ

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٠٣، والبرهان: ٢٧٠ - ٢٧١، وغرائب التفسير للكرماني أيضاً: ١: ٧٤٧، والسيوطي، معترك الأقران: ٣: ٧٣.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٧٠٥.

(٣) السابق: ٢: ٧٠٦، وانظر أيضاً: السيوطي، معترك الأقران: ٣: ٧٣.

إلى ذاتها المطهرة. ثم قال في مشابقتها: «وأما آية التحريم فمقصود فيها ذكر عظيمتين جليلتين تبين بهما حكم سببية القدر بالإيمان أو الكفر، وهما قضية امرأتي نوح ولوط، وأن انصواءهما إلى هذين النبيين الكريمين عليهما السلام انصواء الزوجية التي لا أقرب منها، ومع ذلك لم يغنيا عنهما من الله شيئاً، وقضية امرأة فرعون وقد انصوت إلى أكفر كافر، فلم يضرها كفره، ثم ذكرت مريم عليها السلام للالتقاء في الاختصاص وسببية السعادة، ولم يدع داع إلى ذكر ابنها»^(١) أي لما كان السياق لمقارنة المؤمنات بالكافرات - وهو قوله ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم: ١٠] ثم قوله ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] - كان المناسب أن تذكر مريم وحدها من غير إشارة إلى ابنها، والمناسب لذكرها وحدها تخصيص محل النفخ كما تقدم في الوجه السابق، ولهذا عُدل إلى تذكير الضمير.

ويمكن أن يضاف أنه لما كان هذا السياق لذكر النساء خاصة، ناسب العدول إلى الإخبار بخصوص محل النفخ، ولذلك وقع التعبير بالتذكير.

وأبدى البقاعي وجهاً آخر نظر فيه إلى مقصود السورة، فقال في آية الأنبياء: «ولعله أضاف هنا النفخ إليها لا إلى فرجها وحده ليفيد أنه - مع خلق عيسى عليه السلام به وإفاضة الحياة عليه حساً ومعنى - أحياها هي به معنى؛ بأن قوى به معانيها القلبية حتى كانت صديقة متأهلة لزواجها بخير البشر في الجنة، وخُصت هذه السورة بهذا لأن مقصودها الدلالة على البعث الذي هو إفاضة الأرواح على الأموات»^(٢) ومراده بزواجها بخير البشر زواجها برسولنا محمد ﷺ^(٣). وقال في آية التحريم: «ولما كانت هذه السورة لتشريف النبي ﷺ وتكميل نسائه في الدنيا والآخرة نص على المقصود بتذكير الضمير - ولم يؤنثه قطعاً للسان من يقول تعنتاً: إن المراد: نفخ روحها في جسدها - ﴿فِيهِ﴾ [التحريم: ١٢] أي فرجها الحقيقي؛ وهو جيبها، وكل جيب يسمى فرجاً»^(٤) أي لما كان من مقاصد هذه السورة

(١) ملاك التأويل: ٢: ٧٠٦، وانظر أيضاً: السيوطي، معترك الأقران: ٣: ٧٣.

(٢) البقاعي، نظم الدرر: ١٢: ٤٧١ وقارن بـ ١٢: ٣٧٨.

(٣) انظر: السابق: ٢٠: ٢١٣ و ٢١٥.

(٤) السابق: ٢٠: ٢١٣، وقارن بـ ١٧٩.

تشريف نسائه ﷺ، وكانت مريم عليها السلام من أزواجه في الجنة، كان المناسب العدول إلى تذكير الضمير ليعود على الفرج فيكون نصاً في تشريفها بأنه نُفخ فيها من روح الله، ويكون مانعاً من القول تعتاً: إن التعبير بضمير المؤنث ﴿فِيهَا﴾ يحتمل أن يكون المراد به: نفخ روحها في جسدها فليس لها مزية على غيرها من البشر.

العدول بمبدلات الصيغة الإظهارية :

ومن أمثلته قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَإِذَا رَأَوْاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الأنبياء: ٣٦] وفي سورة الفرقان ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ ^(١) [الفرقان: ٤١] فالمتشابهان في الإخبار عن استهزاء مشركي قريش برسول الله ﷺ، وقد أظهر الفاعل في آية الأنبياء، وعُدل عنه إلى الإضمار في آية الفرقان.

وقد أشار الخطيب الإسكافي - وتابعه الكرمانى - إلى مناسبة ذلك بأنه تقدم آية الأنبياء قوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وليس فيها ذكر الكفار، فناسب الإظهار. أما آية الفرقان فتقدمها قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى آلِ قَارِئَةَ اللَّيْلِ أَمْطَرَتِ مَطَرُ السَّوَاءِ أَفَكُلَّمْ يَكُونُونَ بِكَ وَفَوْقَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠] وفيها ذكر الكفار بالإضمار، فناسب العدول إلى الإضمار، فقل: ﴿رَأَوْكَ﴾ ^(٢).

ونظر أبو جعفر بن الزبير إلى السياق البعيد، فرأى أن مناسبة الإظهار في آية الأنبياء أنه لم يتقدمها ذكر يخص الكفار المعاصرين له ﷺ بالخطاب. أما آية الأنبياء فتقدمها ذلك فناسب العدول إلى الإضمار، قال أبو جعفر: «إن الكفار المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يتقدم قبل آية الأنبياء فيما يليها من أي السورة أو يقرب منها خطاب يعينهم ويخصهم من غيرهم، إنما تقدم قبلها قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] وهذا يتناول كل كافر مكلف ذي عقل، كان من العرب أو غيرهم، معاصر أو غير معاصر، ثم لم يقع بعد هذه الآية ما يعارض عمومها، فلهذا تعين إظهار

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٩٨، والبرهان: ٢٦٧، وملاك التأويل: ٢: ٦٩٤، والعقد الجميل: ١٢١.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٢٩٨، والبرهان: ٢٦٧.

الفاعل في قوله ﴿وَإِذَا رَأَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٣٦] إذ لو قيل : وإذا رأوك، لما كان يمكن رجوعه إلا للمذكورين قبل في قوله ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٣٠] وليس خاصاً بالمعاصرين، فلم يكن ليناسب. أما آية الفرقان فإن قبلها قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] والمنزل عليه القرآن معلوم ﷺ، والقائلون معاصروه، وهم الذين عُنىوا على القطع بقوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾ الآية [الفرقان: ٣٢] فلما تقدم ذكرهم غير متناول غيرهم وتعينوا بالذكر، واحتيج بعد إلى الإخبار عنهم أتى بضميرهم، إذ هو أوجز وقد علم، ف قيل: ﴿وَإِذَا رَأَاكَ﴾ [الفرقان: ٤١] ^(١) فلولا العدول لما تحققت المناسبة.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في قصة قوم لوط من سورة الأعراف ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢] وفي القصة نفسها من سورة النمل ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ﴾ ^(٢) [النمل: ٥٦] فالمتشابهان في قصة واحدة، والعدول عن الإضمار في ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ إلى الإظهار في ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾.

وقد أشار البقاعي إلى مناسبة الإضمار في الآية الأولى بقوله: «لما كان السياق لبيان الخبيث بين أنه لا أخص من هؤلاء الذين بلغ من رذالتهم أنهم عدوا الطاهرين المتطهرين مما يُصان اللسان عن ذكره، فقال تعالى مشيراً إلى ذلك في حكاية قولهم ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٢] أي المحدث عنهم، وهم لوط ومن انضم إليه» ^(٣) أي أن السياق لبيان فعل القوم الخبيث، وهو قول لوط لقومه - بعد أن وبخهم بقوله ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] - قوله لهم ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، فناسب هذا السياق التعبير بما يشير إلى خبيثهم، فحكي

(١) ملاك التأويل: ٢: ٦٩٤ - ٦٩٥.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١٦٠ - ١٦١، والبرهان: ١٩٤، وملاك التأويل: ١: ٤١٨، والعقد الجميل: ٨١.

(٣) البقاعي، نظم الدرر: ٧: ٤٥٦.

قولهم ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ بإضمار آل لوط ، لأنه مشير إلى أنهم أرادوا به صون ألسنتهم عن ذكر لوط وآله استردالاً لهم.

وأشار أبو جعفر بن الزبير إلى مناسبة الإظهار في الآية الثانية بقوله : «لما زيد في تعنيفهم في النمل وتعريفهم بإتيانهم الفاحشة على علم بها ، أو مع مشاهدة بعضهم بعضاً وعدم استخفائهم بها ، وذلك أقبح في المرتكب ، فلما زيد في تعريفهم زيد في تعليل الإخراج التنصيص على الآل ، لأن قوله ﴿ءَالُ لُوطٍ﴾ [النمل: ٥٦] أنص في إخراج جميع من للوط عليه السلام من ذويه وأهله من قوله ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٢] (زيادة) التنصيص الأعم بإزاء الأزيد في التقرير»^(١). وأشار بأن في النمل زيادة تعنيف وتعريف بإتيانهم الفاحشة على علم بها إلى قوله تعالى ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحَشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ﴾ [النمل: ٥٤ - ٥٥] أما في الأعراف فقال لهم لوط ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١] فالتعنيف والتقرير في الأعراف أخف ، وفي النمل أزيد لقوله ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ و ﴿أَيْنَكُمْ﴾ دون ﴿إِنَّكُمْ﴾ فناسب ذلك أن يُعدل إلى الإظهار لما فيه من زيادة التنصيص الأعم.

وأبدى البقاعي وجه المناسبة لمقصود السورة ولكنه اقتصر فيه على آية العدول ، فذكر أن مقصود السورة إظهار العلم ، فناسبه العدول إلى الإظهار بعد أن كان مضمراً في الأعراف^(٢).

وأبدى الكرمانى وجهاً يشير إلى مناسبة العدول لترتيب المصحف ، فقال في سورة الأعراف : «لأن ما في هذه السورة كناية فسرهما ما في السورة التي بعدها وهي النمل»^(٣) والظاهر أنه يعني أن الإضمار والإظهار كالمفصل والمجمل ، والمناسب فيهما تقديم الإجمال على التفصيل ، فلما تقدم هنا الإضمار ناسب العدول في النمل إلى الإظهار.

(١) ملاك التأويل : ١ : ٤٢٤ ، وفي الأصل بزيادة ، ولكن وقع في بعض نسخ المخطوط كما ذكر المحقق في الحاشية ٣ من الصفحة نفسها فزيادة بالفاء ، وبذلك صوبنا الأصل.

(٢) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : ١٤ : ١٨٣ وقارن ب : ١٢٢.

(٣) البرهان : ١٩٤.

- تبين الأمثلة السابقة أن العدول عن التشابه بواسطة المبدلات الصيغية كالعدول بواسطة أنواع المبدلات الأخرى مراعى به تحقيق التناسب؛ بوضع كل صيغة الموضع الأنسب لمعناها، والذي لا يحسن فيه سواها.

وصفوة القول أن العدول عن التشابه بواسطة المبدلات على اختلاف أنواعها اللفظية والحرفية والتعقيبية والصيغية مقصود به تحقيق المناسبة المعنوية في المتشابهين، ليكون كل من اللفظين المعدول عنه وإليه واقعاً موقعه الأنسب له، وأن ما يؤكد ذلك تحقق المناسبة في المثال الواحد من أوجه متعددة، واجتماعها له من أنواع مختلفة كالسياق القريب والبعيد ومقصود السورة وترتيب المصحف، ولذلك لم يكن يحسن وضع الكلمة المعدول عنها موضع المعدول إليها، أي أنه لولا العدول عن التشابه لما تحققت المناسبة.

ثانياً : العدول عن التشابه بالزوائد والنواقص للتناسب المعنوي :

«الزوائد والنواقص» مصطلح لأصحاب المتشابه اللفظي وتوجيهه كما تقدم في الفصل الأول، والعدول بواسطة هذا النوع يعني نقص شيء من أحد المتشابهين مع وجوده في الآخر، وهو أعم من الحذف والذكر، لأنه لا ينحصر بما زاد أو نقص من مكونات الجملة وقيودها، وإنما يتناول ما قل عن ذلك وزاد، فيدخل فيه الحرف والاسم والفعل والجار مع مجروره والجملة، وقد يزيد.

وسنراعي التقسيم هنا كما راعيناه في المبدلات، فنبدأ بالزوائد والنواقص اللفظية التي تجمع زيادة الاسم والفعل والجار مع مجروره، ونثني بالزوائد والنواقص الحرفية، ونختم بالزوائد والنواقص الجمالية.

أ. العدول بالزوائد والنواقص اللفظية للتناسب المعنوي :

أشرنا قريباً إلى أننا نقصد بالزوائد والنواقص اللفظية الاسم والفعل والجار مع مجروره، أي كل ما هو غير حرف ولا جملة، وسنراعي هذا الترتيب في التمثيل هنا.

أ. العدول بزوائد ونواقص الاسم :

وهي متنوعة، فقد تكون قيوداً أو معطوفات أو غير ذلك، وسنراعي هذا التنوع في التمثيل.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة الذاريات ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩] وفي سورة المعارج ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلَّسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^(١) [المعارج: ٢٤-٢٥] فالمتشابهان في وصف المؤمنين بالإنفاق، وقد نقص من الأول وصف الحق بالمعلومية، وعُدل عنه إلى الزيادة في الثاني.

ووصف الحق بالمعلوم فُسر بالزكاة، لأنها مقدرة معلومة، وليس في المال حق مقدر معلوم نصاباً ووقتاً ووجوباً غيرها. أما إطلاقه فللعموم؛ ليشمل الزكاة وغيرها من الصدقات^(٢).

ومناسبة ذلك كما نبه أبو جعفر بن الزبير والبقاعي أن سياق آية الذاريات للإحسان، وهو قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٦] ثم ذُكروا بأنهم يتطوعون ويتنفلون، قال تعالى ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ مَا يَهْتَمُّونَ بِآلَتِنَا هُمْ يَسْتَفْتِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨] فلما كان طول قيام الليل بالصلاة والمداومة على الاستغفار في الأسحار من النوافل التي تطوعوا بها زيادة على ما فُرض عليهم، كانت المناسبة متحققة في نقص ﴿مَّعْلُومٌ﴾، لما في لإطلاق ﴿حَقٌّ﴾ من الدلالة على أنهم لا يتقيدون فيما ينفقون بالزكاة المعلومة المفروضة عليهم، بل يزدون عليها صدقات أخرى يتطوعون بها تطوعاً. أما آية المعارج فسياقها للمصلين مطلقاً، وهو قوله تعالى بعد وصف الإنسان بمنعه الخير ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢١، ٢٢] والمصلون أعم من المحسنين، فالمراد هنا الصلاة المفروضة، ولما كان المناسب لذلك أن يُقرن بالزكاة المفروضة عُدل إلى زيادة ﴿مَّعْلُومٌ﴾ لدلالته على هذه الزكاة^(٣).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] وفي سورة الكهف ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(٤) [الكهف: ٤٨] فالمتشابهان حكاية ما يقال للكفار يوم القيامة، وقد زيد في الأول ﴿فُرْدَىٰ﴾، وعُدل إلى نقصه في الثاني.

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٨٦٦، وكشف المعاني: ٣٦٤.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٨٦٦-٨٦٧، وكشف المعاني: ٣٦٤-٣٦٥.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٨٦٧، والبقاعي، نظم الدرر: ١٨: ٤٥٦، و٢٠: ٤٠٣.

(٤) انظر: ملاك التأويل: ١: ٣٣٣، والعقد الجميل: ٧٠.

وقد أبدى أبو جعفر مناسبة هذا العدول بقوله: «والجواب - والله أعلم - أن ذلك مراعى فيه في آية الأنعام ما أعقبت به من قوله ﴿وَرَكُّنُمْ مَا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] أي أعطيناكم من الدنيا ما شغلكم عن آخرتكم، ثم قال ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ دَعَّمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام: ٩٤] أي منفردين عما كنتم تؤملون من أندادكم ومعبوداتكم من دونه سبحانه. فلرعي هذا المعقّب به في سورة الأنعام (ما) قيل فيها ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ [الأنعام: ٩٤]. أما آية الكهف فقبلها قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ إِلْحِيَالَ وَنَرَى الْآرْضَ بَارِزَةً وَحَسَبْنَاهُمْ فَلَاحِقَاتٍ فَمِنْ تَحْتِهِمْ أَفْوَاجٌ﴾ [الكهف: ٤٧] ثم قال ﴿وَعَرَّضْنَاهُمْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨] أي مجردين من كل متعلّق، ولم يقع هنا ذكر ولا إشارة إلى ما عُبد من دون الله، فلهذا لم يقع هنا ﴿فُرَادَى﴾، وذلك بيّن التناسب»^(١).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة القصص ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠] وفي سورة الشورى ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٢) [الشورى: ٣٦] فالمتشابهان في تحقير أمر الدنيا لأن ما فيها من النعم إنما هو متاع زائل، وقد زيد في الأول ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾، وعُدل إلى نقصه في الثاني.

والمتاع ما لا يُستغنى عنه كالمأكل والمشروب والملبوس، والزينة ما يُتجمل به كالملابس الفاخرة والآلات الحسنة والدور المزوقة، فهو مما يمكن الاستغناء عنه لأنه من فضول العيش^(٣).

وقد أشار الخطيب الإسكافي - وتابعه الكرمانى - إلى أن مناسبة ذلك أن المتشابهين واردان في سياق توعد الكفار إلا أنهم وُعطوا في الأول عظة عامة، وفي الثاني بشيء مخصوص، وتفصيل ذلك أن آية القصص تقدمها قوله تعالى تهديداً للكفار ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] ثم أوعدهم بمثل ما أهلك به من قبلهم،

(١) ملاك التأويل: ١: ٣٣٣ - ٣٣٤، وزيدت ما في الأصل، والصواب إسقاطها، ويؤيده عدم إثباتها في بعض نسخ المخطوط كما ذكر المحقق في الحاشية ٤ من الصفحة: ٣٣٤.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٣٤٣، والبرهان: ٢٩٢، وملاك التأويل: ٢: ٧٥٩، وكشف المعاني: ٢٨٦، والعقد الجميل: ١٣٠.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٣٤٣، والبرهان: ٢٩٢.

فوعظهم بأن ما أوتوه في الدنيا لا يعوض عما يفوتهم في الآخرة، لأنه مؤقت وإن تناول أمده، فاقترضى ذلك التعميم ليستوعب جميع ما أوتوه، فكانت زيادة ﴿وَزَيْدْنَهَا﴾ [القصص: ٦٠] مناسبة هنا من حيث كون أغراض الدنيا مستوعبة بلفظي المتاع والزينة، فالمتاع ما لا يُستغنى عنه، والزينة من فضول العيش؛ أي هي كماليات. أما آية الشورى فبين الخطيب الإسكافي أنه تقدمها قوله تعالى ﴿وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] وهو عام اللفظ خاص المعنى كما ذكر الخطيب، لأن المصائب قد تصيب من لا ذنب له، فالمراد بعض المصابين وبعض المصائب، ثم قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْخَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٣] ثم قال ﴿أَوْ بُيْعُهُمْ إِمَّا كَسِبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٤] أي ومن آياته جريان السفن في البحر، إن شاء أهلككم وأنتم فيها بإسكان الريح المحركة لها أو بإغراقها بسبب ما كسبتم من الذنوب، وإن شاء أنجاكم فعفا عمن يستحق العفو وأمهل من علم منه الصلاح، ثم قال ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ [الشورى: ٣٥] أي ويعلم الكفار وهم في السفن أنه لا ملجأ لهم إلا بلطف الله، ثم قال ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٣٦] أي إن أوتيتم السلامة وأعطيتم العافية فذلك قليل البقاء وإن امتد أياماً، فلما كان سياق هذه الآية لحال مخصوصة، أي حال كونهم في السفن وهم يطلبون النجاة والأمن في الحياة، لم يناسب زيادة ﴿وَزَيْدْنَهَا﴾ هنا لإفادته التعميم والاستيعاب، ولذلك عدل إلى نقصه ليناسب هذه الحال الخاصة من طلب الخلاص^(١).

وأبدى ابن جماعة وجهاً آخر، ذهب فيه إلى أنه لما تقدم ذكر الكفار في آية القصص ناسبه زيادة ﴿وَزَيْدْنَهَا﴾، لأنهم هم المغترّون بزينة الدنيا من المساكن والأموال والخدم. ولما تقدم آية الشورى آيات نعم الله على عباده المؤمنين - ويشير بذلك إلى قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَاسْتَجِبْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَزِيدْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الشورى: ٢٦٢٥] أي يجيب دعاءهم، وقوله ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَعَثُوا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُزِلُّ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧] وقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِلُّ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٤٤ - ٣٤٥، والبرهان: ٢٩٢.

وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿[الشورى: ٢٨]﴾ - فلما تقدم هذا من ذكر نعمه تعالى على عباده المؤمنين ناسبه العدول إلى نقص ﴿وَزَيْنَهَا﴾ لعدم اغترارهم بزينه الدنيا كما ذكر ابن جماعة^(١). وهو وجه بعيد، لأن ما تقدم آية الشورى من ذكر نعمه تعالى على عباده المؤمنين مفصول عن الآية بتهديد الكفار ووعظهم في آيات كما سبق في توجيه الخطيب الإسكافي، ولأن ذلك المتقدم ظاهره أنه لعموم العباد لا لخصوص المؤمنين إلا قوله ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الشورى: ٢٦].

ويحتمل العدول وجهاً آخر من التناسب، وهو أن آية القصص لما حُوطب بها الكفار المتوعدون بمثل ما أهلك به من قبلهم، وكان إهلاك المهلكين قبلهم لبطرهم معيشتهم كما أخبر تعالى بقوله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بِطَرَفٍ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨] ناسب زيادة ﴿وَزَيْنَهَا﴾، لأن البطر لا يكون إلا مع فضول العيش وهو الزينة. أما آية الشورى فتقدمها قوله تعالى ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧] فناسب عدم البسط العدول إلى نقص ما يدل على فضول العيش ﴿وَزَيْنَهَا﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨] وفي الأعراف ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾^(٢) [الأعراف: ١٦١] فالتمشابهان في قصة واحدة قصة بني إسرائيل، وقد أخبر تعالى فيها عما أنعم به على آبائهم إذ أمرهم بدخول القرية؛ أي بيت المقدس، وأباح لهم الأكل ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً هنيئاً حيث شاؤوا، ومع أنها قصة واحدة أخبر فيها مرة بزيادة ﴿رَغَدًا﴾ ومرة بالعدول إلى نقصه.

ومناسبة هذا العدول من أوجه؛ الأول أبداه الخطيب الإسكافي وتابعه عليه جماعة، وهو أنه سبحانه أسند الفعل إلى نفسه في آية البقرة بقوله ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨] فناسب زيادة ﴿رَغَدًا﴾، لأن التناسب يقتضي التصريح

(١) انظر: كشف المعاني: ٢٨٦.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١٤ - ١٥، والبرهان: ١٢٣، وملاك التأويل: ١ : ٥٨، وكشف المعاني: ٩٦،

والعقد الجميل: ١١.

بالإكرام الأوفر الدال عليه ﴿رَعَدًا﴾ مع الإسناد الصريح إلى المنعم الكريم. ولما لم يسند سبحانه الفعل إلى نفسه في آية الأعراف، وإنما كان الإسناد فيها بلفظ المجهول - وهو ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦١] - اقتضت المناسبة العدول إلى نقص ﴿رَعَدًا﴾^(١).

والثاني أبداه بعض المفسرين، وهو أن ما في البقرة حال قدوم، لأن المأمور به فيها دخول القرية، قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا﴾ [البقرة: ٥٨] فناسب زيادة ﴿رَعَدًا﴾ لأن الأكل في هذه الحال ألد، وهم إليه أحوج، وتبشيرهم به أنسب؛ لأن الأمر لديهم مجهول. ولما حُكيت في الأعراف حال السكنى، لقوله تعالى ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [الأعراف: ١٦١] اقتضت المناسبة العدول إلى نقص ﴿رَعَدًا﴾، لأنها حال استقرار فلا يكون الأكل فيها لذياً كذلته في حال القدوم، وليست حاجتهم إليه فيها كحاجتهم عند القدوم^(٢).

والثالث أشار إليه أبو جعفر بن الزبير وغيره، وقد اقتصروا فيه على آية الأعراف؛ وهو أن هذه الآية وقع فيها ما يُشعر ويعرف بتمادي الأكل؛ فلفظ ﴿اسْكُنُوا﴾ في قوله ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [الأعراف: ١٦١] مشعر بالراحة، ومعناه الاستقرار والإقامة، وإباحة الأكل لهم حيث شاءوا في قوله ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ [الأعراف: ١٦١] إنما هي إباحة للأكل من نواحيها من غير أن يزاحمهم فيها أحد، والأكل المستمر على هذا الوجه لا يكون إلا رعداً واسعاً، ولا سيما أن الآية مقصود بها الامتنان والإنعام، فلما حصل معنى الرغد من هذا لم يُحتج إلى التنصيص عليه^(٣)، فناسب العدول إلى نقصه.

والرابع أبداه ابن جماعة والبقاعي، وقد نظرا فيه إلى السياق البعيد؛ فبه يقوى الوجه السابق؛ وهو أن آية البقرة وقعت في سياق تذكير الله تعالى لبني إسرائيل بنعمه عليهم،

(١) انظر: درة التنزيل: ١٦، والبرهان: ١٢٣، والفخر الرازي، التفسير الكبير: ٣: ٩٣، وأبو حيان، البحر المحيط: ١: ٢٢٥، والآلوسي، روح المعاني: ١: ٢٦٧.

(٢) انظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير: ١٥: ٣٥، وأبو حيان، البحر المحيط: ٤: ٤٠٨، والآلوسي، روح المعاني: ٩: ٨٨، ورضا، محمد رشيد، تفسير المنار: ٩: ٣٧١.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ١: ٦٠، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٥٧، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: ٢: ٣٠٨، والآلوسي، روح المعاني: ٩: ٨٩.

وذلك من لدن قوله تعالى ﴿يَبْقَىٰ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧] فكانت زيادة ﴿رَعَدًا﴾ مناسبة لذلك، لأنها تدل على أن النعم أتم. ولم يكن سياق آية الأعراف كذلك، وإنما هو لتوبيخ بني إسرائيل لنقضهم العهود وإسراهم في الكفر، من لدن قوله تعالى ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فناسبه العدول إلى نقص ﴿رَعَدًا﴾^(١).

وبهذه الأوجه يتبين أن كون العدول لمراعاة المناسبة أمر متأكد، وبالوجهين الثاني والرابع خاصة بتقوى الأول والثالث، وبهما يندفع اعتراض المعترض على الوجه الأول^(٢).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١] وفي سورة مريم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦] وفي سورة الزخرف ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٣) [الزخرف: ٦٤] فالمتشابهات الثلاث في قصة عيسى وأمه عليهما السلام، وهي حكاية ما قاله عيسى لبني إسرائيل، وقد اختلفت الحكاية عنه؛ فجاءت في آيتي آل عمران ومريم بنقص «هو»، وعُدل إلى زيادته في آية الزخرف.

و«هو» ضمير فصل يفيد القصر والتأكيد، فإنك «إذا قلت: زيد قائم فيحتمل أن يكون تقديره: وعمرو قائم، فإذا قلت: زيد هو القائم خصصت القيام به، فهو كذلك في الآية، وهذا مثاله، لأن هو يُذكر في مثل هذه المواضع إعلالاً بأن المبتدأ مقصور على هذا الخبر، وهذا الخبر مقصور عليه دون غيره»^(٤) والتوكيد في مثل هذا الموضع يكون لأحد وجهين؛ إذا كان المبتدأ مقصوراً على الخبر فالمراد تأكيد الصفة المُخبر بها، والمعنى أن زيداً هو القائم لا القاعد، وإذا كان العكس؛ أي كان الخبر مقصوراً على المبتدأ، فالمراد تأكيد أن

(١) انظر: كشف المعاني: ٩٧، والبقاعي، نظم الدرر: ١: ٣٩٢، و٨: ١٣٥ - ١٣٦ وقارنها بـ: ٨: ٧٠، وانظر أيضاً متابعة السيوطي لابن جماعة في قطف الأزهار: ١: ٢٥٦ - ٢٥٧، وفي معترك الأقران: ١: ٦٨، وفي الإتقان: ٢: ٩٩٧.

(٢) انظر: الألوسي، روح المعاني: ١: ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٦٧، والبرهان: ١٤٨، وملاك التأويل: ١: ١٦١، وكشف المعاني: ١٢٩، والعقد الجميل: ٤١.

(٤) البرهان: ١٤٨.

صاحب هذه الصفة هو المُخبر عنه لا غيره، أي أن الصفة تنحصر به وتقتصر عليه، والمعنى أن زيداً هو القائم لا عمرو، وكذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ [الزخرف: ٦٤] يحتمل التوكيدين؛ أن يريد تأكيد إثبات الربوبية لله تعالى ونفي الأبوة عنه، أي تأكيد أن الله هو ربي لا أبي كما زعمت النصارى، وأن يريد تأكيد اقتصار الربوبية عليه سبحانه وانفراده بها، أي تأكيد أن الله هو ربي لا غيره من الآلهة التي تعبدونها^(١).

وقد كشف الخطيب الإسكافي - وتابعه بعضهم - عن وجه من أوجه مناسبة هذا العدول، إذ ذكر أن آية آل عمران مسبوقة بآيات كثيرة في الإخبار عن عيسى عليه السلام وابتداء أمره، وذلك من لدن قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] وقد دلت الآيات المشار إليها بما ذكر فيها من الأفعال المسندة إليه عليه السلام على عبوديته وعلى أن الله خالقه لا أبوه كما زعمت النصارى، فكانت الآية هنا مستغنية عن التوكيد، ولذلك كان نقص «هو» منها مناسباً. وكذلك آية مريم، فهي مسبوقة بآيات أكثر مما سُبقت به آية آل عمران في شأنه عليه السلام، وذلك من لدن قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦] وهي آيات ناطقة بأن الله ربه، فكانت مؤكدة لحاله على حقيقتها ومغنية عن التوكيد، ولذلك كان نقص «هو» منها مناسباً كسابقتها. أما آية الزخرف فلم يتقدمها ما تقدم مشابهيها، وإنما وقعت بعد قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ [الزخرف: ٦٣- ٦٤] فلما خلا هذا الموضع من الآيات الكثيرة الدالة على أن الله تعالى ربه وخالقه وأنه عليه السلام عبده لا ابنه، ناسب العدول إلى زيادة ﴿هُوَ﴾ لما تقتضيه من تأكيد إثبات الربوبية له تعالى وانفراده بها^(٢).

وكشف أبو جعفر بن الزبير عن وجه آخر، فذكر أن آيتي آل عمران ومريم لم يرد فيهما ما يستدعي التوكيد والقصر الذي يحزره «هو» لعدم ذكر ما يعبد المشركون من آلهة، بخلاف آية الزخرف فإنه تقدمها ذكر آلهتهم والإخبار عنهم بمجادلتهم الباطلة في أمر عيسى عليه

(١) انظر: درة التنزيل: ٦٨ - ٦٩، والبرهان: ١٤٨.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٦٧ - ٦٨، والبرهان: ١٤٨، وكشف المعاني: ١٢٩، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٥٩٥.

السلام، قال تعالى ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا يَا إِلَهُتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ [الزخرف: ٥٧- ٥٨] أي لما سمع المشركون قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ضَرَبَ بعض المشركين عيسى عليه السلام مثلاً بأنه إذا كان في النار لعبادة النصارى له فقد رضينا بأن تكون آلهتنا في النار، فالمعنى: آلهتنا خير أم المسيح، فكان الرد عليهم يقتضي الحكاية عنه بما يؤكد أنه أثبت الربوبية لله تعالى وأفرده بها وقصرها عليه، لما في ذلك من الدلالة على أنه بريء ممن يعبدونه من دون الله، والحاصل أن العدول إلى زيادة ﴿هُوَ﴾ ليكون الرد على قولهم ﴿يَا إِلَهُتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ بما معناه: هؤلاء غيره^(١).

٢. العدول بزوائد ونواقص الفعل:

مع أن معظم الزوائد هنا هي فعل مع فاعله؛ فهي جملة، فإن المستحسن جعلها زوائد فعلية لأن المقصود بها هو الفعل كما سيظهر في إبداء المناسبة، فهذا بخلاف ما سيأتي في زوائد ونواقص الجملة إذ المقصود هناك هو الجملة لا الفعل، وإن كان ذلك المقصود مقصوراً على حالات كما سيتضح هناك.

فمن أمثلة العدول بزيادة الفعل قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وفي سورة الكهف ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢) [الكهف: ٥٥] فالمتشابهان بيان لحال المشركين بعد أن جاءهم الهدى من الله، ولكن أولهما بين سبب امتناعهم عن الإيمان، والثاني بين سبب امتناعهم عن الإيمان والاستغفار بالعدول فيه إلى زيادة ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾.

وقد أبدى أبو جعفر بن الزبير وجه المناسبة المقتضية للعدول، إذ رأى أن آية الإسراء تقدمها قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]

(١) انظر: ملاك التأويل: ١: ١٦٣ - ١٦٤. وانظر تفسير الآية عند الألوسي، روح المعاني: ٢٥: ٩٢.

(٢) انظر: البرهان: ٢٥٣، وملاك التأويل: ٢: ٦٣٧، والعقد الجميل: ١١٥.

ثم حكى تعالى جملة من اقتراحات عتاة كفار قريش التي اقترحوها عليه ﷺ لكي يؤمنوا بزعمهم، من لدن قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى قوله ﴿أَوْ تَرَفَّى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ﴾ [الإسراء: ٩٣] وهي اقتراحات مفصحة باليأس من فلاحهم، ودالة بجملتها على بُعدهم عن الإنابة إلى الإيمان، فناسب ذلك نقص الاستغفار، لأن الغالب أن يرد حيث لا تبلغ المعاصي مرتبة الكفر. أما آية الكهف فالتقدم عليها لا يبلغ مبلغ مشابهتها في الإفصاح بكفرهم، لأن قبلها قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] وليس قوله هنا ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤] كقوله في مشابهتها ﴿فَلْيَنْ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩] لأن الجدال لا يلزم منه أن يكون مرتكبه كافراً. فلما كان المذكور في سياق آية الكهف من وصف حالهم لا يبلغ مبلغ المذكور في سياق آية الإسراء كما رأى أبو جعفر، اقتضت المناسبة العدول إلى زيادة الاستغفار؛ ليوافق ما بُني عليه من الإخبار بكثرة جدالهم، في مقابلة الشدة المفصح بها في آية الإسراء، وذلك لأن تناسب النظم في الشدة واللين مراعى معتمد^(١).

وكان الكرمانى قد أشار إلى وجه آخر اقتصر فيه على آية الكهف؛ وهو أنهم خُوفوا فيها بإتيان سنة الأولين في قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الكهف: ٥٥] أي ما منعهم من الإيمان إلا تعنتهم وطلبهم أن يحل بهم الهلاك؛ وهو سنة الله في الأقوام المكذبة لرسولها قوم نوح وهود وصالح وشعيب، وكان هؤلاء كلهم قد أمروا بالاستغفار، فحكي عن نوح قوله لقومه ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، وعن هود قوله لقومه ﴿وَيَقُومُوا لِقَوْمِهِمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢]، وعن صالح قوله لقومه ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، وعن شعيب قوله لقومه ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، فلما خُوفوا سنة هؤلاء الأقوام، وكان هؤلاء قد أمروا بالاستغفار، ناسب إجراء المخاطبين مجراهم، فاقضى ذلك العدول إلى زيادة الاستغفار^(٢).

(١) انظر: ملاك التأويل ٢: ٦٣٧ - ٦٣٨ - ٦٣٩.

(٢) انظر: البرهان ٢٥٣، وانظر تفسير الآية عند الألوسي، روح المعاني ١٥: ٣٠١.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سبعة مواضع من ست سور أولها البقرة ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، والأعراف: ١٦٠، والتوبة: ٧٠، والنحل: ٣٣ و ١١٨، والعنكبوت: ٤٠، والروم: ٩] وفي موضع واحد من سورة آل عمران ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١) [آل عمران: ١١٧] فالمتشابهات كلها في الإخبار عن الكفار بأن عاقبة ظلمهم مقصورة عليهم. وقد زيد الفعل ﴿كَانُوا﴾ في كل الآيات المتشابهة من النمط المذكور إلا آية عمران فإنه عُدل فيها إلى النقص.

وزيادة الفعل «كان» في مثل هذه المواضع تقتضي وقوع الشيء فيما تقدم من الزمان، والجمع بينه وبين المستقبل ﴿يَظْلِمُونَ﴾ للدلالة على استمرارهم على الظلم وأنه جيلة لهم وطبع؛ لأن «كان» كثيراً ما يستعمل حيث يكون المسند غير منقطع عن المسند إليه، كقوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، والفتح: ٢٦] فالمعنى: ولكن لم يزالوا ظالمي أنفسهم بكثرة ما يصدر عنهم من المخالفات^(٢).

وقد أشار الكرمانى - وتابعه السيوطي - إلى وجه من أوجه مناسبة ذلك العدول مقتصرأ على توجيه آيات البقرة والأعراف وآل عمران، فذهب إلى أن ما في الأوليين إخبار عن قوم ماتوا وانقرضوا^(٣)، يريد أن الأولى - أعني البقرة - في الإخبار عن قدماء بني إسرائيل، لأنه تقدمها قوله تعالى ﴿وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩] إلى أن قال في الآية المقصودة بالتوجيه ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وكذلك الثانية - أعني الأعراف - هي في نفس القصة؛ أي في الإخبار عن قدماء بني إسرائيل، لأنها مفتوحة بقوله تعالى ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنْبِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [الأعراف: ١٦٠] إلى قوله ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، فلما كانت هاتان

(١) انظر: البرهان: ١٢٢ - ١٢٣، وملاك التأويل: ١: ١٦٨، والعقد الجميل: ١٢ - ١٣.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ١: ١٦٨، وأبو حيان، البحر المحيط: ١: ٢١٥، والبقاعي، نظم الدرر: ١: ٣٨٩، و٨: ١٣٤، و١١: ١٥٠ و ٢٧١، والآلوسي، روح المعاني: ١: ٢٦٤، و١٠: ١٣٥.

(٣) انظر: البرهان: ١٢٣، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٥٦.

الآيتان في الإخبار عن هؤلاء الذين ماتوا وانقرضوا ناسبهما زيادة ﴿كَانُوا﴾ لدلالته على الماضي. أما آية آل عمران فذكر الكرمانى أن ما فيها هو مثل^(١)، يريد أن الضمير في قوله ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧] عائد إلى قوم ضرب بهم المثل في الآية، وذلك قوله ﴿قَوْمٍ ظَلَمُوا﴾ [آل عمران: ١١٧] من قوله ﴿كَمَثَل رِيحٍ قِيهَا صِرَّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧]، فلما كان المذكورون هنا قوماً ضرب بهم المثل، وليسوا قوماً معينين ماتوا وانقرضوا كما كان في آيتي البقرة والأعراف، ناسب أن يُعدل فيها إلى نقص ﴿كَانُوا﴾.

وأشار أبو جعفر بن الزبير إلى وجه آخر اقتصر فيه على توجيه آيتي آل عمران والأولى من النحل، فذهب إلى أن ما في النحل وعظ للمعاصرين بالإخبار عن تقدم زمانهم، قال تعالى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣] فالضمير في قوله ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا﴾ عائد إلى من تقدم زمانهم المعبر عنهم بـ ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ﴾، فناسب الإخبار عن هؤلاء زيادة ﴿كَانُوا﴾، لاقتضائه وقوع الشيء فيما تقدم من الزمان. أما آية آل عمران فذكر أبو جعفر أن الإخبار بها عن المعاصرين لرسول الله - ﷺ - الحاضرين عند نزول الآية^(٢) - ونقل السيوطي عن ابن جماعة نحو ذلك^(٣) - والمراد أنه لما كانت الآية إخباراً عن الحاضرين اقتضت المناسبة التعبير بالحال، وهو ما يحققه ﴿يَظْلِمُونَ﴾ منفرداً عن الفعل ﴿كَانُوا﴾، ولذلك عدل إلى نقصه. والظاهر أن الذي جعل أبا جعفر وابن جماعة يذهبان إلى أن الآية للمعاصرين أن الله تعالى أخبر عن الكفار بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٦] ثم قال ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١١٧] أي مثل ما ينفق الكفار المتقدم ذكرهم، فلما كان ﴿يُنْفِقُونَ﴾ للحال دل على أنه أخبر بها عن المعاصرين.

(١) انظر: المصدرين السابقين في الحاشية السابقة، والصفحة نفسها في كليهما.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ١: ١٦٨ - ١٦٩.

(٣) انظر: السيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٥٦.

ولابد من الإشارة إلى أن الخلاف بين الكرمانى وأبى جعفر فى كون آية آل عمران مثلاً أو للمعاصرين مترتب على جواز رجوع الضمير فى قوله تعالى ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧] إلى القوم المضروب بهم المثل فى قوله ﴿كَمَثَلٍ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وإلى ﴿يُنْفِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧] من قوله ﴿مَثَلٌ مَا يَنْفِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧] وهم المعاصرون، فالقولان جائزان عند المفسرين وإن كان أحدهما أرجح من الآخر^(١). ومهما يكن من أمر فإن مناسبة العدول حاصلة على كل حال.

وبقى على الوجهين اللذين كشف عنهما الكرمانى وأبو جعفر آيات مغفلة من التوجيه زيد فيها ﴿كَانُوا﴾، وهى آيات التوبة والنحل الثانية والعنكبوت والروم، وكلها يمكن أن توجه بمثل ما وجَّهها به نظائرها، لأنها لا تختلف عنها فى أنها إخبار عن قوم تقدم زمانهم، فأية التوبة فى الإخبار عن ماضى من الأقوام المكذبة لرسالتها، قال تعالى ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤَفِّكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]. وآية النحل الثانية فى الإخبار عن قدماء اليهود، قال تعالى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨] أى ما ظلمناهم بتحريم ذلك، ولكن ظلموا أنفسهم بالمعاصى فاستحقوا التحريم^(٢). وآية العنكبوت جاءت فذلكة لقصص عدد من الأقوام المكذبين الذين مضوا، قال تعالى بعد ذكر تلك القصص ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. وآية الروم فى دعوة الكفار المعاصرين إلى الاعتبار بمن أهلك قبلهم من الأمم، قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩]. فلما كانت هذه كلها فى الإخبار عن ماضى من الأقوام المكذبة ناسب أن يزداد فيها ﴿كَانُوا﴾ لاقتضائه المضى.

(١) انظر على سبيل المثال: أبو حيان، البحر المحيط: ٣: ٣٨، والآلوسى، روح المعاني: ٤: ٣٧.

(٢) انظر تفسير الآية عند: الأنصارى، عبد الله، تجريد البيان: ١: ٥٩٨.

وأشار البقاعي إلى وجه آخر من أوجه المناسبة، فذكر في أكثر الآيات التي زيد فيها ﴿كَانُوا﴾ أن الزيادة للدلالة على أن ظلمهم أنفسهم جيلة لهم وطبع وأنهم استمروا عليه طول أعمارهم^(١)، فإذا نزلنا هذا على الآيات التي وجهها الكرمانى وأبو جعفر والتي وجهناها استدراكاً عليهما اتضحت المناسبة، لأن كل تلك الآيات كما تبين من سياقها مقصود به الأقوام العريقة في الكفر التي كانت عاقبتها الإهلاك، فناسبها زيادة ﴿كَانُوا﴾ من هذا الوجه، أي لأنها استمرت على الكفر والظلم حتى أهلكت، فكان ذلك جيلة لها وطبعاً. أما آية آل عمران فقال البقاعي في توجيهها: «ولما كان المُمَثِّل لأجلهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ١١٦] أعم من أن يموتوا عليه أو يسلموا لم يعبر في الظلم بما تقتضيه الجيلة من فعل الكون»^(٢) يريد أن الله تعالى أخبر عن الكفار بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُفْنِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١١٦] ثم مثل لهم ما ينفقون بقوله ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [آل عمران: ١١٧] فلما أخبر عنهم على وجه العموم من غير تحديد بأنهم سيموتون على الكفر أو أنهم سيسلمون، اقتضت رعاية التناسب العدول إلى نقص ﴿كَانُوا﴾ لعدم الحاجة إلى الدلالة على أن ظلمهم أنفسهم جيلة لهم وطبع.

ونقل السيوطي عن صاحب المناجاة وجهاً آخر اقتصر فيه على آية آل عمران؛ وهو أن نقص ﴿كَانُوا﴾ مقصود به حصول ما يسمى في البديع العكس والتبديل^(٣) - وهو «أن يقدم في الكلام جزء ثم يؤخر»^(٤) - أي لما قدم ﴿ظَلَمُوا﴾ في قوله ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٧] اقتضت رعاية التناسب العدول إلى نقص ﴿كَانُوا﴾ ليكون قوله ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ عكساً لـ ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، ولم يقع في سياق أي من المشابهات مثل ذلك فناسبها زيادة ﴿كَانُوا﴾.

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١: ٣٨٩، و٨: ١٣٤ و٥٤١، و١١: ١٥٠ و٢٧١.

(٢) السابق: ٥: ٣٧.

(٣) انظر: السيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٥٦.

(٤) الخطيب القزويني، الإيضاح ضمن شروح التلخيص: ٤: ٣١٨، والزرکشي، البرهان: ٣: ٤٦٧.

٣. العدول بزوائد ونواقص الجار والمجرور :

زوائد الجار والمجرور على نوعين؛ إما أن يكون أكثر القصد بها دائراً على المجرور، وإما على الجار، كما سيتضح في توجيه المناسبة، ولذلك رأينا أن نضع أمثلة النوع الأول هنا مع الزوائد اللفظية، وأن نؤخر أمثلة النوع الثاني لنضمها إلى الزوائد الحرفية، على أنه يمكن التمييز بين ما هنا وهناك بأن المجرور هنا اسم صريح وهناك ضمير.

فمن أمثلة العدول بما زيد ونقص من الجار والمجرور قوله تعالى في سورة الحج ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢] وفي سورة السجدة ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾^(١) [السجدة: ٢٠] فالتشابهان في تصوير حال الكفار وهم في النار يوم القيامة، وقد زيد في الأول ﴿مِنْ غَمٍّ﴾، وعُدل في الثاني إلى نقصه.

و«الغم» هنا ليس الحزن، وإنما هو الكرب وما يغطيهم من العذاب فيأخذ بنفسهم حتى لا يجدوا متنفساً؛ كالغمامة، وهي الخرقعة التي تشد على أنف الناقة وعينها^(٢).

وقد كشف الخطيب الإسكافي - وتابعه الكرمانلي - عن وجه من أوجه التناسب التي راعاها العدول هنا، فذكر أن آية الحج وُصف فيها الكفار بقوله تعالى ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَلِّعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١، ١٩] فوصفوا بأن النار اشتملت عليهم اشتمال الثياب وُصب عليهم من فوق رؤوسهم الماء الذي صهر جلودهم وأحشاءهم من حرارته، فلما كان العذاب قد اكتنفهم من كل جانب ناسب زيادة ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ الذي هو التغطية بالعذاب والأخذ بالنفس كالبعير المغموم بالغمامة التي تسد من نفسه فلا يجد فرجة. أما آية السجدة فلم يُذكر فيها من إحاطة العذاب بهم واشتماله عليهم وسده مخارج أنفاسهم كما ذكر في مشابقتها، قال تعالى

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٠٩، والبرهان: ٢٧٢، وملاك التأويل: ٧١٦: ٢ - ٧١٧، وكشف المعاني: ٢٦١، والعقد الجميل: ١٢٤.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٣١٠، والبرهان: ٢٧٢، والراغب الأصفهاني، المفردات: ٦١٣ - ٦١٤.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، فلما كان الإخبار هنا مقتصرًا على أن مأواهم النار دون ما هناك من الوصف بسد مخارج أنفاسهم لم يُحتج إلى زيادة ﴿مِنْ غَمٍّ﴾، فاقتضت رعاية التناسب العدول إلى نقصه^(١).

وكشف البقاعي عن وجه آخر، فذكر أن سياق آية الحج لخصومة أولياء الله المتقين للكفار - وهو إشارة إلى قوله تعالى ﴿هَٰذَانِ خَصَمَانِ أَحْضَمُوا فِي رِيهٍ فَأَلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ [الحج: ١٩] - فاقتضى هذا السياق تبشيراً للأولياء وإنذاراً للأعداء زيادة ﴿مِنْ غَمٍّ﴾^(٢)، أي أن السياق اقتضى الإخبار بالحال الأبلغ في التخويف، وليس سياق آية السجدة كذلك، وإنما هو للإخبار عن حكمته تعالى التي اقتضت عدم تسويته في الآخرة بين المؤمن والفاسق، قال تعالى ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا * أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ١٨ - ٢٠]، فلما كان السياق لمجرد الإخبار بعدم التسوية لم يُحتج فيه إلى زيادة ﴿مِنْ غَمٍّ﴾، وإنما المناسب له نقصها، ولذلك عدل إلى النقص.

وأبدى أبو جعفر بن الزبير وابن جماعة وجهاً آخر، ذهب فيه إلى أن زيادة ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ لمناسبة التفصيل في حالي العذاب والنعيم فيما اكتنف آية الحج، وهو قوله تعالى ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقَمِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحج: ٢٣-١٩] أي كلما أرادوا أن يخرجوا من غم من الغموم المذكورة، وهي ثياب أهل النار، وصب الحميم، وغير ذلك. أما آية السجدة فأوجز فيها الحالان كما ذكر أبو جعفر وابن جماعة، قال تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٠٩ - ٣١٠، والبرهان: ٢٧٢.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١٣ : ٣٠.

النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿[السجدة: ٢٠١٩] فلما أوجز الكلام هنا ناسبه العدول إلى نقص ﴿مِنْ غَمٍّ﴾^(١)، إذ ليس في السياق ما يقتضيه كالغوم التي فصلت في آية الحج.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّكَ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١٠٩ - ١١١] وفي سورة الشعراء ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾^(٢) [الشعراء: ٣٤ - ٣٦]، فالمتشابهان في قصة واحدة، وقد نقص من الأول ﴿بِسِحْرِهِ﴾، وعُدل إلى زيادته في الثاني.

وقد أبدى الخطيب الإسكافي وأبو جعفر بن الزبير وغيرهما وجهاً من أوجه مناسبة العدول هنا يقوم على أن المحكي في آية الأعراف كلام المَلَأِ، وفي الشعراء كلام فرعون، والمَلَأُ لم يبلغوا مبلغ فرعون في رد ما جاء به موسى عليه السلام، فناسب نقص ﴿بِسِحْرِهِ﴾ في الحكاية عنهم في آية الأعراف، وناسب العدول إلى زيادة ذلك في الحكاية عنه في آية الشعراء ليتبين حاله من حالهم، إذ كان أشدهم تمرداً وأولهم تجبراً وأكثرهم بغضاً وكراهة لما جاء به موسى عليه السلام^(٣).

وذهب الكرمانى مذهباً آخر - وتابعه عليه أبو حيان - فأشار إلى أن المتشابهين هما مما حكي من كلام فرعون، وإنما وقع في سياق آية الأعراف اختصار، فقوله تعالى ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّكَ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩] التقدير فيه: قال المَلَأُ من قوم فرعون وفرعون بعضهم لبعض: إن هذا لساحر، وحذف اسم فرعون لأن قوله ﴿الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٧١٧ - ٧١٨، وكشف المعاني: ٢٦١ - ٢٦٢.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١٦٩، والبرهان: ١٩٦ - ١٩٧، وملاك التأويل: ١: ٤٣٤، وكشف المعاني: ١٨٢، والعقد الجميل: ٨٤.

(٣) انظر: درة التنزيل: ١٦٩، وملاك التأويل: ١: ٤٣٧ - ٤٣٨، وكشف المعاني: ١٨٣، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ١٠٣٨ - ١٠٣٩.

﴿فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: ١٠٩] مشتمل عليه، وهذا كقوله تعالى ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ [الأنفال: ٥٤] أي: وفرعون، ولكنه حذف لاشتغال ﴿آلَ فِرْعَوْنَ﴾ عليه، فأية الأعراف مبنية على الاختصار، والقائل: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠] هو فرعون وحده؛ خاطب بذلك قومه؛ بدليل أنهم أجابوه بلفظ المفرد ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١] وليس في الآية مخاطبون بقوله ﴿يُخْرِجُكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف: ١١٠] غيرهم. والحاصل أنه لما كانت الآية مبنية على الاختصار اقتضت مراعاة التناسب حكاية قوله مختصراً فنقص ﴿يَسْخَرُهُ﴾، ولما لم تكن آية الشعراء كذلك، لأنها بنيت على إسناد القول إليه صراحة، ناسبها العدول إلى زيادة ﴿يَسْخَرُهُ﴾^(١).

تبين الأمثلة السابقة أن العدول عن التشابه بالزوائد والنواقص اللفظية؛ اسماً كانت أو فعلاً أو جاراً ومجروراً، مقصود به مراعاة التناسب المعنوي في المتشابهين على أتم وجه، وأنه لولا العدول لما حصل التناسب، وذلك متأكد بتعدد الأوجه في المثال الواحد، مع القطع بأن ثمة أوجه أخرى يحتاج كشفها إلى مزيد نظر وتدبر، يفتح الله بها على من يشاء.

ب - العدول بالزوائد والنواقص الحرفية للتناسب المعنوي :

ومادة هذا النوع أكثرها في حروف الوصل والتوكيد والجبر، وسنقتصر عليها هنا، وسنتناول الأمثلة على هذا الترتيب.

أ - العدول بزوائد ونواقص حروف الوصل :

الوصل هو عطف بعض الجمل على بعض، وضده الفصل؛ أي ترك العطف^(٢). ويختص بحث الفصل والوصل بالواو دون سواها من أحرف العطف، لما يعرض فيها من إشكال ناشئ من كونها لمطلق الجمع، فيتطلب العطف بها إدراك معنى جامع بين المتعاطفين، أما بقية الأحرف فلا يقع فيها إشكال لأنها تفيد معاني زائدة على معنى الجمع؛

(١) انظر: البرهان: ١٩٦ - ١٩٧، وانظر أيضاً: أبو حيان، البحر المحيط: ٤ : ٣٥٩.

(٢) انظر: الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز: ١٥٦، والعاكوب، د. عيسى، المفصل في علوم البلاغة العربية: ٢٩٧.

تكفي مراعاتها لحسن العطف بلا نظر إلى معنى الجمع، كالترتيب مع التعقيب بالفاء،
وكالترتيب مع التراخي في ثم^(١)، إلا أن هذا لا يمنع من إلحاق غير الواو بها إذا كانت
الدراسة تطبيقية، وقد فعلوا نحو ذلك^(٢).

وللجملة أحوال عند أهل البيان، فهي إما أن تكون كالصفة أو التأكيد أو البيان للتي
قبلها فتُفصل، نحو ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] من قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾
[البقرة: ٢]، وإما أن تغاير التي قبلها وليس بينهما ارتباط فتفصل أيضاً، نحو ﴿إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦] من قوله تعالى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ * إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٥ - ٦]، وإما أن تغاير التي قبلها
ويكون بينهما ترابط فتوصل بها، نحو ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] من قوله تعالى
﴿وَأُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، وإما أن تكون بتقدير استئناف
فتفصل، نحو قوله ﴿قَالُوا يَتَّبِعُنَا﴾ [يوسف: ١٧] من قوله ﴿وَجَاءَ آبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ * قَالُوا
يَتَّبِعُنَا﴾ [يوسف: ١٦ - ١٧] أي كأن سائلاً سأل فماذا قالوا؟ فجاء الجواب: قالوا يا أبانا^(٣).

والعلم بوضع الفصل والوصل موضعهما من أغمض علوم البلاغة وأدقها وأصعبها كما
ذكر عبد القاهر الجرجاني، ولا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخُلص كما ذكر،
ولهذا جعله بعضهم البلاغة نفسها؛ إذ سئل عن حد البلاغة فقال: معرفة الفصل والوصل^(٤).
فلا عجب بعد هذا أن يُعد وضعهما موضعهما في القرآن من ضروب إعجازه كما أشار عبد
القاهر^(٥). وإذا كان القرآن يراعي وضع كل منهما موضعه فلا شك أنه يعدل عن التشابه
لذلك، أي ليكون كل من المتشابهين واقعاً موقعه المناسب له، الذي لا يصلح فيه سواه.

(١) انظر: الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز: ١٥٧، والعاكوب، د. عيسى، المفصل في علوم
البلاغة العربية: ٢٩٨.

(٢) انظر على سبيل المثال: الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز: ١٧١.

(٣) انظر: الزركشي، البرهان: ٤: ١٠٤ حتى ١٠٧، وانظر تفصيل ذلك عند الجرجاني، عبد القاهر،
دلائل الإعجاز: ١٥٩ حتى ١٧١، وعند العاكوب، د. عيسى، المفصل في علوم البلاغة العربية: ٢٩٩
حتى ٣٠٧.

(٤) انظر: الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز: ١٥٦ و ١٦٣.

(٥) انظر: السابق: ٤٨.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩] وفي سورة إبراهيم ﴿إِذْ أَجْنَحَكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ^(١) [إبراهيم: ٦] فالمتشابهان من قبيل القصة الواحدة، لأن الأول خطاب من الله تعالى لبني إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ ^(٢) - والثاني حكاية قول موسى عليه السلام لقدماء بني إسرائيل، لأن صدر الآية ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَجْنَحَكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [إبراهيم: ٦]، وكلا المتشابهين في تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم، وقد وقع في الأول ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ﴾ من غير عطف، وعُدل في الثاني إلى زيادة الواو ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ﴾ مراعاة للمناسبة المعنوية.

والفرق بين المتشابهين أنه حيث فصلت الجملتان كانتا كشيء واحد - وهي كأولى أحوال الجملة التي ذكرناها عن قريب - أي كانت جملة «يذبحون» تفسيراً لجملة «يسومونكم» كما تقول: أتاني القومُ زيدٌ وعمرو؛ فلا تعطف لأنك أردت تفسير القوم بهما، وثمة أقوال أخرى في إعراب جملة «يذبحون» كالبيان والبدل والاستئناف وغير ذلك، كلها راجعة إلى أن الجملتين كشيء واحد. وحيث وُصلت الجملتان فللدلالة على التغاير، لأن العطف يقتضي المغايرة والتباين إذا وجد الترابط؛ كما قدمنا في ثالث أحوال الجملة التي ذكرناها قريباً، وبهذا يكون قوله ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ عبارة عن ضروب من المكروه مغايرة لذبح الأبناء، فكأن التذبيح جنس آخر لأنه زائد على جنس العذاب، أو يكون العطف من باب عطف الخاص على العام اعتناءً بالخاص، كقوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ﴾ [البقرة: ٩٨]، ثم عطف عليه ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨] اعتناءً بهما وإعلاماً بمكانهما في الملائكة مع أن قوله ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾ مشتمل عليهما، فكذلك قوله ﴿يَسُومُونَكُمْ

(١) انظر: درة التنزيل: ١٣، والبرهان: ١٢٢، وملاك التأويل: ١: ٥٣، وكشف المعاني: ٩٥، والعقد الجميل: ١٠.

(٢) انظر: الأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ١: ٢٩ - ٣٠.

سَوْءَ الْعَذَابِ وَيُذِخُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴿﴾ هنا يحتمل عطف التذبيح - إن عُذَّ من جنس العذاب - على ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ﴾ تعريفاً بمكانه لكونه أشد أنواعه، وبالجملة فلا بد من حمل المتعاطفين على التغاير، لأنه لولا إرادته لما وُصلت الجملتان^(١).

وقد ذكروا للمناسبة أوجهاً، الأول ذكره الكرمانى وتابعه عليه جماعة؛ وهو أن آية البقرة وقعت فيها المنة من الله تعالى، وهو قوله ﴿وَإِذْ بَخَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩] فلم يُرد تعداد المحن عليهم، فناسب فصل الجملتين لتكونا كالشيء الواحد، وزاد السيوطي أن ذلك لما فيه من التكرم في الخطاب بعدم تعديد المحن عليهم، لأن الملك كل الأشياء عنده حقير، وكثيرها عنده قليل، وإنما يستعظم الأشياء من لا قدرة له، فمئة الدينار عند الغني لا قدر لها، وهي عند الفقير مال معتبر. أما آية إبراهيم فالمنة فيها من موسى عليه السلام - وهو قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَعْجَبَكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [إبراهيم: ٦] وكان مأموراً بما يقتضي تعديد أنواع المحن عليهم، وهو التذكير بأيام الله؛ أي أوقات عقوباته وابتلائه في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] فناسب ذلك العدول إلى الوصل أي العطف بالواو لاقتضائه المغايرة ودلالته على المبالغة في تعديد أنواع امتحانهم لتكثر المنة فيه^(٢).

والثاني ما رآه البقاعي - وقد اقتصر فيه على آية إبراهيم - من أنه لما كان السياق فيها للصبر البليغ - وهو قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

(١) انظر: الفراء، معاني القرآن: ٢: ٦٨ - ٦٩، ودرة التنزيل: ١٣، والزمخشري، الكشاف: ١: ٢٧٩، و٢: ٣٦٨، والفخر الرازي، التفسير الكبير: ٣: ٦٨، و١٩: ٨٥، وابن الزمكاني، المجيد في إعجاز القرآن المجيد: ١٤٤، وملاك التأويل: ١: ٥٧، وكشف المعاني: ٩٥، وأبو حيان، البحر المحيط: ١: ١٩٤، و٥: ٤٠٦، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٥٠، ومعتزك الأقران: ٣: ٣١١، والآلوسي، روح المعاني: ١: ٢٥٣ - ٢٥٤، و١٣: ١٨٩ - ١٩٠، وغير ذلك.

(٢) انظر: البرهان: ١٢٢، والفخر الرازي، التفسير الكبير: ٣: ٦٨، وابن الزمكاني، المجيد في إعجاز القرآن: ١٤٤، وكشف المعاني: ٩٦، والزرکشي، البرهان: ١: ١١٦ و١٢٠، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٥٠، ومعتزك الأقران: ١: ٦٧ - ٦٨، و٣: ٣١١، والإتقان: ٢: ٩٩٧، والآلوسي، روح المعاني: ١: ٢٥٤.

[إبراهيم: ٥٠] - كان المناسب العطف^(١). يريد: أن الصبر البليغ يناسبه تكثير المحن والابتلاءات، والتكثير يحصل بالعطف، فلذلك عدل إليه. ولا يختلف هذا الوجه عن سابقه إلا في النظر إلى السياق.

والثالث ما زاده ابن جماعة على ما سبق من أن سياق آية البقرة وقع فيه تعداد للنعم، نحو قوله تعالى فيما تلا الآية ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْنَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠] ثم قوله ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥١: ٥٢] وغير ذلك من النعم الكثيرة، فأغنى هذا التعداد عن العطف، فاكْتَفَى بِإِبْدَالِ ﴿يُذَيِّحُونَ﴾ مِنْ ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سَوَاءَ الْعَذَابِ﴾. أما آية إبراهيم فعُدل القرآن فيها إلى العطف ليحصل نوع من تعداد النعم ليناسب قوله تعالى حكاية عن موسى ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]^(٢).

والرابع مناسبة العدول لما بُنيت عليه سورته، بيّن ذلك أبو جعفر بن الزبير مقتصرًا على آية إبراهيم إذ رأى أن السورة مبنية على الإجمال وتغليظ الوعيد، فكان المناسب العدول إلى العطف بالواو؛ من حيث كان قوله ﴿يَسْؤُمُونَكُمْ سَوَاءَ الْعَذَابِ﴾ [إبراهيم: ٦] مشيرًا إلى جملة ما امتحنوا به من فرعون وآله من ضروب العذاب المختلفة، وكان قوله ﴿يُذَيِّحُونَ﴾ مجردًا من تلك الضروب لأنه أشدها امتحانًا، ومخصوصًا بالذكر للتعريف بمكانه وشدة الأمر فيه، فهو مما أجمل أولاً وشمله الكلام المتقدم، ولكنه عطف عليه عطف الخاص على العام ليناسب بما يدل عليه من الشدة وبما يشير إليه من تجريده من المجمل ليناسب ما بُنيت عليه السورة من تغليظ الوعيد والإجمال^(٣).

والخامس ما بينه الخطيب الإسكافي من المناسبة الصناعية، إذ رأى أن آية البقرة وقعت في سياق إخبار الله تعالى عن نفسه بإنجاء بني إسرائيل، وهو قوله تعالى ﴿وَإِذْ بَخَّيْنَاكُمْ مِنْ

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١٠ : ٣٨٤.

(٢) انظر: كشف المعاني: ٩٦.

(٣) انظر: ملاك التأويل: ١ : ٥٦ - ٥٧.

عَالٍ فِرْعَوْنَ ﴿البقرة: ٤٩﴾، فالجملة خبرية، وقد تقدمها - كما بين السيوطي في توضيحه مراد الخطيب - جملة طلبية، وهي قوله تعالى ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧] والخبر لا يُعطف على الطلب على المشهور عند النحويين، فناسب ترك العطف. أما آية إبراهيم فوقعت في سياق خبر معطوف على خبر آخر كما أشار الخطيب وبين مراده السيوطي، وهو قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَنَّهُمْ إِلَهُ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] ثم عطف عليه ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦] فتضمن الإخبار عن إرسال موسى بالآيات الإخبار عن تنبيهه لقومه على نعمة الله ودعائهم إلى شكرها، فقوي معنى العطف في ﴿وَيَذِخْرُكَ﴾ لوقوعه في خبر تنبيه موسى المعطوف على خبر إرساله؛ لأن الخبر يعطف على الخبر^(١)، ولذلك عدل القرآن إلى وصل الجملتين بعطف إحداها على الأخرى.

ويحتمل أن يكون العدول لوجه آخر من المناسبة، وهو أن آية البقرة لما سقت تذكيراً لبني إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ بما أنعم الله عليهم كان نقص الواو أنسب شيء، ليُجعل سوم العذاب كأنه منحصر في تذييع الأبناء بمقتضى دلالة البدل، فيقع التذكير بنعمة التنجية على التذييع خاصة، وهو المناسب لتذكير المعاصرين، لأن هذه التنجية هي أجل نعمة عليهم وهي أخص ما يخصهم، فلولاها لانقرض نسل بني إسرائيل وما كان أحد من أولئك، وهي وحدها التي تلابسهم وقت الخطاب والتذكير دون التنجية من ضروب العذاب الأخرى التي عذبها آبائهم. أما آية إبراهيم فسيقى إخباراً عن تذكير موسى لقدماء بني إسرائيل بنعم الله عليهم، وهؤلاء معاصرون لفرعون، وهم الذين عانوا منه ضرراً شديداً من العذاب، فكان أنسب شيء في تذكيرهم العدول إلى زيادة الواو لاقتضائها المغايرة وإفادتها التعدد، فيحصل بمقتضى زيادتها تذكيرهم بالإنجاء من ضروب العذاب المختلفة. ومن أمثلة التشابه المعدول عنه زيادة حرف الوصل قوله تعالى في قصة صالح من سورة الشعراء ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤] وفي

(١) انظر: درة التنزيل: ١٣ - ١٤، والسيوطي، معترك الأقران: ٣: ٣١١.

قصة شعيب من السورة نفسها ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(١) [الشعراء: ١٨٥-١٨٦] كلا المتشابهين في سورة الشعراء، وفي كليهما يحكي الله تعالى عن القوم المكذبين أنهم أنكروا نبوة نبيهم بدعوى أنه بشر وأنه من المسحَّرين؛ أي من الأناسي المخلوقين، لأن المسحَّر هو من له رثة، أو المعلل بالطعام والشراب، أو من سُحر كثيراً حتى فسد عقله^(٢)، أقوال؛ كلها راجع إلى الكناية عن أنه من الناس. ومع تشابه ما حكي عن القوم المكذبين من إنكار النبوة وقع المحكي عن قوم صالح بلا عطف، وعُدل في المحكي عن قوم شعيب إلى العطف بزيادة الواو.

وقد بيّن الزمخشري الفارق بين العطف وتركه في هذين المتشابهين فقال: «إذا أُدخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم؛ التسخير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً ولا يجوز أن يكون بشراً، وإذا تركت الواو فلم يُقصد إلا معنى واحد؛ وهو كونه مسحراً ثم قُرر بكونه بشراً مثلهم»^(٣) فإدخال الواو كما قال أبو السعود وغيره للمبالغة في التكذيب، أما تركها فلتأكيد الجملة الأولى^(٤).

ونبه الخطيب الإسكافي وغيره على مناسبة العدول بما ذكره من أن قوم صالح لم يبالغوا في تكذيبه كما بالغ في تكذيب شعيب قومه، لأن الأولين لم ينفوا نبوة نبيهم وإنما طلبوا منه أن يأتيهم بآية تدل على صحة نبوته فيما حكى الله عنهم من قولهم ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ [الشعراء: ١٥٤] ولهم أن يطلبوا ذلك، فناسب ترك العطف لما فيه من جعل الجملتين بمعنى واحد مؤكداً لصفة البشرية التي يشاركون فيها نبيهم، والتي أرادوا بها عدم وجوب الفضيلة له، لا منافاتها لنبوته. أما قوم شعيب فبالغوا في تكذيبه ونفوا عنه النبوة كما يدل عليه قولهم لنبيهم فيما حكى الله عنهم ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦] وبلغ من تكذيبهم له أن اقترحوا عليه إنزال العذاب بأن يُسقط عليهم كِسْفاً؛ أي قطعاً، من

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٣٢، والبرهان: ٢٨٥، وملاك التأويل: ٢: ٧٤٩، وكشف المعاني: ٢٨١، والعقد الجميل: ١٢٩.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٣٣٣ - ٣٣٤، ووقع في الأصل وروية بدل ورثة، قارن بروح المعاني للآلوسي: ١٩: ١١٣.

(٣) الزمخشري، الكشف: ٣: ١٢٧.

(٤) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: ٤: ١٧٥ و ١٧٧، والآلوسي، روح المعاني: ١٩: ١١٩.

السماء فيما حكى الله عنهم من قولهم لنبيهم ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِّنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] فناسب مبالغتهم في التكذيب العدول إلى وصل الجملتين بزيادة الواو، لما في ذلك من الدلالة على المغايرة، وعلى أن كل جملة هي صفة مستقلة في منافاة النبوة^(١).

ونبه الكرمانى على وجه آخر فقال: «وُخِصَّتْ الْأُولَى بِالْبَدَلِ لِأَن صَالِحاً قَلَّ فِي الْخُطَابِ فَقَلَّلُوا فِي الْجَوَابِ، وَأَكْثَرَ شَعِيبَ فِي الْخُطَابِ فَأَكْثَرُوا فِي الْجَوَابِ»^(٢) ونقل الآلوسى هذا القول عن النيسابورى (ت ٧٢٨ هـ)^(٣) ثم بين مراده قائلاً: «ولعله أراد أن شعيباً عليه السلام بالغ في زجرهم فبالغوا في تكذيبه، ولا كذلك صالح عليه السلام مع قومه»^(٤) أي أن صالحاً عليه السلام وعظ قومه مذكراً إياهم بأن ما هم فيه من النعم لا يدوم، فقال فيما حكى الله عنه ﴿أَجْمِعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنَجُّوتٍ مِّنَ الْجِبَالِ يُّوتَا فَرِهِينَ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٥٢] فليس في هذا الوعظ اتهام بالإفساد، وإنما هو حث على الطاعة وتلطف في النهي عن الركون إلى الدنيا وعن طاعة المفسدين، فناسبه أن يحكى عنهم تقليلهم في تكذيبه بترك العطف. أما شعيب عليه السلام فوعظ قومه بالأمر والنهي فيما حكى الله عنه من قوله ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْسِنَتِكُمْ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٤] ففي وعظه أمر ونهي، واتهام ظاهر بالإفساد، فلما كان هذا أبلغ في الزجر ناسب عند حكاية تكذيب قومه له أن يحكى عنهم مبالغتهم في تكذيبه بوصفهم له بأكثر من صفة، فافتضى ذلك العدول إلى العطف.

(١) انظر: درة التنزيل: ٣٣٣ - ٣٣٤، وكشف المعاني: ٢٨٢، والبقاعي، نظم الدرر: ١٤: ٧٧ و٨٩ - ٩٠، والآلوسى، روح المعاني: ١٩: ١١٩.

(٢) البرهان: ٢٨٥.

(٣) انظر: الآلوسى، روح المعاني: ١٩: ١١٩. وما ذكرناه من سنة وفاة النيسابورى نظام الدين الحسن ابن محمد القمي هو ما أثبتته حاجي خليفة في كشف الظنون: ٢: ١١٩٥، وتابعه عليه إسماعيل باشا البغدادى في هدية العارفين: ١: ٢٨٣، على حين ذكر كحالة في معجم المؤلفين: ١: ٥٨٥: أنه كان حياً سنة ٨٢٨ هـ - ١٤٢٥ م.

(٤) الآلوسى، روح المعاني: ١٩: ١١٩.

ومن أمثلة العدول عن التشابه بزيادة حرف الوصل الفاء ونقصه قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥] وقوله في قصة شعيب حكاية عنه من سورة هود ﴿وَيَقَوَّمُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٩٣] وقوله في سورة الزمر ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(١) [الزمر: ٣٩] فالمتشابهات الثلاثة محمولة على القصتين، لأن ما في الأنعام والزمر أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ أن يخاطب الكفار بذلك المقول، وما في هود حكاية ما قاله شعيب عليه السلام لقومه، والمراد بالثلاثة تهديد الكفار، والمعنى: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والضلال، إني ثابت على العمل بما أمرني به ربي، فسوف تعلمون عاقبتكم السيئة وعاقبتي المحمودة. ومع أن المراد واحد زيد حرف الوصل فاء السببية في آية الأنعام، ثم عدل إلى نقصه في آية هود، ثم عدل إلى زيادته في آية الزمر، وبالجملية زيد في أمر رسولنا ﷺ، وعدل إلى نقصه في قصة شعيب عليه السلام.

وقد بين الزمخشري الفرق - وتابعه جماعة - فقال: «فإن قلت: أي فرق بين إدخال الفاء ونزعها في ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؟ قلت: إدخال الفاء وصل بحرف موضوع للوصل، ونزعها وصل خفي تقديري بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف»^(٢) وبين الألوسي سبب بلاغة الاستئناف فقال: «وما هنا أبلغ في التهويل للإشعار بأن ذلك مما يُسأل عنه ويُعتنى به، والسؤال المقدر يدل ما دلت عليه الفاء مع ما في ذلك من تكثير المعنى بتقليل اللفظ»^(٣).

(١) انظر: درة التنزيل: ١٣٢، والبرهان: ١٧٧، وملاك التأويل: ١: ٣٥٠، وكشف المعاني: ١٦٧، والعقد الجميل: ٧٢.

(٢) الزمخشري، الكشف: ٢: ٢٨٩ - ٢٩٠، وانظر الفخر الرازي، التفسير الكبير: ١٨: ٥١، وابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر: ٢: ٢٢٢، والنسفي، مدارك التنزيل: ٢: ٢٩٠، والطوفي، الإكسير: ١٩٥، وأبو حيان، البحر المحیط: ٥: ٢٥٧، والألوسي، روح المعاني: ١٢: ١٢٧، وغير ذلك.

(٣) الألوسي، روح المعاني: ١٢: ١٢٧.

ومناسبة ذلك العدول من أوجه؛ الأول ما أشار إليه الخطيب الإسكافي ومن تابعه وبينه أبو جعفر بن الزبير من أن آيتي الأنعام والزمر مبنيتين على الأمر بـ ﴿قُلْ﴾؛ وهو أمره تعالى لرسوله ﷺ أن يخاطب الكفار على سبيل الوعيد، فقوي تقدير معنى الشرط المنجرّ تقديره في الأوامر نحو ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، ثم اعتضد ذلك بأمر آخر هو ﴿اعْمَلُوا﴾، فلما كان المعنى على الشرط ناسب زيادة حرف الوصل الفاء في ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لأنه كالجواب، وهو مسبب عن العمل. أما آية هود فلم يقع فيها ﴿قُلْ﴾ لأنها إخبار عما قاله شعيب لقومه، فضعف فيها تقدير الشرط، فناسب العدول إلى نقص الفاء، أو أنه أريد جعل ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ صفة لـ ﴿عَمِلَ﴾ كما ذكر الخطيب الإسكافي والكرمانى، لما في الوصف كما يُفهم كلام الخطيب من المبالغة المناسبة لمبالغة قوم شعيب في التجاهل عليه بقولهم ﴿يَنْشَعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١] فلما نفوا فقههم كلامه أحالهم على عمله، وكأنه يقول لهم: سيحصل لكم العلم مما ترون من عملي لا مما تسمعون من قولي، وهو أنسب ما يكون لمبالغتهم، فلرعي هذا التناسب عُُدل هنا إلى نقص الفاء^(١).

والثاني ما ذكره الطوفي (ت ٧١٦هـ) - وتابعه عليه الزركشي - من أن آيتي الأنعام والزمر هما من أمر الله تعالى لنبيه ﷺ أن يخاطب قومه، فهو كلام مبتدأ مرتبط ببعضه ببعض، لا جواب عن سؤال، ولا يناسب ذلك نقص الفاء. أما آية هود فحكى في سياقها كثرة مراجعة قوم شعيب له، وذلك قوله تعالى ﴿قَالُوا يَنْشَعِبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ﴾ الآية [هود: ٨٧] وقوله ﴿قَالُوا يَنْشَعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١] فناسب ذلك العدول إلى الاستئناف البياني بنقص الفاء لأنه أبلغ في الإنذار والوعيد^(٢). وقريب من هذا ما ذكره الألوسي من أن القوم لما بالغوا في الاستهانة

(١) انظر: درة التنزيل: ١٣٢ - ١٣٣، والبرهان: ١٧٨، وملاك التأويل: ١: ٣٥٠ - ٣٥١، وكشف المعاني: ١٦٧، والسيوطي، قطف الأزهار: ١٢: ٩٤١، ورضا، محمد رشيد، تفسير المنار: ٨: ١٢١.

(٢) انظر: الطوفي، الإكسير: ١٩٥ - ١٩٦، والزركشي، البرهان: ٣: ٢١٩.

بنبيهم عليه السلام، كما يبينه ما حكاه الله عنهم في الآيتين السابقتي الذكر، ناسب في حكاية رده عليهم العدول إلى ما يُفهم المبالغة في التهديد، فكان الموضع لنقص الفاء^(١).

والثالث ما أشار إليه البقاعي من أن العلم بالعاقبة في آية الأنعام المعبر عنه بـ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنِ تَكُونُ لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ﴾ [الأنعام: ١٣٥] مسبوق بسببه؛ وهو قوله تعالى ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام: ١٣٤] لأن وقوع المتوعد به سبب للعلم بالعاقبة، وقد وقع هذا في سياق الإخبار عن غرور الكافرين وقلة تفتنهم - وهو قوله تعالى ﴿وَعَرَّضَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] - فناسب زيادة فاء السببية، لأنها لو نقصت لكان الكلام على تقدير سؤال ناشئ في نفوسهم، وهو بخلاف حالهم من قلة التفتن. أما آية هود فلما كان المذكور فيها من استمرارهم على ما هم عليه سبباً لإتيان العذاب المتوعد به - وهو قوله ﴿وَيَقَوْمٍ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَائِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنِ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [هود: ٩٣] - وكان إتيان العذاب المتوعد به سبباً للعلم بمن يخزي، ولم يُعلم أي هذين الأمرين يراد ذكره إثر هذا التهديد، لم يناسب زيادة الفاء لاقتضاءها الترتيب؛ وهو غير واضح هنا، فناسب العدول إلى نقصها^(٢). بيد أنه يعكر على هذا مساواة آية الزمر لهود في مفعول ﴿تَعْلَمُونَ﴾ مع عدم نقص الفاء منها، فأية الزمر ﴿إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَنِ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [الزمر: ٤٠: ٣٩]. ولعل البقاعي تفتن إلى هذا، ولذلك أتبع الوجه السابق بوجه آخر رأى أنه أحسن منه؛ وهو أن قوم شعيب لما تجاهلوا عليه بقولهم له فيما أخبر الله عنهم ﴿يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ﴾ [هود: ٩١] أخرج كلامه على تقدير سؤال ناشئ ممن هو منصب الفكر كله إلى كلامه، وكأنهم قالوا: ماذا يكون إذا عملنا نحن وعملت أنت؟^(٣) والظاهر أن مراد البقاعي أن القوم لما أخبروا بنبيهم عليه السلام بعدم فقههم قوله، دل على أنه وقع منهم تفكير ولو قليلاً، فناسب الاستئناف على تقدير سؤال لأن حالهم حال من يتساءل، ولذلك كان العدول إلى نقص الفاء أنسب.

(١) انظر: الآلوسي، روح المعاني: ١٢: ١٢٧.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ٩: ٣٦٥.

(٣) انظر: السابق، والصفحة نفسها.

ويمكن التماس وجه آخر للمناسبة فيما أجمله البقاعي من فرق بين المتشابهات الثلاثة في قوله: «وقد ظهر الفرق بين كلام الله العالم بالأسباب وما يتصل بها من المسببات المأمور بها أشرف خلقه - ﷺ - في سورة الأنعام والزمزم، والكلام المحكي عن نبيه شعيب عليه السلام في هذه السورة»^(١) فالوجه أنه لما كان تعالى عالماً بالأسباب والمسببات، وكانت آيتا الأنعام والزمزم في أمره لنبيه ﷺ، ناسب زيادة فاء السببية، ولما كانت آية هود من قول شعيب عليه السلام نفسه لا من أمر الله له ناسب العدول إلى نقص الفاء، مع ما في الزيادة والنقص من الإشارة إلى تشريف نبينا ﷺ بإعلامه بالأسباب والمسببات.

وثمة وجه آخر يشير به صاحبه إلى مناسبة ترتيب المصحف، نقله الألوسي عن بعض أجلة الفضلاء، قال: «لأن أول الذكرين يقتضي التصريح فيناسب في الثاني خلافه»^(٢) أي أن آية الأنعام السابقة في ترتيب المصحف تقتضي التصريح بالسببية فناسب زيادة الفاء، وآية هود التالية في الترتيب يناسبها خلافه ولذلك عدل فيها إلى نقص الفاء، وهو وجه غير وجيه كما قدمنا غير مرة، لمعارضة آية الزمر له، ولبقائها - وهي ثالثة في الترتيب - خارج إطاره، كما بينا نحو هذا في منهج التوجيه.

٢ - العدول بزوائد ونواقص حروف التأكيد :

نريد بهذه الحروف كل ما يستفاد منه معنى التوكيد، ولذلك سنجمع هنا بين الأحرف التي تأتي للتأكيد مطلقاً كلام القسم والابتداء، وبين الأحرف التي هي عند النحاة زوائد في الكلام كـ «ما» الواقعة بعد «إذا» لأن الغرض بزيادتها التأكيد، وبين الأحرف التي يدل تكرارها على التأكيد نحو «لا» في قوله تعالى ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٥] والباء في قوله ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦]، على أننا نستحسن في أمثال هذه الباء التي هي في الآية حرف مكرر دال على التأكيد وجارٍ في الوقت نفسه أن نضعها مع حروف التأكيد إذا كان الميل إليه في التوجيه أكثر، وإلا فمع حروف الجر.

(١) السابق: ٩: ٣٦٦.

(٢) الألوسي، روح المعاني: ١٢: ١٢٧.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة الزمر ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ [الزمر: ٧١] أي الكفار إذا حضروا النار، وفي آية أخرى من نفس السورة كذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ [الزمر: ٧٣] أي المؤمنون إذا حضروا الجنة، وفي سورة فصلت ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾^(١) [فصلت: ٢٠] أي الكفار إذا حضروا النار، فأخبر عن الكفار في آية الزمر الأولى بنقص «ما»، وعُدل إلى زيادتها في فصلت، وأخبر عن المؤمنين بنقص «ما» أيضاً.

وتزاد «ما» بعد «إذا» للتأكيد، وذلك إذا قصد تحقيق الجزاء لبعده عن معنى الشرط، أما إذا كان الجزاء قريباً فلا حاجة لزيادتها، هذا ما ذكره الخطيب الإسكافي وتابعه عليه ابن جماعة^(٢). وذكر الزمخشري أن زيادتها تؤكد اتصال الجواب بالشرط؛ أي تؤكد وقوعهما في زمان واحد، نحو قوله تعالى ﴿أَنُفِرَ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِ﴾ [يونس: ٥١] أي لا بد من أن يكون وقت وقوعه هو وقت إيمانهم به، فمعنى التأكيد في آية فصلت ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ [فصلت: ٢٠] أن وقت مجيء الكفار النار لا بد أن يكون وقت الشهادة عليهم، ولا وجه لخلوه منها^(٣). والأرجح في الآية ما قاله الخطيب الإسكافي كما سيتأكد بالمناسبة، فالأحسن جعل التأكيد في كل شيء بحسبه، فتارة يكون لتحقيق الجزاء لبعده عن الشرط كما في هذه الآية، وتارة يكون لتأكيد اتصال الجواب بالشرط كما في الآية التي مثل بها الزمخشري.

وقد صارت مناسبة العدول بالنظر إلى ذلك الفرق بينة، وبيانها كما أشار الخطيب الإسكافي وتابعه ابن جماعة أن أولى آيتي الزمر وقع فيها الجزاء قريباً من معنى الشرط؛ أي لا يستبعد العقل وقوعه، وهو فتح الأبواب وقت مجيئهم في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١] لأن المجيء يقتضي فتح الأبواب، فناسب عدم زيادة «ما» فيها. أما الثانية وهي قوله في أهل الجنة ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] فالجزء فيها

(١) انظر: درة التنزيل: ٤١٧، والبرهان: ٣٢٧، وملاك التأويل: ٢: ٨٤٢، وكشف المعاني: ٣٢٧.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٤١٨، وكشف المعاني: ٣٢٨.

(٣) انظر: الزمخشري، الكشاف: ٣: ٤٥٠.

محذوف على قول؛ والتقدير: نالوا المني وأدركوا المطلوب، والحذف ينافي التوكيد، فناسب عدم زيادة «ما» المؤكدة. أما آية فصلت فالجزء فيها معنى لا يقتضيه الشرط ولا يفهم منه، لعدم ارتباطه به وكونه مستبعداً في العقل؛ وهو شهادة السمع وسائر الجوارح في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠] فناسبه العدول إلى زيادة «ما» تحقيقاً وتوكيداً^(١).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة التوبة ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ [التوبة: ٥٥] ثم قوله في السورة نفسها ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾^(٢) [التوبة: ٨٥]، فالمتشابهان في النهي عن الإعجاب بما أوتي المنافقون من مال وولد، لأن ذلك امتحان لهم واستدراج، وقد زيدت ﴿لَا﴾ في الآية الأولى، وعُدل إلى نقصها في الثانية مع وحدة الموضوع والمطلوب.

والفرق أن زيادة «لا» أبلغ وأكد، لأنها تدل في مثل هذا الموضع على النهي عن الإعجاب بكل من الأموال والأولاد على انفراده، أما إذا نقصت فالنهي عن الإعجاب بهما مجتمعين^(٣).

ومناسبة ذلك كما ذكر الخطيب الإسكافي وغيره أن الآية الأولى وقع في سياقها كلام مؤكد غاية التأكيد بالحصر، أي بالإيجاب بعد النفي في قوله تعالى ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] ثم كانت الآية متعلقة بسابقتها تعلق الجزاء بشرطه، لأن الفاء في ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾ متضمنة معنى الجزاء، والفعل الذي قبلها مستقبل متضمن معنى الشرط، وهو قوله ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] والتقدير: إن يكن منهم ذلك فينبغي أن تنتهي عن الإعجاب، فلما وقعت الآية في هذا

(١) انظر: درة التنزيل: ٤١٨، وكشف المعاني: ٣٢٨.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١٩٨، والبرهان: ٢٠٨، وملاك التأويل: ١: ٤٦٧، وكشف المعاني: ١٩٦، والعقد الجميل: ٩٠.

(٣) انظر: أبو حيان البحر المحيط ٥: ٨٢، والآلوسي، روح المعاني: ١٠: ١٥٦.

السياق المؤكد غاية التأكيد، وكانت متعلقة بسابقتها تعلق الجزاء بشرطه، اقتضت من التأكيد ما اقتضته سابقتها كما ذكر الخطيب الإسكافي وغيره. وذهب أبو جعفر إلى أن ذلك لأنه ذكر في سياقها من مرتكبات المنافقين أشنعها، فناسب تأكيد نهيه ﷺ عن أن يلتفت إليهم. أما الآية الثانية فلم تسبق بتأكيد كمشابهتها، ولا وقع في سياقها ما يفهم معنى الشرط، فالآية المتقدمة عليها قوله تعالى ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤] ف ﴿كَفَرُوا﴾ و ﴿مَاتُوا﴾ ماضيان لا يتضمنان معنى الشرط، فلما خلا السياق من التأكيد ناسبه العدول إلى نقص ﴿لَا﴾^(١).

وذكر بعض المفسرين المحدثين وجهاً آخر؛ وهو أن المقام في الآية الأولى لزم أموالهم لعدم انتفاعهم بها؛ يشير إلى قوله تعالى ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَسِيقِينَ وَمَا مَنَعُهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ الآية [التوبة: ٥٣، ٥٤] فلما كان المقام لزم أموالهم كان ذكر الأولاد تكملة واستطراداً للزيادة في بيان عدم انتفاعهم بكل ما هو مظنة للانتفاع، فكان شبيهاً بالأمر المستقل، والمناسب لهذا أن تزداد معه ﴿لَا﴾. أما الآية المشابهة فمقامها بخلاف ذلك، لأنه لم يذكر فيها إنفاق، فكان المقصود تحقير أموالهم وأولادهم معاً في نظر المسلمين، فناسبها العدول إلى نقص ﴿لَا﴾^(٢).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٤٠] وكرر هذا بعد بضع آيات في السورة نفسها ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٤٧] وقال في سورة يونس ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾^(٣) [يونس: ٥٠] فالمتشابهات الثلاث في تهديد الكافرين، والمعنى: أخبروني إن جاءكم عذاب الله فماذا...؟ والسؤال تحدده تنمة التشابهات. وقد عبر القرآن بـ ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ بزيادة الكاف في آتي الأنعام، وعدل إلى نقصها في آية يونس.

(١) انظر: درة التنزيل: ١٩٩، والبرهان: ٢٠٨، وملاك التأويل: ١: ٤٦٨ - ٤٦٩، وكشف المعاني: ٩٧، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ١١٥٦.

(٢) انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير: ١٠: ٢٨٧.

(٣) انظر: درة التنزيل: ١١٨، والبرهان: ١٧٠، وملاك التأويل: ١: ٣٢٢ - ٣٢٣، وكشف المعاني: ١٦١، والعقد الجميل: ٦٦.

والكاف هنا حرف خطاب يؤتى به بعد ضمير المخاطب لتأكيد التنبيه والمبالغة فيه بإعلام المخاطب أن لا تنبيه بعده، أو للدلالة على استحكام غفلته كما يُنبه النائم باليد والشديد الغفلة باليد واللسان^(١).

ومناسبة ذلك أن المخوف به في آيتي الأنعام بلغ الغاية - وهو إتيان العذاب وقيام الساعة في قوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ [الأنعام: ٤٠]، وإتيانه مفاجأة من حيث لا يُعلم أو مُعَايَنَة من حيث يُشاهد في قوله في الآية الثانية ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ [الأنعام: ٤٧] - فناسب هذه المبالغة في التخويف زيادة الكاف لدلالاتها على تأكيد التنبيه وبلوغ الغاية فيه. أما آية يونس فلم يكن فيها تلك المبالغة، لأنهم لما استعجلوا العذاب كما حُكي عنهم في قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨] ثم في قوله ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠] نزلوا منزلة من لا يخافونه، فكانت حالهم هذه أحوج إلى الرجز، فلم يناسب المبالغة في تنبيههم، ولذلك عُدل إلى نقص الكاف، وأبقيت التاء وحدها لكفايتها في مناسبة خطاب الزجر. هذا وجه من المناسبة نبه عليه الخطيب الإسكافي وتابعه عليه الكرمانى وابن جماعة ملخصين كلامه^(٢).

ونبه أبو جعفر بن الزبير على وجه آخر؛ وهو أن آية الأنعام الأولى مسبوقة بوصف الكفار بقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُوتٌ وَبِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩] والمناسب لتذكير هؤلاء توكيد التنبيه، لاستحكام غفلتهم وإعراضهم، فزيدت الكاف لإفادتها ذلك التوكيد، ثم تتالى تذكيرهم إلى أن قال تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَبَصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦] فذكروا بأخذ السمع والأبصار، وهو أمر مشاهد في كثير من الخلق، فناسب نقص الكاف لعدم الحاجة إلى التأكيد، ثم تلا ذلك الآية الثانية من الأنعام ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ [الأنعام: ٤٧] فلما ذكروا بكل ما تقدم ولم يتعظوا ناسب زيادة الكاف الخطابية في هذه الآية الأخيرة زيادة في تأكيد التنبيه، كما يُقال لمن نُبه

(١) انظر: درة التنزيل: ١١٩، وملاك التأويل: ١: ٣٢٤.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١١٩-١٢٠، والبرهان: ١٧١، وكشف المعاني: ١٦١.

فلم ينتفع بالتنبيه والتذكار: كيف رأيت؟ فينبه تنبيه المتمادي على غيه بتكرار حرف الخطاب. أما آية يونس فلم يتقدمها ذكر صم ولا بكم يستوجب تأكيد الخطاب، فناسب العدول إلى نقص الكاف^(١).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُنْقُونَ أَفْلاً تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢] وفي سورة الأعراف ﴿وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُنْقُونَ أَفْلاً تَعْمَلُونَ﴾^(٢) [الأعراف: ١٦٩] فالمتشابهان في تقرير خيرية الآخرة لمن اتقى الله وترك معاصيه، وقد زيد في الأول اللام، وعُدل عنه إلى النقصان في الثاني.

واللام هنا لام جواب القسم، فهي بدلالتها على القسم المقدر تفيد التوكيد.

وقد أبدى أبو جعفر بن الزبير الوجه المناسب للعدول هنا، فبين أن زيادة اللام في آية الأنعام لمناسبة التأكيد الواقع في سياقها، ولما خلا سياق آية الأعراف من ذلك ناسب العدول إلى نقصها، قال أبو جعفر: «آية الأنعام تقدمها قوله تعالى معرفاً بحال الدنيا ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] ومعنى التأكيد في هذا حاصل من جري الكلام وسياقه؛ لأنك إذا قلت: ما المال إلا الإبل، فكأنك نفيت عن غير الإبل أن يكون مالاً، وأثبت ذلك لها إثباتاً مؤكداً وأنها المال حقيقة وكأن ما سواها ليس بمال، وعلى هذا يجري ما دخلته إلا بعد ما النافية من مثل هذا، وهو المعنى الحاصل من لفظ القسم الصريح، فناسب هذا مجيء اللام الموطئة للقسم داخلة على المبتدأ في الآية المعرفة بحال الدار الأخرى في قوله ﴿وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] وكأنه نص قولك: والله للدار الآخرة خير، وتناسب هذا مع ما تقدم قبله من تقدير القسم المؤكد كما تبين. وليس في آية الأعراف ما يقتضي هذا، لأنها (مناطة) بقوله تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ [الأعراف: ١٦٩] ثم قال ﴿وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ١٦٩] على هذا نظم هذا

(١) انظر: ملاك التأويل: ١: ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٢) انظر: البرهان: ١٧٠، وملاك التأويل: ١: ٣١٧، والعقد الجميل: ٦٤.

الكلام، وليس فيه ما يقتضي قسماً فلم تدخله اللام^(١) وهو مسوغ العدول إلى نقصها.

ويحتمل العدول وجهاً آخر من المناسبة، وهو أن آية الأنعام جاءت في سياق الإخبار عن منكري البعث وتقرير خسرانهم في الآخرة وحكاية ندامتهم على تفریطهم في الإعداد لها، قال تعالى ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْصَرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١] فناسب هذا زيادة اللام لتؤكد لهم خيرية الآخرة، فقال تعالى ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢] لأن المناسب لحال المنكر أن يُساق له الخبر مؤكداً. أما آية الأعراف فوقعت في سياق الإخبار عن اليهود أهل الكتاب، قال تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ [الأعراف: ١٦٩] ثم قال ﴿أَلَمْ يُوَخِّذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقَ الْكِتَابِ أَن لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ١٦٩] فلما كان هؤلاء غير منكرين للبعث ولا لخيرية الآخرة بما تقرر عندهم مما درسوه في التوراة، كان المناسب لحالهم أن يساق لهم الخبر خالياً من التأكيد، ولذلك عدل إلى نقص اللام.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَالَّذِينَ إِحْسَانًا وَذَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ [البقرة: ٨٣] وفي سورة النساء ﴿وَالَّذِينَ إِحْسَانًا وَذَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾^(٢) [النساء: ٣٦] فالمتشابهان في الأمر بالإحسان إلى الوالدين والأصناف الأخرى المذكورة في تنمة المتشابهين، بيد أن الأول في حق بني إسرائيل، لأنه حكي عنهم أخذ الميثاق على ذلك؛ وهو قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَالَّذِينَ إِحْسَانًا وَذَى الْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: ٨٣]، والثاني في خطاب أمتنا، لقوله تعالى ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالَّذِينَ إِحْسَانًا وَذَى﴾ [النساء: ٣٦] فما في حق بني إسرائيل بنقص

(١) ملاك التأويل: ١: ٣١٨ - ٣١٩، ووقع في الأصل مُناطَةٌ هكذا بهذا الضبط، وهو خطأ بَيِّن، والصواب: منوطة، لأنه لا يقال: أناط بمعنى علّق، ومعاذ الله من أن يكون الخطأ من أبي جعفر، وإنما النسخة التي اعتمدناها طافحة بالأخطاء المطبعية وبالتصحيفات وبغير ذلك.

(٢) انظر: كشف المعاني: ١٣٧، والعقد الجميل: ١٤.

الباء في ﴿ذِي﴾، وما في خطاب هذه الأمة بزيادتها في ﴿وَبِذِي﴾، وقد أفادت هذه الزيادة التوكيد لأنها تكرير للباء في ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾.

وقد بين ابن جماعة مناسبة هذا العدول بأن آية البقرة سبقت حكاية عما مضى من أخذ ميثاق بني إسرائيل، فناسبها نقص الباء لعدم الحاجة إلى التأكيد. أما آية النساء فهي في سياق ذكر الأقارب وأحكامهم في الموارث والوصايا والصلوات من مفتتح السورة بقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا * وَآتُوا يَتْلُمَ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ١-٢] إلى هذه الآية المتكلم فيها، فناسب ذلك العدول إلى زيادة الباء لأن الإحسان مطلوب كما ذكر ابن جماعة^(١). ولعله أراد: أنه مطلوب الحصول في المستقبل فكان التأكيد أنسب له بالقياس إلى حكاية ما مضى، ولا سيما أن الاعتناء بهذا المطلوب أكثر لأنه في حق هذه الأمة كما قال بعضهم^(٢).

وأشار البقاعي إلى مناسبة العدول لمقصود السورة مقتصرأ على توجيه آية النساء، إذ ذكر أن السورة تقتضي مزيداً من الحث على التعاطف لأنها مبنية على الصلة ولا سيما لذي الرحم، فزيدت الباء مناسبة لذلك^(٣).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وفي سورة لقمان كذلك ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] وفي سورة الشورى ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٤) [الشورى: ٤٣] فالمتشابهات الثلاث في الحث على الصبر وأنه مما يجب أن يعزم عليه، وقد وقعت آية لقمان فقط في قصته، والآيتان الأخريان في الإخبار والوصف، أما العدول فزيادة اللام الواقعة في خبر إن في آية الشورى.

(١) انظر: كشف المعاني: ١٣٧.

(٢) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ٣: ٢٤٤، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٧٠٤، والآلوسي، روح المعاني: ٥: ٢٨.

(٣) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ٥: ٢٧٦ وقارن ب: ٥: ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١.

(٤) انظر: درة التنزيل: ٤٢٧، والبرهان: ٣٢٩، وملاك التأويل: ١: ١٨٣، و٢: ٧٩٠، وكشف المعاني: ٣٣١.

أما مناسبة العدول فأشار إليها الخطيب الإسكافي - وتابعه الكرمانى - مقتصرأ على آيتي لقمان والشورى، وهي أن الصبر في آية لقمان صبر على مكروه ليس بظلم، كمن مات له بعض أعزته ونحو ذلك مما ليس فيه داعية للانتقام، وإنما تعبّدنا الله فيه بالصبر وليس لنا غيره، لأن ظاهر سياق الآية يشير إلى ذلك، قال تعالى حكاية عن لقمان يوصي ابنه ﴿يَبْنِىْ أَقْرِ الصُّلُوَّةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] فهذا لا يحتاج إلى مزيد تأكيد، فناسبه نقص اللام. أما آية الشورى فالصبر فيها على مكروه ينال الإنسان ظلمأ، كمن قُتل بعض أحبته ونحو ذلك مما دل عليه ما وقع في سياق الآية من قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَبُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] فالصبر هنا على جناية الجاني والعفو عنه، لقوله تعالى ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ [الشورى: ٤٣]، والنفس داعية إلى الانتقام، فكان هذا الصبر من أصعب ما يتحمّله الإنسان، فاحتاج إلى مزيد التوكيد في العزم عليه، فناسب العدول إلى زيادة اللام لدلالتها على ذلك^(١).

وأبدى ابن جماعة وجهأ قريبأ من السابق، فذكر أن آية لقمان ذكر فيها الصبر غير مقرون بالغفران في قوله تعالى ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧] ولعله في هذه الآية ليس له أن ينتقم، فناسب نقص اللام لعدم داعية التوكيد. أما آية الشورى فذكر فيها جواز الانتقام - وهو قوله ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَبُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] - وذكر تركه لصفتي الصبر والغفران في قوله ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ [الشورى: ٤٣]، فلما كانت هاتان الصفتان مع القدرة على الانتقام المدلول عليه بجوازه أشد على النفوس منهما مع عدم القدرة، احتاج الكلام إلى مزيد توكيد، فناسب العدول إلى زيادة اللام^(٢). ووضح أن هذا الوجه وسابقه مؤداهما واحد.

وأبدى أبو جعفر بن الزبير وجهين للعدول؛ نظر في الأول إلى السياق القريب، وفي الثاني إلى أبعد منه، فرأى في الأول أن قوله تعالى في آية لقمان ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

(١) انظر: درة التنزيل: ٤٢٧ - ٤٢٨، والبرهان: ٣٣٠.

(٢) انظر: كشف المعاني: ٣٣١.

[لقمان: ١٧] هو إخبار عن وصية لقمان لابنه، ولم يقع فيها ما يستدعي التأكيد كالقسم الواقع في سياق آية الشورى، فناسب نقص اللام هنا. أما آية الشورى فرأى أنه «لما دخلها معنى القسم (و) كانت على تقديمه - إذ اللام في قوله ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ﴾ [الشورى: ٤٣] توطئة له ودالة على تضمين الآية معناه - ناسب ذلك زيادة لام التوكيد في خبر إن»^(١).

ورأى في الثاني أن العدول لمناسبة «اختلاف ما وقع الحض على الصبر عليه في هذه الآيات وأشير إليه بـ﴿ذَلِكَ﴾، فإنه من عزم الأمور»^(٢) ثم فصل هذا مبتدئاً بآية آل عمران، فقال: «أما الأولى فإن قبلها ﴿تَتَّبِعُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَسْمَعْتُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أُشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦] فوقع الإخبار بالابتلاء في الأموال والأنفس وسماع الأذى ممن ذكر، فعرفوا بثلاثة ضروب وأمروا بالصبر عليها، وهي أربعة أشياء باختلاف الشخصين في المسموع منه الأذى، وأعلموا أن الصبر عليها من عزم الأمور. وأما آية لقمان فأشير إليها بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى أربع خصال أمر بها لقمان ابنه، وذلك قوله ﴿يَبْنِ أَقْرَ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧] وأتبع بقوله ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] والأربعة في الآيتين من العدد القليل. وأما آية الشورى فالإشارة فيها إلى اثني عشر مطلوباً من لدن قوله تعالى ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ شَيْءٍ فَلَئِنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٣٦] وهذه إشارة إلى التنزه عن ذلك، ثم قيل: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦] فأشار إلى الإيمان والتوكل والتزام ذلك، ثم قال ﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كِبْرَ الْأَيْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] فهذه التزامات ثلاث، ثم قال ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْوَالُهُمْ شُرَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨] فهذه التزامات أربع، ثم قال ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] فأشار إلى أن هؤلاء لا يظلمون أحداً، وأن أقصى ما يقع منهم الانتصار ممن يظلمهم، وذلك مباح لهم غير قبيح، وقد (قيل) بقوله بعد ﴿وَحَزْرًا وَسَيَةً سَنَهُ مَثَلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ثم عرّف بحال أجل من ذلك وأعلى،

(١) ملاك التأويل: ٢: ٧٩٠ - ٧٩١، وما وضعناه بين قوسين مستدرك على الأصل، وهو الصواب، لأن المحقق ذكر في الحاشية ٩ من ص: ٧٩٠: أنه في كل نسخ المخطوط «وكانت» إلا واحدة.

(٢) ملاك التأويل: ١: ١٨٣

فقال ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] وأعلم مع علوّ هذا الملتمزم أن المنتصر من ظلمه ما عليه من سبيل، وأن السبيل إنما هو على ظالمي الناس والباغين، وبعد هذه الخصال المنيفة على العشر قال تعالى في التزام جميعها ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] ولم يكن في الآيتين قبلها كثرة، فناسبها عدم زيادة اللام. على أن ما خُتمت به آية الشورى من قوله ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] وهي الخصلة الشاهدة بكمال الإيمان للمتصف بها، فلو لم يكن قبل قوله ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] غيرها لكانت بمعناها أعم من الخصال المذكورة في آية آل عمران، إذ تلك الخصال داخلّة تحت هذه الخصلة الجليلة ومن منطوياتها، فناسب ذلك أتم مناسبة^(١). وقد أشار أبو جعفر بقوله «المنتصر من ظلمه ما عليه من سبيل... الناس والباغين» إلى قوله تعالى ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤١: ٤٢].

٣. العدول بزوائد ونواقص حروف الجر:

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة البقرة ﴿فَأَخِيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] وفي سورة العنكبوت ﴿فَأَخِيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ [العنكبوت: ٦٣] وفي سورة الجاثية ﴿فَأَخِيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥]، وقد أغفلوا آية النحل، وهي ﴿فَأَخِيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(٢) [النحل: ٦٥]، فالمتشابهات الأربع في شيء واحد، وهو ما ينزل الله من السماء من الماء الذي يحيي به الأرض، وقد وقع في ثلاث منها ﴿بَعْدِ﴾ بنقص «من» وعدل إلى زيادتها في آية العنكبوت.

و «من» هذه حرف جر لابتداء الغاية، و «بعد» ظرف لعموم الزمان المتأخر، فإذا دخلته «من» حددت بدايته وأزالت توهم إرادة مجازيته، لاحتمال وقوعه على بعض الزمان المتأخر إذا لم تدخله «من»، قال الخطيب الإسكافي: «والظروف إذا حُدّت حُقت، تقول: سرت اليوم، فإن قلت: من أوله إلى آخره، كان الحد تحقيقاً؛ لأنه قد يُطلق لفظ اليوم وإن ذهب

(١) السابق: ١ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٥، وما وضعناه بين قوسين قيل هو في الأصل كذلك، وهو نابٍ في هذا الموضع، فلعله تصحيف فُصل.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٣٥٨، والبرهان: ٢٩٧، وملاك التأويل: ١: ١٠١، وكشف المعاني: ٢٩٢، والعقد الجميل: ٢٥.

ساعة أو ساعتان من أوله وإن بقيت ساعة أو ساعتان من آخره، فإذا وقع الحد زال هذا الوهم، فقلوه ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ [العنكبوت: ٦٣] تحقيقاً لأنه محدود بـ «من»^(١). ولما كان دخول «من» على «بعد» دالاً على ابتداء البعديّة كانت الآية التي زيدت فيها «من» دالة على إحياء الأرض عقب شروع موتها، بخلاف الآيات التي نقصت منها فإنها دالة على حال أخرى؛ هي تراخي إحيائها عن موتها بمدة^(٢).

أما مناسبة العدول إلى زيادة «من» فهي أن آية العنكبوت واقعة في سياق التقرير، لقلوه تعالى ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ [العنكبوت: ٦٣] والتقرير يحتاج إلى تحقيق الكلام، فناسبه العدول إلى الزيادة. ولما كانت مشابهاً هذه الآية خالية من التقرير ناسبها نقص «من»؛ ففي آية البقرة ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل: ٦٥]، وفي آية النحل ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل: ٥]، فسياق هذه الآيات إخبار وليس تقريراً. هذا ما ذكره الخطيب الإسكافي وتابعه عليه الكرمانى^(٣).

ورأى أبو جعفر بن الزبير أن العدول لمناسبة المبالغة والتكثير في قوله تعالى ﴿مَنْ نَزَّلَ﴾ [العنكبوت: ٦٣] فقال: «زيادة من في قوله في العنكبوت ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ [العنكبوت: ٦٣] زيادة بيان وتأکید نوسب به ما تقدم من قوله ﴿مَنْ نَزَّلَ﴾ [العنكبوت: ٦٣] فإن بنية فعل للمبالغة والتكثير، وذلك مما يستجرّ البيان والتأکید فنوسب بينهما. ولما لم يقع في الآيتين الآخرين إلا لفظ ﴿أَنْزَلَ﴾؛ ولا مبالغة فيها ولا تأكيد، ولا انجر في الكلام ما يعطيه، لم يكن فيها ما يستدعي زيادة من ليناسب بها، فلم تقع في الآيتين^(٤) والتوجيه منطبق على آية النحل.

(١) درة التنزيل: ٣٥٨.

(٢) انظر: كشف المعاني: ٢٩٢.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٣٥٩، والبرهان: ٢٩٨.

(٤) ملاك التأويل: ١: ١٠١ - ١٠٢.

وأبدى ابن جماعة وجهاً آخر، فرأى أن آيتي البقرة والجاثية وقعتا في سياق الاستدلال على قدرته تعالى، فناسبه نقص «من» لأنه يدل على أن إحياء الأرض كان بعد طول زمان موتها، وهو أدل على القدرة^(١). أما سياق آية البقرة فقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وأما في سياق آية الجاثية فقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ﴾ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ؕ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ؕ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥٣]. وتوجيه ابن جماعة هذا منطبق على آية النحل أيضاً، لأن سياقها في الاستدلال على القدرة، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسَخِّبُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ [النحل: ٦٦٥] الآيات. أما آية العنكبوت فذكر ابن جماعة أنها وقعت في سياق الإخبار عن عموم رزق الله تعالى لخلقه، فناسبها العدول إلى زيادة «مِنْ» لما في هذه الزيادة من الدلالة على أن إحياء الأرض أعقب شروع موتها^(٢)، قال تعالى ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ [العنكبوت: ٦٣-٦٢] فالسياق لعموم الرزق لا للاستدلال على القدرة كما كان في مشابهاها.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُؤْفِكُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ [النحل: ٧٠] وفي سورة الحج ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤْفِكُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾^(٣) [الحج: ٥] فالمتشابهان في ذكر أطوار خلق الإنسان، وقد عبر القرآن في الأول بنقص «من» في «لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً»، ثم عدل إلى زيادتها في الثاني. ولفظ «بعد» موضوع «لجملة الزمان المتأخر عن الشيء»^(٤) فهو في الآية الأولى دال على استغراق الزمان المتعقب للعلم بلا تحديد ابتداء ولا انتهاء،

(١) انظر: كشف المعاني: ٢٩٢.

(٢) انظر: السابق، والصفحة نفسها.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٢٦٨ - ٢٦٩، والبرهان: ٢٤٦، وملاك التأويل: ١: ٦١١ - ٦١٢، وكشف

المعاني: ٢٢٩ - ٢٣٠، والعقد الجميل: ١١١.

(٤) درة التنزيل: ٢٦٩.

أما في الثانية فيدل على ابتداء الزمان الذي يعقب العلم لزيادة «من» التي هي لا ابتداء الغاية^(١).

وقد أبدى البقاعي وجه التناسب في ذلك، فذكر أن مقصود سورة النحل الدلالة على تمام قدرته تعالى وشمول علمه وتنزهه عن كل شائبة نقص، وسياق الآية كذلك؛ فهو لبيان علمه تعالى وقدرته، بدليل قوله تعالى في ختام الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠] فناسب ذلك نقص «من»^(٢) للدلالة على استغراق الجهل لزمن ما بعد العلم، فيتصل بالموت ولا ينفع فيه دواء، ولا تُجدي معه حيلة، فقال ﴿بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ [النحل: ٧٠] لا يوجد في شيء من ذلك عند إحلاله شفاء ولا يمنعه دواء، فبادروا إلى التفكير والاعتبار قبل حلول أحد هذين، ثم علل ذلك بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ [النحل: ٧٠] أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠] أي بالغ العلم شامل القدرة، فمهما أراد كان، ومهما أراد غيره ولم يردّه هو أحاط به علمه، فسبب له بقدرته ما يمنعه^(٣) أما آية الحج فذكر البقاعي أن سياقها للقدرة على البعث، لقوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْتُمُ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ﴾ الآية [الحج: ٥] قال البقاعي: «ولما كان السياق للقدرة على البعث الذي هو التحويل من حال الجمادية إلى ضده بغاية السرعة، أثبت ﴿مِّنْ﴾ [الحج: ٥] الابتدائية للدلالة على قرب زمن الجهل من زمن العلم، فربما بات الإنسان في غاية الاستحضار لما يعلم والحدق فيه فعاد في صبيحة ليلته أو بعد أيام يسيرة جداً من غير كبير تدريج لا يعلم شيئاً»^(٤) فهذا المقتضي المناسب للعدول.

وكان الخطيب الإسكافي قد أبدى وجهاً مناسباً لذلك العدول ناظراً فيه إلى الإجمال والتفصيل - وتابعه عليه الكرمانى وابن جماعة - وهو أن آية النحل أجمل فيها الكلام على أطوار خلق الإنسان، وهو قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّكُمْ﴾ [النحل: ٧٠] فناسبه نقص

(١) انظر: كشف المعاني: ٢٣٠.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١١: ٢٠٦.

(٣) السابق، والصفحة نفسها.

(٤) السابق: ١٣: ١١.

«من» في قوله ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْأَعْمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠]. أما آية الحج ففُضِّل فيها ما أُجْمِل في مشابقتها تلك، قال تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥] إلى أن قال ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَوِّفُ﴾ [الحج: ٥] فاقتضت مناسبة هذا التفصيل العدول إلى زيادة «من» الابتدائية، ولا سيما أن الأطور المذكورة كلها محددة البداية بحرف الجر «من»^(١).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وفي سورة الأنفال ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا﴾^(٢) [الأنفال: ١٠] فالمتشابهان في قصة بدر، والخطاب لأهلها - ﷺ - الذين نصرهم الله فيها، والضمير في ﴿جَعَلَهُ﴾ يعود على الإمداد بالملائكة في قوله في آل عمران: ﴿يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] وفي قوله في الأنفال ﴿أَفِي مُيْمَدِّكُمْ يَأْلَفُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾^(٣) [الأنفال: ٩] وإمدادهم بالملائكة ليقاتلوا معهم. فالقصة واحدة، وقد عُذِل عن زيادة ﴿لَكُمْ﴾ في آل عمران إلى نقصها في الأنفال.

واللام هنا للاستحقاق كما رأى أبو جعفر بن الزبير، وظاهر كلام البقاعي أنها للاختصاص، وأشار بعض المفسرين المحدثين إلى أنها للتعليل^(٤). وكل ذلك محتمل، لأن الاستحقاق معناها العام الذي لا يفارقها كما ذكر بعضهم^(٥). فالقول بغيره مراعى به معان جزئية يشير إليها السياق، فوجب إبداء مناسبة العدول لكل معنى من هذه المعاني.

أما على القول بالاستحقاق فالمناسبة كما أبداها أبو جعفر بن الزبير أن آية آل عمران تقدمها قوله تعالى ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ [آل عمران: ١٢٥] أي أعداؤكم، فلما اختلط ذكرهم بذكر أعدائهم وضمهما كلام واحد ناسب تجريد البشارة لمن هي منهما وأنها

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٦٩، والبرهان: ٢٤٦، وكشف المعاني: ٢٣٠.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٧٠ - ٧١، والبرهان: ١٥٠، وملاك التأويل: ١: ١٦٩، وكشف المعاني: ١٣٢، والعقد الجميل: ٤٥.

(٣) انظر: الألوسي، روح المعاني: ٤: ٤٦، و٩: ١٧٤.

(٤) انظر: ملاك التأويل: ١: ١٧٠، والبقاعي، نظم الدرر: ٥: ٥٨، و٨: ٢٣٢، وابن عاشور، محمد ابن الطاهر، تفسير التحرير والتنوير: ٩: الكتاب الثاني: ٢٧٦.

(٥) انظر: مانقله عبد القادر البغدادي عن أبي حيان في: شرح أبيات مغني اللبيب: ٤: ٢٨٦-٢٨٧.

لأولياء الله المؤمنين، فريدت لام الجر المقتضية للاستحقاق لتفهم ذلك. أما آية الأنفال فلما لم يتقدمها ذكر لغير المؤمنين لم يُحتج إلى تعيينهم بالضمير كما ذكر أبو جعفر^(١)، وإذا لم يُحتج إلى الضمير فليس ثمة ما يدعو إلى زيادة اللام، فناسب هذا العدول إلى نقصها.

وأما على أن المعنى للاختصاص فالمناسبة كما أشار البقاعي أن آية آل عمران للتذكير بنصر بدر، ولكنها جاءت في سياق الإخبار عن غزوة أحد من لدن قوله تعالى ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] وكان المقتول منهم في هذه الغزوة؛ أي أحد، أكثر من المقتول من الكفار، فناسب زيادة اللام لكيلا يتوهم أن البشرى لضعدهم؛ أي أن زيادة اللام لتخصيص البشرى بهم. أما آية الأنفال فذكر البقاعي أنها في سياق الكلام عن غزوة بدر، وكانت نصره المسلمين فيها ظاهرة جداً، فلم يُحتج إلى تقييد البشرى باللام^(٢)، فناسب إذن العدول إلى نقصها.

والأوجه مما تقدم المناسبة التي أشار إليها بعض المفسرين المحدثين ورتبها على أن اللام للتعليل، وهي أن آية آل عمران وقعت في سياق امتنانه تعالى على المؤمنين وتذكيره إياهم بنعمة النصر حين القلة والضعف - وهو قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣] - فناسب زيادة اللام لما في دلالتها على التعليل من زيادة المنة، لأن المعنى: جعل الله ذلك بشرى لأجلكم. أما آية الأنفال فوقعت في سياق عتاب بعض المؤمنين على كراهية خروجهم إلى قتال بدر أول الأمر - وهو قوله تعالى ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنفال: ٥] - وعتابهم أيضاً على اختيار أن تكون الطائفة التي تلاقيهم من عدوهم غير ذات السلاح - وهو قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] فكان الأنسب لسياق العتاب هذا عدم التصريح بأن البشرى لأجلهم^(٣)، ولذلك عدل إلى نقص اللام التعليلية.

(١) انظر: ملاك التأويل: ١: ١٧٠.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ٥: ٥٨، وقارن بـ ٤٢ وما بعدها، وانظر كذلك: ٨: ٢٣٢.

(٣) انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير: ٩: الكتاب الثاني: ٢٧٦-٢٧٧.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠] وفي سورة هود ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾^(١) [هود: ٣١] فالمتشابهان رد على الكفار الذين اقترحوا الآيات تعتتاً بأن الرسول ليس عنده خزائن رزق الله فيعطيههم منها، ولا يعلم الغيب ليخبرهم بما طلبوا ويأتيهم بما يريدون ليكذبوه، وليس هو ملكاً يأتي بالأفعال الخارقة، وإنما يتبع ما أوحى الله إليه^(٢). والآية الأولى أمر من الله تعالى لنبينا ﷺ أن يقول ذلك، والثانية حكاية ما قاله نوح عليه السلام لقومه، فالمتشابهان جاريان مجرى القصتين المختلفتين، وقد زيدت اللام في الأول، وعُدل إلى نقصها الثاني.

واللام المزيدة هنا هي لام التبليغ كما ذكر بعض المفسرين المحدثين، وهي التي تعدي فعل القول إلى اسم سامعه^(٣).

وقد أبدى أبو جعفر بن الزبير وجهاً من أوجه مناسبة ذلك العدول فرأى أن آية الأنعام مقصود بها التوبيخ والتفريع فناسب زيادة اللام فيها، لأن وقوعها مكررة يفهم ذلك، قال أبو جعفر: «وأما قوله تعالى في آية الأنعام ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠] فوارد طي كلام أمر ﷺ بتبليغه عتاة قريش والعرب توبيخاً لهم وتقريعاً، ف قيل له ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: ٥٠] والمراد قل لهم يا محمد: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الآية: الأنعام: ٥٠]، ولم يؤمر أن يقول هذا لأبي بكر وعمر وخاصة أصحابه، وإنما عنى به من يقول ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَبَشَّى فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٨٧] فمن يصدر عنه هذا وأشباهه مما ينبنى على الإزراء وفساد الظاهر والباطن فهم المقول لهم ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ [الآية: الأنعام: ٥٠] فتكرر فيها قوله ﴿لَكُمْ﴾ تأكيداً يفهم التعنيف ويناسب التوبيخ والتفريع»^(٤) أما آية هود فلم يُقصد فيها التوبيخ، وإنما جاءت في

(١) انظر: البرهان: ١٧٢، وملاك التأويل: ١: ٣٢٧، وكشف المعاني: ١٦١، والعقد الجميل: ٦٦.

(٢) انظر: الزحيلي، د. وهبة، التفسير الوجيز؛ ضمن الموسوعة القرآنية الميسرة: ١٣٤ و ٢٢٦.

(٣) انظر: ابن هشام، مغني اللبيب: ٢٨١، وابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير: ٧: القسم الثاني: ٢٤٠، ووقع فيه: «وهي مفيدة تقوية فعل القول» وصوابه «تعدي» كما يدل سياق كلامه.

(٤) ملاك التأويل: ١: ٣٢٨ - ٣٢٩.

سياق التلطف، فناسبها العدول إلى نقص اللام، قال أبو جعفر: «الوارد في سورة هود إنما هو حكاية قول نوح عليه السلام ملاطفاً ومشفقاً من حال قومه، ألا ترى استفتاح خطابه لهم بقوله ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْتَقِ مِنْ رَبِّي وَأَنَا لِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ﴾ الآية [هود: ٢٨] وقوله ﴿وَيَقْوَرِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ﴾ الآية [هود: ٢٩] وقوله ﴿وَيَقْوَرِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ [هود: ٣٠] إلى قوله ﴿إِنِّي إِذَا لَمَنْ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١]، فتأمل جليل ملاطفته عليه السلام لهم وما يفهم من كلامه من عظيم الإشفاق من حالهم وإرادته ما به نجاتهم من العذاب ومن أخذهم بمرتكباتهم؛ فهذا كله استلطاف في الدعاء لا يناسب تكرار كلمة تُفهم تعنيفاً أو توبيخاً، والتأكيد والتكرار (يفهم) ذلك ويردان حيث يُقصد»^(١).

وليس في توجيه أبي جعفر الذي بناه على زيادة اللام مع الضمير ما يخالف ما اشترطنا هنا من أنا سنتكلم على زوائد ونواقص حروف الجر، لأن اللام قسيم لما يراد بالزيادة والنقص هنا، بل معظم المقصود من العدول يدور عليها في الوجه التالي.

والوجه الآخر من المناسبة المقتضية للعدول هنا ما أشار إليه صاحب المناجاة (ت ٨٣٢هـ) فيما نقله السيوطي، وما أشار إليه البقاعي أيضاً؛ وهو أن ما في آية الأنعام أمر به ﷺ لتصدير الآية بـ ﴿قُلْ﴾ فليس له أن يتصرف فيما أمر به، وما في آية هود ليس كذلك إذ لم يُصرح فيها بأمره تعالى، أي أن نوحاً عليه السلام قال ذلك الكلام من نفسه، فهو من محل تصرفه^(٢). والظاهر من توجيههما أنه لما كان ما في الأنعام أمراً لرسول الله ﷺ أن يبلغه قومه ناسب زيادة اللام التي هي للتبليغ، ولما لم يكن نوح عليه السلام مأموراً بتبليغ ما حُكي عنه - على الظاهر من لفظ الآية - وإنما قاله من نفسه، اقتضت المناسبة العدول إلى نقص تلك اللام.

يتبين مما تقدم أن العدول عن التشابه بالزوائد والنواقص الحرفية وصلاً كانت أو توكيداً أو جراً هو لتحقيق التناسب المعنوي، وأن هذا التناسب متأكد بتعدد الأوجه ومرعي على أتم وجه.

(١) السابق: ١: ٣٢٨، ووقع في الأصل يفهم، وصوابه يفهمان كما هو ظاهر.

(٢) انظر: السيوطي، كطف الأزهار: ٢: ٨٨٢، والبقاعي، نظم الدرر: ٧: ١٢٣-١٢٤.

ج. العدول بالزوائد والنواقص الجمالية للتناسب المعنوي :

أشرنا في موضع سابق إلى أن العدول قد يكون بزيادة جملة أو نقصها وقد يتعداها، ولكننا سنكتفي بالتمثيل لعدول الجملة الواحدة التزاماً بما وعدنا في الفصل الأول من أننا سنقتصر أمثلتنا على العدول القصير.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة المائدة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠] وفي سورة إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾^(١) [إبراهيم: ٦]. فالمتشابهان في قصة واحدة، وقد عدل القرآن عن زيادة جملة ﴿يَنْقُورُ﴾ في المائدة إلى نقصها في إبراهيم.

والخطاب بحرف النداء واسم المنادى يفيد مبالغة في التنبيه على المقصود، وتخصيصاً للمنادى بالقول واعتناء به في الخطاب^(٢).

ومناسبة ذلك كما ذكر الخطيب الإسكافي وأبو جعفر بن الزبير وغيرهما أن المذكر به في آية المائدة نعم جسام هي من أشرف العطايا، قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام ﴿يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] - وما لم يؤته أحداً من العالمين هو المن والسلوى - فلما كانت هذه النعم بالغة مبلغاً لا مزيد عليه ناسبها تنبيههم عليها بأبلغ ألفاظ التنبيه، فزيدت لذلك جملة ﴿يَنْقُورُ﴾، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لما كان تخصيصهم بهذه النعم الجسام دون الناس معروفاً باعتنائهم سبحانه بهم وبتفضيله إياهم على من عاصروهم وتقدمهم، وكانوا متلبسين بها وقت الخطاب، ناسب زيادة الجملة، من حيث كانت تفيد اعتناء موسى عليه السلام بهم وتخصيصهم بالنداء. أما آية إبراهيم فلم تكن النعم المذكورة فيها بمنزلة المذكورة في مشابهتها، قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْحِثُونَ أَسْمَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]

(١) انظر: درة التنزيل: ٩٦، والبرهان: ١٦٢، وملاك التأويل: ١: ٢٥٠ - ٢٥١، وكشف المعاني: ١٤٨، والعقد الجميل: ٥٥.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٩٧، والبرهان: ١٦٢، وكشف المعاني: ١٤٩، وملاك التأويل: ١: ٢٥١.

فالمذكّر به هنا مجرد نعمة الإنجاء من فرعون وعذابه، وهو مما مضى زمانه فلم يكونوا متلبسين به وقت الخطاب، فلم يُحتج فيه إلى مزيد الاعتناء، وليس التنبيه عليه من حيث هو صرفٌ بلاء كالتنبيه على تخويلهم أشرف العطاء، فاقتضت رعاية التناسب العدول إلى نقص جملة ﴿يَقُومُونَ﴾^(١).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥] وفي سورة الشعراء ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾^(٢) [الشعراء: ٥٠] فالمتشابهان في قصة موسى عليه السلام حين انقلب سحرة فرعون عليه وآمنوا بالله وبما جاء به موسى، فهددهم فرعون فردوا عليه بما حكي عنهم في هذين المتشابهين، فالقصة واحدة والموقف واحد والمحكي عنه واحد، ومع ذلك عدل القرآن عن نقص جملة ﴿لَا ضَيْرَ﴾ إلى زيادتها في آية الشعراء.

وقد أبدى أبو جعفر بن الزبير والبقاعي وجهاً من أوجه مناسبة هذا العدول، فذكرا أن الزيادة في سورة الشعراء لمقابلة ما تقدم من قوله تعالى ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ٤٤] أي أن السحرة لما اعتقدوا أن لفرعون عزة قبل أن يؤمنوا بالله، وكان إثباتهم لها على وجه القسم يوجب مزيد الخوف منه، ناسب أن يقابلوا تهديده لهم - بعد إيمانهم بالله واعتقادهم أن العزة له وحده سبحانه - بنفي الضرر، ولذلك عدل إلى زيادة الجملة هنا فقيل: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي لا ضرر ولا خوف من فرعون^(٣). ولم يقع في سياق آية الأعراف كما وقع هنا من إثباتهم عزة لفرعون قبل إيمانهم، ولهذا كان المناسب نقص جملة ﴿لَا ضَيْرَ﴾ منها كما ذكر أبو جعفر^(٤).

وأبدى ابن جماعة وجهاً آخر، فقال: «لما كان الوعيد في الشعراء أشد ناسب مقابلتهم له بعدم التأثر به في مقابلة ما يرجونه عند الله تعالى»^(٥) يريد أن وعيد فرعون للسحرة في

(١) انظر: درة التنزيل: ٩٧، والبرهان: ١٦٢، وملاك التأويل: ١: ٢٥١ - ٢٥٢، وكشف المعاني: ١٤٩، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٨٠٢.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١٧٩ - ١٨٠، والبرهان: ٢٠١، وملاك التأويل: ١: ٤٤٩، وكشف المعاني: ١٨٧ - ١٨٨، والعقد الجميل: ٨٤ - ٨٥.

(٣) انظر: ملك التأويل: ١: ٤٤٩ - ٤٥٠، والبقاعي، نظم الدرر: ١٤: ٣٦.

(٤) انظر: ملك التأويل: ١: ٤٥٠.

(٥) كشف المعاني: ١٨٨.

سورة الشعراء أشد مما في الأعراف، فقد توعدهم في الأعراف بما أخبر تعالى عنه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكَ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِخُجُرَائِهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَبِّحَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤-١٢٣] وفي الشعراء بما أخبر تعالى عنه ﴿قَالَ ءَأَمِنْتُ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكَ إِنَّهُ لَكَيْدٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُسَبِّحَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩]، والوعيد في السورتين يكاد يكون واحداً كما هو ظاهر، وليس ما في الشعراء أشد مما في الأعراف كما قال ابن جماعة إلا إذا كان مراده ما تحزره زيادة لام الحال في الشعراء في ﴿فَلَسَوْفَ﴾ من تقريب زمن الفعل إلى الحال وتحقيق وقوعه وتأكيده^(١). على أنه لو صح أن هذا مراده فإنه يחדش فيه ما تحزره ﴿ثُمَّ﴾ في سورة الأعراف من ﴿ثُمَّ لَأُسَبِّحَنَّكُمْ﴾ من تعظيم وعيد فرعون، لأنها هنا كما ذكر أبو جعفر للتراخي في الرتبة، وهي التي يُقصد بها تعظيم حال ما عطف بها وموقعه، وأنه لو انفرد لكان كافياً في المقصود^(٢)، فتوجيه ابن جماعة إذن دون توجيه أبي جعفر والبقاعي إن لم يكن مردوداً.

يتبين مما تقدم أن العدول عن التشابه بالزوائد والنواقص الجميلية مراعى به تحقيق التناسب المعنوي ليكون كل من المتشابهين واقعاً موقعه الذي لا يحسن فيه غيره.

ومجمل القول أن العدول عن التشابه بالزوائد والنواقص على اختلاف أنواعها الحرفية واللفظية والجميلية مقصود به تحقيق التناسب المعنوي، وقد تأكد هذا فيما مر بنا من تعدد أوجه المناسبة في المثال الواحد مع إمكان إبداء أوجه أخرى عند التدبر المتأنى، مما يسمح بالقول إنه لولا العدول لما تحقق التناسب.

ثالثاً : العدول عن التشابه بالمقدم والمؤخر للتناسب المعنوي :

«المقدم والمؤخر» مصطلح لأصحاب المتشابه اللفظي، يوقعونه على كل ما تقدم في أحد المتشابهين وتأخر في الآخر، فهو أعم من التقديم والتأخير الذي لا يتجاوز الجملة

(١) انظر : درة التنزيل : ١٧٨ ، وملاك التأويل : ١ : ٤٤٧ .

(٢) انظر : ملاك التأويل : ١ : ٤٤٨ .

والقيود عند البيانين، فالأولى أن يُجعل التقديم والتأخير نوعاً من المقدم والمؤخر لا العكس كما فعل الزركشي وغيره^(١).

ومراعاة المناسبة المعنوية مقصودة في كل مقدم ومؤخر في القرآن الكريم، قال الطوفي (ت ٧١٦هـ): «ومن أمعن النظر وجد لكل تقديم وتأخير في القرآن مقتضياً مناسباً»^(٢) ومراده المقدم والمؤخر كما تدل أمثله. وقد ألف ابن الدهان (ت ٧٢١هـ) كتاباً كبيراً في ذلك كما ذكر الطوفي^(٣). فمراعاة المناسبة من أعم أغراض المقدم والمؤخر في القرآن، فهي والاهتمام - الذي هو أعم أغراض التقديم - سواء، وليست مندرجة تحته أو فرعاً من فروعه كما ذكر بعضهم^(٤)، فلا شك إذن في أن العدول عن التشابه بواسطة المقدم والمؤخر هو لرعاية التناسب المعنوي، هذا ما سيؤكد التطبيق الذي سنرتب أمثله على أربعة أنواع؛ مقدم ومؤخر الجملة والقيود، فالمتعاطفين، فالأخبار، فاللفظين المتباعدين.

أ. العدول بمقدم ومؤخر الجملة والقيود للتناسب المعنوي :

ونقصد بهذا ما قُدم وآخر من أحد ركني الجملة المسند والمسند إليه، أو من بعض قيودها كالمفعول والجار والمجرور ونحو ذلك.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة الحديد ﴿يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢] وفي سورة التحريم ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾^(٥) [التحريم: ٨] فالمتشابهان في الإخبار عن إكرام المؤمنين يوم القيامة بنور إيمانهم وأعمالهم الصالحة الذي يضيء لهم الصراط ويكون سبباً لنجاتهم^(٦)، وقد عبر القرآن عن ذلك بتقديم الفعل في سورة الحديد، وعدل عن ذلك إلى تأخيره في التحريم.

(١) انظر: الزركشي، البرهان: ٣: ٢٣٨ وقارن ب: ٢٨٤، وهو مسبوق بصنيع بعضهم كالطوفي في الإكسير: ٢١٦ وما بعدها وقارن ب: ١٥٤ وما بعدها.

(٢) الطوفي، الإكسير: ٢١٨.

(٣) انظر: السابق، والصفحة نفسها.

(٤) انظر: السيوطي، الإتقان: ٢: ٦٣٧ وما بعدها.

(٥) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٨٩٢ - ٨٩٣، والعقد الجميل: ١٤٣.

(٦) انظر: الأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ٢: ٦٣٣ و ٧٢٠، والزحيلي، د. وهبة، التفسير الوجيز ضمن الموسوعة القرآنية الميسرة: ٥٤٠ و ٥٦٢.

وتقدم الفعل على الفاعل يجعل الجملة فعلية، ويفيد تكرار الفعل وحدوثه مرة بعد مرة على سبيل التجدد، أما تأخره فيحيل الجملة اسمية، ويخلصها لإفادة الثبوت^(١).

وقد أبدى أبو جعفر بن الزبير وجهاً من أوجه مناسبة العدول هنا، فذكر أن آية الحديد في سياق بشارة المؤمنين، لقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَمْنٍ مِنْهُمْ بَشَرَكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾ [الحديد: ١٢] والبشارة يناسبها التجدد والحدوث، فكان تقديم الفعل فيها مناسباً؛ لتكون الجملة فعلية فتفهم التكرار والحدوث. أما آية التحريم فتقدم فيها قوله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: ٨] ومعية المؤمنين لنبيهم تفهم قرب منزلتهم وعلو حالهم وتقرر ثبوته، والمناسب لهذا أن يُعبر عن سعي نورهم بما يقتضي ثبوته وتقرره، ولذلك عدل إلى تأخير الفعل لتكون الجملة اسمية وتفيد ذلك الثبوت والتقرر^(٢).

وأشار البقاعي إلى وجه آخر اقتصر فيه على آية التحريم، فذكر أن سياقها لتعظيم النبي ﷺ، ورتب ذلك على جواز أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ من قوله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ [التحريم: ٨] مبتدأ خبره ﴿مَعَهُ﴾، فيكون إشارة إلى أن جميع الأنبياء ومن آمن بهم تحت لوائه ﷺ، وذلك غاية الشرف والتعظيم له ﷺ، فلما كان السياق لذلك اقتضت رعاية التناسب أن يقدم ﴿نُورُهُمْ﴾ في الذكر، ولذلك عدل إلى تأخير الفعل^(٣).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ﴾ [النحل: ١٤] وفي سورة فاطر ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ﴾^(٤) [فاطر: ١٢] فالمتشابهان في المنافع التي جعلها الله تعالى في البحر، ومنها أن تجري السفن فيه شاقة ماء مع صوت^(٥)، وقد عبر القرآن عن ذلك بتقديم المفعول الثاني ﴿مَوَاجِرَ﴾ على الظرف ﴿فِيهِ﴾ في سورة النحل، وعدل إلى تأخيره عنه في فاطر.

(١) انظر: ملاك التأويل: ٢: ٨٩٣.

(٢) انظر: السابق، والصفحة نفسها.

(٣) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ٢٠: ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٤) انظر: درة التنزيل: ٢٥٩، والبرهان: ٢٤٢، وملاك التأويل: ٢: ٥٩٦، وكشف المعاني: ٢٢٥ -

٢٢٦، والعقد الجميل: ١٠٩.

(٥) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١١: ١٢٥.

وتقديم ﴿مَوَاحِرَ﴾ هو الأصل لأن أصله الخبر، و﴿فِيهِ﴾ قيد له متعلق به، أما تأخير ﴿مَوَاحِرَ﴾ فليكون ﴿فِيهِ﴾ قيداً لـ ﴿تَكْرَى﴾^(١)، ويترتب على ذلك توجيه التنبيه في آية النحل إلى مكان المخر، وفي آية فاطر إلى مكان الرؤية.

وقد أبدى ابن جماعة وجهاً من أوجه مناسبة هذا العدول فذكر أن آية النحل سيقّت لتعداد نعمه تعالى على الخلق، لافتتاح الآية بقوله سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ [النحل: ١٤] فناسب الامتنان بهذا التسخير تقديم ﴿مَوَاحِرَ﴾ أي شاقة للماء على ﴿فِيهِ﴾^(٢). أما آية فاطر فسيقّت لبيان قدرته سبحانه وحكمته، لقوله تعالى فيما تقدم الآية ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾^(٣) الآية [فاطر: ١١] ثم بين ابن جماعة وجه العدول فقال: «وقدم ﴿فِيهِ﴾ على ﴿مَوَاحِرَ﴾ لأن شق الفلك للماء (بجريانه) فيه آية من آيات الله تعالى، (فالتقديم) فيه أنسب للفلك»^(٤) أي أنه لما كان السياق لبيان القدرة اقتضت مراعاة التناسب العدول إلى تقديم ﴿فِيهِ﴾، لأن تقديمه أدل على القدرة من تأخيرها؛ من حيث كان التقديم يقتضي توجيه التنبيه إلى استقرار السفن في البحر دون غرق، وكان التأخير يقتضي توجيه التنبيه إلى مخرها للماء. وبنحو هذا وبما ذكره ابن جماعة وجه البقاعي مناسبة العدول^(٥).

وأبدى الألوسي وجهاً آخر فيه بعض اتفاق مع ما سبق، وهو أن السياق البعيد لآية النحل في تعديد النعم، ويشير بذلك إلى ما تقدمها من لدن قوله تعالى ﴿وَاللَّائِمَةُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]، وإلى ما تلاها من قوله تعالى ﴿وَالْقَفَى فِي الْأَرْضِ رَوَى أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] إلى قوله ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، فلما كان هذا السياق لتعديد النعم كان الأهم كما ذكر الألوسي تقديم ما هو نعمة، وهو مخر الفلك للماء، فناسبه تقديم ﴿مَوَاحِرَ﴾. أما ما في آية فاطر فذكر أنه تقدمه قوله تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ

(١) انظر: درة التنزيل: ٢٦١ - ٢٦٢، والبرهان: ٢٤٢، والألوسي، روح المعاني: ٢٢: ١٨٠.

(٢) انظر: كشف المعاني: ٢٢٦.

(٣) انظر: السابق، والصفحة نفسها.

(٤) السابق: ٢٢٦، ووقع في الأصل لجريانه و فالتقدم، وما أثبتناه هو من نسخة كشف المعاني التي حققها عبد القادر عطا ونسبها إلى النووي، انظر: فتاوى الإمام النووي: ٢١٥.

(٥) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١١: ١٢٥، و١٦: ٢٥.

تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِرَ ﴿فاطر: ١٢﴾ فكان قوله ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِرَ﴾ مسوقاً للاستطراد في صفة البحرين وما فيهما من النعم، أو لتتمة التمثيل؛ لأنه مُثِّل بالبحرين العذب الفرات والملح الأجاج للمؤمن والكافر كما ذكر، على معنى أن البحرين وإن اشتركا في بعض الصفات متفاوتان فيما هو المقصود بالذات، لأن أحدهما شابته الملوحة فلم يُبقه على صفاء فطرته فكَذَلِكَ المؤمن والكافر كما ذكر، فلما كان ما في الآية مسوقاً لذلك الاستطراد أو لتلك التتمة من التمثيل ناسب العدول إلى تقديم ﴿فِيهِ﴾ إيذاناً بأن مخر الفلك للماء الذي هو نعمة ليس هو المقصود بالذات^(١).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة المؤمنين حكاية عن منكري البعث ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٣] وفي سورة النمل ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢) [النمل: ٦٨] فالمتشابهان حكاية عن منكري البعث من كفار مكة^(٣)، فالمحكي عنه واحد، ومع ذلك اختلفت الحكاية فعبّر القرآن أولاً بتقديم ذكر الآباء وتأخير اسم الإشارة المشار به إلى البعث، فقيل: ﴿نَحْنُ وَءَبَاؤُنَا هَذَا﴾، وعدل عنه ثانياً إلى تقديم اسم الإشارة وتأخير ذكر الآباء.

ذكر الزمخشري وغيره أن التقديم دال على أن المقدم هو المتعمد بالذكر، وأن الكلام سيق لأجله، فتقديم ذكر الآباء في آية المؤمنين دال على أن المتعمد بالذكر إيجاد المبعوث، وتأخيره بتقديم اسم الإشارة عليه في آية النمل دال على أن المتعمد بالذكر إيجاد البعث^(٤).

وقد أشار السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) - وتابعه الزركشي - إلى أحد أوجه المناسبة المقتضية للعدول، فذكر أن الجهة المنظور فيها في آية المؤمنين هي كون القائلين أنفسهم تراباً وعظاماً، لأنه تقدمها قوله تعالى ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾

(١) انظر: الألوسي، روح المعاني: ٢٢: ١٨٠.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٣١٧، والبرهان: ٢٧٧، وملاك التأويل: ٢: ٧٣٥ - ٧٣٦، وكشف المعاني: ٢٦٨.

(٣) انظر: الأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ٢: ٤٣ و ١٣٩.

(٤) انظر: الزمخشري، الكشاف: ٣: ١٥٨، والفخر الرازي، التفسير الكبير: ٢٤: ٢١٤، والنسفي، مدارك التنزيل: ٣: ٣٢٠، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: ٤: ٢١٣.

[المؤمنون: ٨٢]، بخلاف آية النمل فإن الجهة المنظور فيها هنا هي كون أنفسهم وآبائهم تراباً، لأنه تقدمها قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧] وكون أنفسهم مع آبائهم تراباً أدخل عندهم في تبعيد البعث من كونهم كذلك دون آبائهم، فكان الاعتناء بهذا التبعيد في آية النمل أكثر والاهتمام بذكره أشد^(١)، فاقترض إحرار التناسب العدول إلى تقديمه.

ومما يقوي مذهب السكاكي أن آية المؤمنين حكت استبعادهم البعث مع بقاء بقية منهم بعد الموت؛ وهي عظامهم، قال تعالى ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢] أما آية النمل فحكت استبعادهم له مع زوال كل أثر لهم بصيرورتهم تراباً بالكلية، قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]، ولا شك في أن استبعاده عندهم مع زوال كل أثر لهم أبلغ من استبعاده مع بقاء عظامهم مختلطة بالتراب، فكأنهم قالوا: أنخرج من التراب بعد أن زلنا نحن وآباؤنا فيه زوالاً كاملاً! لقد وعدنا هذا الإخراج نحن وآباؤنا. فمناسبة العدول على هذا أوضح شيء.

وأبدى أبو جعفر بن الزبير وجهاً آخر، ذهب فيه إلى أن آية المؤمنين تقدمها أن آباءهم أُنذروا كما أُنذروا هم، فناسب تقديم ذكر الآباء، ولم يتقدم آية النمل مثل ذلك، فناسب العدول إلى تأخير ذكرهم، قال أبو جعفر: «لما تقدم قبل آية المؤمنين قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] فتقدم التعريف في هذه الآية أن آباءهم قد جاءتهم الرسل وأنذروا كما أُنذر هؤلاء، فلهذا قالوا ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ [المؤمنون: ٨٣] ولما لم يتقدم في آية النمل ذكر إنذار آبائهم كان أهم شيء يُذكر الموعود الذي هو ﴿هَذَا﴾ فقالوا ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا﴾ [النمل: ٦٨]»^(٢).

وأبدى ابن جماعة وجهاً ثالثاً قريباً من سابقه، فقال مبتدئاً بآية المؤمنين: «لما تقدم هنا ذكر آبائهم بقوله تعالى ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨١] وهم آباؤهم، ناسب ذلك تقديم المؤكّد؛ وهو ﴿نَحْنُ﴾، ليعطف عليه الآباء المقدم ذكرهم، ثم تأخير المفعول

(١) انظر: السكاكي، مفتاح العلوم: ١٢٩، والزركشي، البرهان: ٣: ٢٨٤.

(٢) ملاك التأويل: ٢: ٧٣٦.

الموعود لهم جميعاً؛ وهو ﴿هَذَا﴾. وآية النمل لم يذكر فيها الأولون، بل قال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [النمل: ٦٧] فناسب تقديم المفعول (الموعود) «^(١)».

وأبدى البقاعي وجهاً آخر نظر فيه إلى مناسبة السورة، فقال في سورة المؤمنين: «ولما كان محط العناية في هذه السورة الخلق والإيجاد، والتهديد لأهل العناد، حكى عنهم أنهم قالوا ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا﴾ [المؤمنون: ٨٣] مقدماً قولهم ﴿نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا﴾ [المؤمنون: ٨٣] على قولهم ﴿هَذَا﴾ [المؤمنون: ٨٣] أي البعث ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، بخلاف النمل فإن محط العناية فيها الإيمان بالآخرة فلذلك قدم قوله ﴿هَذَا﴾ «^(٢)» ويريد بمحط العناية: المعنى الذي يؤول إليه أكثر المذكور في السورة من الألفاظ والآيات والقصص.

ويحتمل توجيه العدول بوجه آخر من التناسب؛ وهو أن القصد الذي بُنيت عليه آية المؤمنين هو الإخبار عن منكري البعث أنهم اتبعوا أسلافهم الذين هم آباؤهم وماثلوهم في الإنكار من غير نعي ذلك عليهم كما ذكر الألوسي^(٣)، قال تعالى ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨١، ٨٢] فكان تقديم ذكر الآباء مناسباً من منظورين، الأول أنه مناسب للقصد الذي بُنيت عليه الآية؛ وهو مماثلة كفار مكة لأبائهم فيما قالوه، والثاني أنه لما تقدم ذكر آبائهم المشار إليه بـ ﴿مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨١] على إنكار البعث في ﴿أَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢] كان المناسب أن يترتب على ذلك تقديم ذكر الآباء على اسم الإشارة المشار به إلى الإنكار في ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا هَذَا﴾ [المؤمنون: ٨٣]. أما آية النمل فالقصد الذي بُنيت عليه هو الإخبار عن شكهم في الآخرة وعدم إدراكهم لدلائلها، قال تعالى ﴿بَلْ أَذْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦] وحاصل ذلك الإخبار عن شكهم في البعث^(٤)، فكان أهم شيء في الحكاية عنهم تقديم ذكر البعث، ولذلك عدل إلى تقديم ﴿هَذَا﴾ المشار به إلى البعث، هذه مناسبة العدول من منظور القصد الذي بُنيت عليه الآية، أما من المنظور

(١) كشف المعاني: ٢٦٨، وقوله الموعود وقع في الأصل لموعود.

(٢) البقاعي، نظم الدرر: ١٣: ١٧٥، وانظر أيضاً: ١٤: ٢٠٦.

(٣) انظر: الألوسي، روح المعاني: ٢٠: ١٥.

(٤) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ٧: ٩٤.

الآخر فالأنه تقدم ذكر البعث فيما أشار إليه قوله تعالى ﴿بَلْ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦] على ذكر آبائهم في قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا﴾ [النمل: ٦٧]، فناسب أن يترتب على هذا التقديم العدول إلى تقديم ذكر البعث المشار إليه بـ ﴿هَذَا﴾ على ذكر الآباء، فقيل: ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا﴾ [النمل: ٦٨].

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤] وفي سورة إبراهيم ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾^(١) [إبراهيم: ١٨] فالمتشابهان في مثلين متقاربين، فالأول وارد في قوله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤] إلى قوله ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤] فالمعنى: أن مثل المنفق المرائي كمثل المنافقين في بطلان الثواب، لأن كلا منهما يظن أن له أعمالاً صالحة، ولكنهم يوم القيامة لا يحصلون على شيء من ثواب عملهم. والثاني وارد في قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] فالمعنى: أن مثل أعمال الكفار الصالحة كصلة الرحم والصدقة في ضياعها كمثل الرماد الذي أتت عليه الريح العاصفة، فكما لا يقدر الإنسان أن يحصل منه على شيء لا يقدر الكفار أن يحصلوا من ثواب أعمالهم على شيء في الآخرة^(٢). وقد عبر القرآن في الآية الأولى بتقديم ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾، وعدل إلى تأخيره في الثانية. والجار في قوله تعالى ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ من صلة القدرة كما ذكر الكرمانى؛ أي متعلق بها، و﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ صفة لـ ﴿شَيْءٍ﴾، فما في البقرة وارد على القياس^(٣).

(١) انظر: البرهان: ٢٣٥، وكشف المعاني: ١٢٠، والعقد الجميل: ٣٦.

(٢) انظر: الأنصاري، عبد الله، تجريد البيان: ١: ٩١ و ٥٤٨، والزحيلي، التفسير الوجيز: ٤٥ و ٢٥٨.

(٣) انظر: البرهان: ٢٣٥، وقد وقع فيه «صفة القدرة» بدل «صلة» وهو من تغيير المحقق، لأنه بعد أن أثبت التغيير في المتن علق في الحاشية ١٢ من الصفحة نفسها بقوله: «هذا ما يقتضيه السياق، وفي الأصلية: صلة» فأخطأ من حيث ظن أنه الصواب، لأن الذي يقتضيه السياق: صلة كما أثبتنا، قرن بكشف المعاني: ١٢٠، وببصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي: ١: ٢٧٠، وفتح الرحمن لذكرى الأنصاري: ٢٩٣، وهذان الأخيران ينقلان عن الكرمانى نقلاً حرفياً.

والوجه المناسب المقتضي لذلك العدول كما ذكر الكرمانى وابن جماعة وغيرهما هو أن المثل في البقرة للعامل، أي للمنفق المرائي، فكان تقديم نفي قدرته وصلتها أنسب. أما آية إبراهيم فالمثل فيها للعمل، لأن التقدير في قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] مثل أعمال الذين كفروا، فكان تقديم نفي الكسب أنسب^(١)، لأن الأهم في هذا السياق هو ثواب عملهم؛ أي ما كسبوا، فكانه قيل: لا يقدرّون من كسب ثواب عملهم خاصة على شيء، فلتحقيق هذه المناسبة عدل القرآن إلى تقديم الكسب وتأخير ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الرعد ﴿قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣] وفي سورة الإسراء ﴿قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الإسراء: ٩٦] وفي سورة العنكبوت ﴿قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾^(٢) [العنكبوت: ٥٢]، فالمتشابهات الثلاث تثبت لرسول الله ﷺ بأن يرد على من كذبه بهذا القول، أي كفت شهادة الله على صدقي فيما أبلغكم به، وقد قدم ﴿شَهِيدًا﴾ على الظرف في الأولين، وعدل عنه إلى التأخير في العنكبوت.

والأصل تقديم ﴿شَهِيدًا﴾ على الظرف كما وقع في الرعد والإسراء^(٣)، لأن الظرف قيد لـ ﴿شَهِيدًا﴾^(٤).

والمقتضي لذلك كما ذكر الكرمانى وابن جماعة مناسبة ما وقع في آية العنكبوت من قوله تعالى ﴿قُلْ كَفَى بِاللّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ يعلم ما في السموات والأرض [العنكبوت: ٥٢] فلما وُصف ﴿شَهِيدًا﴾ بـ ﴿يَعْلَمُ﴾ اقتضت المناسبة العدول إلى تأخيره لكيلا يحول حائل بين الصفة والموصوف، ولما لم يقع مثل ذلك في آيتي الرعد والإسراء كان

(١) انظر: البرهان: ٢٣٥، وكشف المعاني: ١٢٠، والبقاعي، نظم الدرر: ١٠: ٤١٠، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٥١٦.

(٢) انظر: البرهان: ٢٥٤، وكشف المعاني: ٢٣٥، والعقد الجميل: ٩٤.

(٣) انظر: البرهان: ٢٥٤، وكشف المعاني: ٢٣٦.

(٤) قال زكريا الأنصاري في فتح الرحمن: ٣٣٤ معللاً أصالة تقديم ﴿شَهِيدًا﴾ على الظرف في آية الإسراء: «لأن ما هنا جاء على الأصل من تقديم المفعول وهو غريب، لأن ﴿شَهِيدًا﴾ تمييز، فلعله أراد تقديم ما يشبه المفعول. وما ذكرناه أظهر.

المناسب مجيئهما على القياس، ففي آية الرعد ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وفي الإسراء ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾^(١) [الإسراء: ٩٦].

وأبدى البقاعي مقتضياً آخر، فذكر أن العناية في سورة العنكبوت - بخلاف سورتي الرعد والإسراء - بذكر الناس وتفصيل أحوالهم، فناسب العدول فيها إلى تقديم الظرف^(٢). والعناية بالناس وتفصيل أحوالهم ظاهرة في السورة كلها ولا سيما في مطلعها، فهو قوله تعالى ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] وقوله ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

توضح الأمثلة السابقة أن العدول عن التشابه في الجمل والقيود مقصود به وضع كل من المتشابهين في سياقه الأنسب له، وأن المناسبة متأكدة بتعدد الأوجه، وبحصولها من طرفي الآية كما يبين المثال الأخير.

ب. العدول بمقدم ومؤخر المتعاطفين للتناسب المعنوي :

والمقصود هنا المتعاطفان بالواو خاصة، لأنها تنفرد عن سائر حروف العطف بأنها لا تقتضي الترتيب على القول الأشهر^(٣)، فوجب البحث عن مناسبة العدول في ترتيب متعاطفيها، لأنها في القرآن الكريم مراعاة في كل موضع، وهذا ما قصده أبو جعفر بن الزبير بقوله: «والواو وإن كانت لا ترتب، فإنه لا يتقدم اللفظ في الكتاب العزيز ذكراً أو يتأخر إلا لموجب»^(٤).

وسنقسم أمثلة هذا العدول قسمين؛ نتناول في الأول المتعاطفين من المفردات، وفي الثاني المتعاطفين من الجمل.

(١) انظر: البرهان: ٢٥٤، وكشف المعاني: ٢٣٦.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١٤: ٤٦١، وقد سها - رحمه الله - فأشار إلى أن ما في العنكبوت مخالف لما في الرعد والأنعام، بدل الرعد والإسراء.

(٣) انظر: السيوطي، همع الهوامع: ٢: ١٢٩.

(٤) ملاك التأويل: ١: ٣١٤.

أ. العدول بمقدم ومؤخر المتعاطفين من المفردات :

ومن أمثلته قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] وفي سورة الإسراء ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾^(١) [الإسراء: ٣١] فالمتشابهان في النهي عن قتل الأولاد بضمان الرزق لهم ولآبائهم، وقد عبر القرآن في الأول بتقديم ضمير الآباء على الأبناء، وعدل في الثاني إلى العكس.

والمناسبة المقتضية للعدول كما ذكر جماعة أن سياق آية الأنعام يدل على أن الخطاب للفقراء، لقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١] أي بسبب فقر حال بكم، فكان رزقهم أهم عندهم من رزق أولادهم لخوفهم على أنفسهم إذا لزمتهم مؤونة الأولاد، فناسب تقديم ضميرهم. أما آية الإسراء فسياقها يدل على أن الخطاب للأغنياء، لقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] فهم يخشون الفقر في المستقبل لما يلزمهم من مؤونة أولادهم، فكان أهم شيء عند نهيمهم عن قتلهم أن يُضمن لهم رزق الأولاد؛ دون رزقهم لأنه حاصل، فناسب ذلك العدول إلى تقديم ضمير الأولاد وتأخير ضمير الآباء لحصول رزقهم وقت الخطاب^(٢).

وأشار بعض المفسرين المحدثين إلى وجه آخر، فقال مبتدئاً بآية الأنعام: «قدم في الأول رزق الوالدين على رزق الأولاد لأن الولد الصغير تابع لوالده في الرزق الحال، وقدم في الثاني رزق الأولاد على رزق الوالدين لتعلقه بالمستقبل، وكثيراً ما يعجز فيه الآباء عن كسب الرزق ويحتاجون إلى إنفاق أولادهم عليهم»^(٣) أي أن ما في الأنعام فقر واقع،

(١) انظر: درة التنزيل: ١٣٥، والبرهان: ١٧٨، وملاك التأويل: ١: ٣٥٣، وكشف المعاني: ١٦٩، والعقد الجميل: ٧٣.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١٣٦، والبرهان: ١٧٨، وابن أبي الإصبع، تحرير التحبير: ٥٦١، وملاك التأويل: ١: ٣٥٣ - ٣٥٤، وكشف المعاني: ١٦٩، والخطيب القزويني، الإيضاح ضمن شروح التلخيص: ٢: ١٦٣، وأبو حيان، البحر المحيط: ٤: ٢٥١، والزرکشي، البرهان: ٣: ٢٨٥، والبقاعي، نظم الدرر: ٧: ٣١٧، و١١: ٤٠٨ - ٤٠٩، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٩٥٨، ومعتزك الأقربان: ١: ٧٢، والإتقان: ٢: ٩٩٩، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: ٣: ٣٢٤، والآلوسي، روح المعاني: ٨: ٥٤، و١٥: ٦٦.

(٣) رضا، محمد رشيد، تفسير المنار: ٨: ١٢٤، وانظر أيضاً: ٨: ١٨٦.

فالأهم في هذه الحال ضمان رزق الوالد لأنه هو الكاسب^(١) لا الأولاد؛ لأنهم كانوا يئدونهم صغاراً، وهو المقصود بالنهي عن قتلهم، فناسب هذه الحال تقديم ضمير الآباء. أما آية الإسراء فالفقر فيها متوقع حصوله في المستقبل، وخوفه إنما هو على الأولاد^(٢)، فالأهم في هذه الحال ضمان رزقهم لا رزق آبائهم لأنهم هم الكاسبون^(٣)، فناسب تقديم ضميرهم بالعدول عما في آية الأنعام، وآخر ضمير آبائهم لأن الأولاد حينئذ كثيراً ما يكونون سبب رزق آبائهم^(٤).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة الحجر ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١] وفي سورة النمل ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٥) [النمل: ١] فالمتشابهان في الإشارة إلى آيات القرآن الكريم على سبيل المدح، وقد قدم لفظ ﴿الْكِتَابِ﴾ على ﴿قُرْآنٍ﴾ في الحجر، وعُدل إلى تأخيرها في النمل.

وفي المراد بالكتاب أقوال، ما يهمنا منها أنه القرآن نفسه - وهو الأشهر - وعليه يكون الجمع بين الوصفين لتفخيم شأن القرآن الكريم، ومنها أيضاً أنه اللوح المحفوظ^(٦)، وهو اختيار أبي جعفر بن الزبير، قال: «اسم الكتاب في سورة البقرة أو حيث وقع من فواتح هذه السور وأشير إليه بذلك أو تلك، أو وقع في غير الفواتح، فيصح أن يراد به فيها أو في بعضها اللوح المحفوظ، وأن تكون الإشارة إليه إذا شهد له السياق ووضح عليه النظم»^(٧).

وللعدول عدة مناسبات تقتضيه، الأولى أوضحها أبو جعفر بن الزبير، ومهد لها بما خلاصته أن تذكير العباد وتحريكهم للاعتبار في القرآن الكريم منحصر بضريين؛ أحدهما الآيات الحسية؛ أي الموجودات المدركة بالحواس كدلائل الآفاق وخلق الإنسان والنبات؛

(١) انظر: السابق: ٨ : ١٨٦.

(٢) انظر: درة التنزيل: ١٣٦.

(٣) انظر: رضا، محمد رشيد، تفسير المنار: ٨ : ١٨٦.

(٤) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: ٣ : ٣٢٤، والآلوسي، روح المعاني: ١٥ : ٦٦.

(٥) انظر: ملاك التأويل: ٢ : ٥٨٣، والعقد الجميل: ١٠٥.

(٦) انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: ٣ : ٢١١، و٤ : ١٨٥، والآلوسي، روح المعاني: ١٤ : ٣-٢، و١٩ : ١٥٥.

(٧) ملاك التأويل: ٢ : ٥٦٠.

فهو يُدرك بالعيان من آيات اللوح المحفوظ المتضمن للضربين، والآخر القصص التي يُعتبر منها بأحوال الأمم المتقدمة مع رسلها؛ فهو لا يتوصل إليه إلا من وجهة الخبر الصادق - وهو القرآن - وإن كان من مُضمّن اللوح المحفوظ، فذكر الكتاب والقرآن في المتشابهين إشارة إلى الضربين^(١).

ثم رتب أبو جعفر المناسبة على ذلك التمهيد فبين أن تقديم ذكر الكتاب في الحجر وتأخر ذكر القرآن لمناسبة ترتيب ما ذكر في السورة من معتبرات الضربين الحسي والقصصي، إذ تقدم الأول على الثاني، وهو المطابق لتقديم الكتاب على القرآن، قال أبو جعفر: «سورة الحجر لما قُدم فيها من الضربين الضرب المعتبر من آيات اللوح المحفوظ، فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الحجر: ١٦] إلى قوله ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ الآية [الحجر: ٢٢] ثم بعد ذلك ذكر مما به الاعتبار من الضرب الثاني في قوله تعالى ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفٍ إِتْرَاهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١] إلى قوله ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٤] فتأخر ما ورد في هذه السورة من هذا الضرب ليُطابق تأخر ذكره في قوله ﴿وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]»^(٢). ثم بين أن العدول في آية النمل إلى تقديم ذكر القرآن وتأخير ذكر الكتاب لمناسبة ترتيب المذكور في السورة من معتبرات الضربين القصصي فالحسي، قال: «ولما تقدم في سورة النمل من الاسمين المضاف إليهما خبر اسم الإشارة القرآن وتأخر الكتاب، فقال تعالى ﴿بَلَّغْ أَيْتَ الْفُرْقَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ١] قبل بتقديم الضرب المشار إليه أولاً، فقال تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَلْفَلَّيْ الْفُرْقَانِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ﴾ [النمل: ٧.٦] وذكر من القصة مجملًا (ما) إذا اعتُبر وفي بآتم ما يحصل المعتبر به على (أعلى) مقصود موفٍ بخلاصه، وذلك إلى قوله ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] ثم أتبع بقصة داود وسليمان وما استجر ذلك من قصة بلقيس وما تلاها، ثم أعقب بعد بالضرب الأخير، فقال تعالى ﴿أَمَنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ السَّمَكَاتِ﴾ [النمل: ٦٠] إلى قوله ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦]»^(٣).

(١) انظر: السابق: ٢: ٥٥٠ حتى ٥٥٥.

(٢) السابق: ٢: ٥٥٥.

(٣) السابق: ٢: ٥٥٥ - ٥٥٦، ووقع في الأصل أما بدل ما وهي الصواب كما أثبتنا، ويؤيده وقوعها في بعض نسخ المخطوط كما ذكر المحقق في الحاشية ٢ من الصفحة: ٥٥٦، ووقع في الأصل أيضاً أعلا وصوابه أعلى كما أثبتنا.

والمناسبة الثانية المقتضية للعدول أبقاها البقاعي، فقال في آية الحجر: «ولما كان الغالب في هذه السورة القطع الذي هو من لوازم الكتاب قدمه، وذلك أنه قطع بأمر الأجل والملائكة، وحفظ الكتاب والرمي بالشبه وكفاية المستهزئين»^(١). يشير على الترتيب إلى قوله تعالى ﴿مَا سَمِعُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعِزُّونَ﴾ [الحجر: ٥] وقوله ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] وقوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وقوله ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنْ أَسْرَفَ سَمِعَ فَأَبْعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦، ١٨] وقوله ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]. أما آية النمل فعدل فيها إلى تقديم ذكر القرآن لمناسبة السورة؛ من حيث كانت العناية فيها بالنشر، وهو من لوازم الجمع في مادة (قرأ) كما ذكر البقاعي، قال: «ولما كانت العناية في هذه السورة بالنشر - الذي هو من لوازم الجمع في مادة (قرأ) كما مضى بيانه في أول الحجر - أكثر، قُدم القرآن؛ يدل على ذلك انتشار أمر موسى عليه الصلاة والسلام في أكثر قصته بتفريقه من أمه، وخروجه من وطنه إلى مدين، ورجوعه مما صار إليه إلى ما كان فيه، والتماسه لأهله الهدى والصلى، واضطراب العصا وبث الخوف منها، وآية اليد وجميع الآيات التسع، واختيار التعبير بالقوم الذي أصل معناه القيام، وإبصار الآيات، وانتشار الهدى، وإخراج الخبء الذي منه تعليم منطق الطير وتكليم الدابة للناس، وانتشار المرأة وقومها وعرشها بعد تردد الرسل بينها وبين سليمان عليه الصلاة والسلام، وكشف الساق، وافتراق ثمود إلى فريقين مع الاختصام المشتت و(انتشار) قوم لوط عليه الصلاة والسلام إلى ما لا يحل، وتفريق الرياح نُشْراً، وتقسيم الرزق بين السماء والأرض، ومرور الجبال، ونشر الريح لنفخ الصور الناشئ عنه فزع الخلائق المبعثر للقبور، إلى غير ذلك مما إذا تدبرت السورة انفتح لك بابه»^(٢).

(١) البقاعي، نظم الدرر: ١١: ٣.

(٢) السابق: ١٤: ١٢٤، وانظر ما بينه من مادة قرأ في أول الحجر: ١١: ٦ حتى ١٠، ووقع في الأصل انتثام بالثاء والميم، ولا معنى له هنا لأن انتثم بمعنى تكلم بالقيح كما في القاموس: [نثم]: ٤: ١٨١، فما ذكرناه هو الصواب، ولا سيما أن مراجع التفسير ذكر في الحاشية ٥ من الصفحة: ١٢٤ أنه وقع في النسخة الأصلية للمخطوط انتشار وأن انتثام هو في بعض النسخ. وجدير بالبيان أن معنى «الصلى» الذي ورد ذكره في توجيه البقاعي: الوقود أو النار كما في القاموس: صلي: ٤: ٣٥٥، ومعنى «نُشْراً» أن الريح تشر السحاب وتجمعه كما ذكر البقاعي في نظم الدرر: ١٤: ١٩٣.

والمناسبة الثالثة المقتضية للعدول ما أبداه بعض المفسرين المحدثين من أن آية الحجر سياقها لتوبيخ الكافرين وتهديدهم بأنه سيجيء وقت يتمنون فيه أن لو كانوا مؤمنين، وهو قوله تعالى ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢] فلما وُجِّه الكلام إلى المنكرين كان الأنسب تقديم الصفة الأعم وهي كونه كتاباً، لأنهم حين جادلوا ما جادلوا إلا في كتاب، فقالوا فيما أخبر الله ﴿لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧] ولأنهم يعرفون ما عند اليهود والنصارى بصفة «كتاب» ويعرفونهم بصفته «أهل الكتاب». أما آية النمل ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فأتبعت بقوله تعالى ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢] فلما وُجِّه الكلام فيها إلى المؤمنين، وهم يقرؤون القرآن ويدرسونه، كان الأنسب العدول إلى تقديم صفة القرآنية^(١).

وكان الألوسي قد نبه على نحو ذلك مقتصرأً على توجيه آية النمل، فقال: «ولما عقبه سبحانه بالحديث عن الخصوص هنالك قدّم كونه قرآناً، لأنه أدل على خصوص المنزل على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم للإعجاز»^(٢) أي لما كانت الآية معقبة بأن المنزل يهتدي به المؤمنون خاصة لقوله ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢] ناسب العدول إلى تقديم ذكر القرآن، لدلالة هذا الاسم على المنزل على سيدنا رسول الله ﷺ خاصة.

ونقل الألوسي عن بعض المحققين مقتضياً آخر لذلك العدول فقال: «وجوّز أن يراد بالكتاب اللوح المحفوظ، وذكر أن تقديمه هنا باعتبار الوجود، وتأخيرها هناك باعتبار تعلق علمنا، لأننا إنما نعلم ثبوت ذلك من القرآن»^(٣) أي أن المقتضي للعدول مناسبة ترتيب المصحف، لأنه أراد أن المتقدم في الوجود كونه كتاباً في اللوح المحفوظ، والمتأخر علمنا بذلك، فناسب في المتقدم من المتشابهين - وهو ما في سورة الحجر المتقدمة في ترتيب المصحف - تقديم المتقدم في الوجود وهو الكتاب؛ أي اللوح المحفوظ، وناسب في المتأخر من المتشابهين - وهو ما في سورة النمل - العدول إلى تأخير كونه كتاباً لتأخر علمنا بذلك.

(١) انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير: ١٤ : ٩ - ١٠ .

(٢) الألوسي، روح المعاني: ١٤ : ٣.

(٣) السابق، والصفحة نفسها.

ولو قيل : - ناسب في الأول من المتشابهين تقديم الأول من الحالين، وهو الكتاب على أنه اللوح المحفوظ، وناسب في الثاني العدول إلى تقديم الثاني من الحالين وهو القرآن؛ لأن حال كونه مقروءاً حصلت بعد كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ - لكان أوضح وأوجه.

٢. العدول بمقدم ومؤخر المتعاطفين من الجمل :

ومن أمثلته قوله تعالى في سورة يونس ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨] وفي سورة الفرقان ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾^(١) [الفرقان: ٥٥] فالمتشابهان في الإخبار عن قبائح المشركين، وقد قدم الضر على النفع في الأول، وعُدل إلى تأخيره في الثاني.

ووجه ذلك كما نبه البقاعي أن سياق آية يونس للتهديد والتخويف، لقوله تعالى فيما سبقها ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣] ثم خُوفوا بأن أعمالهم منظورة مراقبة لكيلا يجرموا فيصيبهم ما أصاب من قبلهم، قال تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] ثم ألحق الوعيد بهم لتكذيبهم، قال تعالى ﴿فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّكُمْ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧] فلما كان السياق لهذا التهديد والتخويف، ناسبه عند الإخبار عن عبادتهم الأصنام تقديم الضر، فقال تعالى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾^(٢) [يونس: ١٨]. ومما يدخل في سياق التخويف أيضاً ما أبداه ابن جماعة من أنه وقع فيه أمره تعالى لرسوله ﷺ أن يرد على المشركين بقوله ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنَّ عَصِيَّتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥] فالمعنى : إني أخاف إن عصيت ربي أن يلحقني ضرر، فكان أنسب شيء لهذا تقديم ذكر الضر ليكون المعنى : ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم إن عصوه ولا ينفعهم إن أطاعوه^(٣). ثم كان «الموجب لتأخير ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾» [يونس: ١٨] في سورة يونس ما وُصل به من قولهم

(١) انظر : درة التنزيل : ٣٢٨، والبرهان : ٢٠٢ - ٢٠٣ و ٢٨٢، وملاك التأويل : ١ : ٤٨٤، وكشف المعاني : ٢٠٢.

(٢) انظر : البقاعي، نظم الدرر : ٩ : ٩١، وقارن ب ٨٥ - ٨٦ و ٩٠.

(٣) انظر : كشف المعاني : ٢٠٢.

﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فكأن قد قيل: ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويزعمون أن ذلك ينفعهم، ولم يكن ليناسب لو قيل: ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فتناسب الوارد من قوله ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨] بقوله ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]»^(١).

أما آية الفرقان فهي كما أشار جماعة في سياق التعداد نعمه سبحانه ونصبها شواهد ودلائل يهتدي المعبر بالنظر فيها، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُخْضِيَ بِهِ بَلَدَةَ مِثْنَا وَنُشْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسِي كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥: ٤٩] إلى أن قال ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤] فلما كان الحاصل من تلك النعم والدلائل نفعاً ناسب عند الإخبار عن عبادتهم الأصنام تقديم ذكر النفع^(٢) بالعدول عما وقع في آية الفرقان، لأنه صار في هذا السياق أهم.

وثمة وجه آخر ذكره الخطيب الإسكافي مقتصرأ على توجيه آية الفرقان، وتابعه عليه بعضهم، وهو أنه تقدم الآية معطوفات فُدم في كل اثنين منها الأفضل على الأنقص، وذلك قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣] وقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤] فقدم ذكر خلطة النسب على خلطة المصاهرة التي هي خلطة سبب، فلما جاء بعد هذا الإخبار عن عبادتهم الأصنام أوجبت مراعاة التناسب العدول إلى تقديم النفع على الضرر^(٣).

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] وفي سورة الأعراف ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ

(١) ملاك التأويل: ١: ٤٨٤، وانظر: السيوطي، معترك الأقران: ٣: ٢٨٨.

(٢) انظر: البرهان: ٢٠٣، وملاك التأويل: ١: ٤٨٤ - ٤٨٥، وكشف المعاني: ٢٠٢، وأبو حيان، البحر المحيط: ٤: ٤٣٦، والزركشي، البرهان: ١: ١٢٣، والبقاعي، نظم الدرر: ١٣: ٤٠٩، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ١٠٧٢.

(٣) انظر: درة التنزيل: ٣٢٨، والبرهان: ٢٨٢، والآلوسي، روح المعاني: ٩: ١٣٦.

لَكُمْ^(١) [الأعراف: ١٦١] فالمتشابهان في قصة واحدة قصة قدماء بني إسرائيل، وقد أخبر تعالى فيها عن أنهم أمروا بدخول باب القرية - وهي بيت المقدس - ساجدين مستغفرين بأن تُحَظَّ عنهم ذنوبهم. ومع أن القصة واحدة، والأمر واحد، قُدم الأمر بالسجود على الأمر بالدعاء؛ أي بقولهم حطة، في سورة البقرة، وعُدل عنه في الأعراف إلى العكس.

وفي ذلك أوجه؛ أحدها ما نبه عليه الكرمانى وغيره من أن آية البقرة افتتحت بقوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨] فلما تقدم أمرهم بدخولها كان الأهم بيان كيفية الدخول، فناسب تقديم دخول بابها على هيئة السجود، فالباب كالبديل من القرية أعيد معه الفعل، كأنه قيل: ادخلوا هذه القرية بابها. أما آية الأعراف فافتتحت بالأمر بالسكنى، قال تعالى ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [الأعراف: ١٦١] فهذا لا يقتضى تقديم دخول الباب^(٢)، بل لم يعد الأمر بالدخول هاماً هنا لضمان أنها صارت مسكنهم، وإنما صار الأهم تقديم الأمر بالاستغفار ليكون استغفارهم بمنزلة الشكر على نعمة السكنى، فافتضى هذا العدول إلى تقديم ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ وتأخير الأمر بدخول الباب.

والوجه الآخر ما أبداه أبو حيان من أنه لما كان المحكي في البقرة مبدأ دخول القرية كان الأقوى في إظهار الخضوع هو الأهم، فناسب تقديم ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ لأنه أقوى في ذلك الإظهار من قول حطة؛ من حيث كان الدخول فعلاً والدعاء بحطة قولاً^(٣)، وذلك بخلاف ما في الأعراف لأن المحكي هناك الأمر بالسكنى، والسكنى تقع بعد الدخول، فناسب العدول إلى تقديم ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾؛ لأن كونه أخف في إظهار الخضوع يجعله أنسب بالسكنى لامتدادها.

والوجه الثالث منظور فيه إلى مناسبة السياق البعيد؛ وهو كما نبه ابن جماعة والبقاعي أن سياق آية البقرة لتذكير بني إسرائيل بنعمه تعالى عليهم، وذلك من لدن قوله تعالى ﴿يَبْنَ

(١) انظر: درة التنزيل: ١٤ - ١٥، والبرهان: ١٢٣، وملاك التأويل: ١: ٥٨، وكشف المعاني: ٩٦، والعقد الجميل: ١١.

(٢) انظر: البرهان: ١٢٣، وأبو حيان، البحر المحيط: ٤: ٤٠٩، والسيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٥٧.

(٣) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ٤: ٤٠٩.

إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴿٤٧﴾ [البقرة: ٤٧] فكان الأنسب لهذا السياق تقديم السجود لأنه أقرب مقرب إلى الرضا، وتأخير ذكر ﴿حِطَّةٌ﴾ لإشعارها بالذنب. أما آية الأعراف ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَخْلَلْنَاكِ إِنَّهَا هِيَ كَمَا عَلَّمْنَاكِ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فكان الأنسب لهذا السياق تقديم ذكر ما يشعر بعظيم ما تحملوه من الآثام وهو ﴿حِطَّةٌ﴾، ولذلك عدل إلى تقديمها وتأخير السجود^(١).

وثمة وجه آخر منظور فيه إلى مناسبة ترتيب المصحف، نبه عليه أبو جعفر بن الزبير؛ وهو أن ﴿حِطَّةٌ﴾ دعاء أمروا به في سجودهم، فأخر في البقرة وقدم في الأعراف ليدل على أنه طلب منهم قوله في حال سجودهم لا قبله ولا بعده، فناسب في المتقدم من المتشابهين تقديم الأمر بالسجود، لأن ابتداء متقدم على ابتداء الدعاء؛ أي الاستغفار بقولهم حطة^(٢)، وناسب في المتأخر من المتشابهين العدول إلى تقديم الأمر بالدعاء وتأخير الأمر بالسجود، لأنهما وإن حصلا معاً فالانتهاء من السجود متأخر عن الانتهاء من الدعاء ولو لحظات.

يتبين من الأمثلة السابقة أن العدول عن التشابه بواسطة مقدم ومؤخر المتعاطفين من المفردات والجمل مراعى به تحقيق التناسب، وأن كون المتشابهين بمعنى واحد لعدم اقتضاء الواو الترتيب يدل على أنه لولا قصد التناسب لم يعدل عن التشابه.

ج. العدول بمقدم ومؤخر الأخبار للتناسب المعنوي :

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] وفي سورة غافر ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^(٣) [غافر: ٦٢] فالمتشابهان في تأكيد وحدانية الله تعالى وتفرده بالخلق، وقد قدم في الأول خبر الوحداية على خبر الخلق، وعُدل في الثاني إلى العكس.

(١) انظر: كشف المعاني: ٩٧، والبقاعي، نظم الدرر: ١: ٣٩٣، و٨: ١٣٦، وانظر أيضا: السيوطي، قطف الأزهار: ١: ٢٥٦-٢٥٧، ومعتزك الأقران: ١: ٦٨، والإيتقان: ٢: ٩٩٧.

(٢) انظر: ملاك التأويل: ١: ٦٠-٦١.

(٣) انظر: درة التنزيل: ١٢٧، والبرهان: ١٧٦، وملاك التأويل: ١: ٣٤١، وكشف المعاني: ١٦٤، والعقد الجميل: ٧٠.

وحاصل ما ذكره جماعة من توجيه ذلك العدول أن آية الأنعام تقدمها قوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُم بَيْنَ وَبَيْنَ يَغْيَرِ عَلَيْهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٠] وقوله ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١] فناسب تقديم وحدانيته، لأن الأهم في هذا السياق نفي ما جعلوا لله من الشركاء وما ادعوا له من الصاحبة والولد. أما آية الأعراف ف وقعت في سياق الكلام على الخلق ونعم الله فيه، قال تعالى ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] وقال ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ آيَاتٍ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالتَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر: ٦١] فكان الأهم في هذا السياق التعريف بأنه ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فافتضت المناسبة العدول إلى تقديمه^(١). ورأى بعضهم أنه لمناسبة المقصود من الكلام على الخلق والنعم الذي هو الرد على منكري البعث والاستدلال بالنعم التي خلقها على الساعة التي ينكرونها^(٢)، لقوله تعالى فيما تخلل الكلام على الخلق والنعم ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

وأبدى البقاعي وجهاً نظر فيه إلى مفتتح السورة؛ وهو أنه لما كانت سورة الأنعام مفتتحة بقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] وكان «الحمد» دالاً على الإحاطة بأوصاف الكمال له تعالى ناسب تقدمه تقديم التوحيد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنه لازم للإحاطة بأوصاف الكمال، وناسب تأخر الخلق في مفتتح السورة ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] تأخير التعريف بأنه ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]. أما آية غافر فلما كانت سورتها مفتتحة بقوله تعالى ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢] وكان «العزیز» دالاً على كمال قدرته تعالى على الإيجاد والإعدام، ناسب تقدمه تقديم ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وناسب تأخر «العليم» الذي هو المتوحد بكمال الذات لاستلزام إحاطة

(١) انظر: درة التنزيل: ١٢٧، والبرهان: ١٧٦، وملاك التأويل: ١: ٣٤١-٣٤٢، وكشف المعاني: ١٦٤ - ١٦٥، والبقاعي، نظم الدرر: ١٧: ١٠٣، والسبوطي، قطف الأزهار: ٢: ٩٢٠-٩٢١، والآلوسي، روح المعاني: ٧: ٢٤٤، ورضا، محمد رشيد، تفسير المنار: ٧: ٦٥١.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ١٧: ١٠٣، والآلوسي، روح المعاني: ٢٤: ٨٣.

العلم كل كمال، ناسب تأخره تأخير ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^(١). ولذلك عدل عن مشابهه الواقع في الأنعام.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى في سورة التوبة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] وفي سورة هود ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ﴾^(٢) [هود: ٧٥] فالمتشابهان في مدحه عليه السلام بصفتي كثرة التأوه والحلم، والأول وارد في الإخبار عن حاله عليه السلام مع أبيه المشرك، والثاني في أثناء قصته وقصة قوم لوط عليه السلام، وقد قدم «أواه» في الأول، وعدل عن ذلك في الثاني إلى تقديم «حليم».

والمناسبة المقتضية لذلك كما ذكر أبو جعفر بن الزبير أن ما في التوبة وقع في سياق الإخبار عن تحسر إبراهيم على إباء أبيه اتباعه، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْقَارًا لِّإِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] فكان الأهم بعد الإخبار بتبرئه منه الإخبار بأنه كان يتأوه تأسفاً وتحسراً على ما آلت إليه حال أبيه من انقطاع الرجاء عن الإيمان، فناسب ذلك تقديم وصفه بـ «أواه». أما ما في هود فوقع في سياق الإخبار عن مجادلته عليه السلام الملائكة في تأخير العذاب عن قوم لوط عليه السلام لعلهم يؤمنون؛ وهو قوله تعالى ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ﴾ [هود: ٧٤. ٧٥] فلما دلت المجادلة على حلمه اقتضت مراعاة التناسب العدول إلى تقديمه^(٣).

يبين ما تقدم أن العدول عن التشابه بتقديم أحد الخبرين على الآخر مقصود به تحقيق التناسب المعنوي في نظم كلا المتشابهين، وأنه لولا العدول لما تحقق التناسب، لأن وحدة المعنى في كليهما تجيز وقوع أحدهما موقع الآخر، فكان يمكن أن يتكرر الأول بنصه ولكن ذلك مخلٌ بالتناسب، ولذلك عدل عنه.

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ٧: ٢١٨، و١٧: ١٠٣.

(٢) انظر: البرهان: ٢٢٣ - ٢٢٤، وملاك التأويل: ١: ٤٧٧، والعقد الجميل: ٩١.

(٣) انظر «ملاك التأويل» ١: ٤٧٧ - ٤٧٨، وانظر تفسير آية هود ٧٤ في تجريد البيان لعبد الله الأنصاري:

١: ٤٨٢، والتفسير الوجيز لد. وهبة الزحيلي: ٢٣١.

د. العدول بمقدم ومؤخر المتباعين للتناسب المعنوي :

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة النساء ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُونًا قَوْمِينَ يَلْقَسُ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥] وفي سورة المائدة ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُونًا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ يَلْقَسُ﴾^(١) [المائدة: ٨] فالمتشابهان أمر للمؤمنين بالقيام بالعدل مخلصين فيه لله، الأول في حال الشهادة على الظالم، والثاني في حال الحكم بين الناس، وقد قدم ﴿يَلْقَسُ﴾ وآخر ﴿لِلَّهِ﴾ في الأول، وعدل إلى العكس في الثاني.

والمقتضي للعدول أوجه من المناسبة؛ الأول مانبه عليه الخطيب الإسكافي وغيره من أن تقديم ﴿يَلْقَسُ﴾ في آية النساء لتعلقه بـ ﴿قَوْمِينَ﴾ لأن فعله يتعدى بالباء، وتأخير ﴿لِلَّهِ﴾ لتعلقه بـ ﴿شُهَدَاءَ﴾ أي شهداء لله لا للهوى والميل إلى ذوي القربى، بدليل ما اتصل به من قوله تعالى ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥] فالمعنى قوموا بالعدل في حال شهادتكم لله وإن كانت الشهادة عليكم أو على الوالدين وذوي القربى منكم. أما آية المائدة ففحواها يدل على أن الخطاب فيها لولاة الأحكام كما رأى الخطيب الإسكافي واستدل بما اتصل بها من قوله تعالى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] أي اعدلوا في الحكم مع جميع الناس فلا تتركوه مع من تبغضون، فلما كان الخطاب فيها للولاة كان أمرهم بأن يكون حكمهم لله لا لنفع أهم من أمرهم بأن يقوموا بالعدل، لأنهم لم يلوا الحكم إلا ليقوموا به، فاقترضت مراعاة التناسب العدول إلى تقديم ﴿لِلَّهِ﴾، فصار المعنى: قوموا لأجل طاعة الله بالعدل والحكم فيه حال كونكم شهداء؛ أي وسائط بين الخالق والخلق^(٢).

والثاني ما نبه عليه أبو حيان. وتابعه جماعة. وهو أن آية النساء جاءت في معرض اعتراف المؤمن على نفسه وعلى والديه وأقربائه، لقوله تعالى ﴿كُونُوا قَوْمِينَ يَلْقَسُ شُهَدَاءَ لِلَّهِ

(١) انظر: درة التنزيل: ٨٤، والبرهان: ١٥٧، وملاك التأويل: ١: ٢٢١، وكشف المعاني: ١٤٢، والعقد الجميل: ٥٤.

(٢) انظر: درة التنزيل: ٨٤ - ٨٥، والبرهان: ١٥٧، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٧٦٣.

وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴿١٣٥﴾ [النساء: ١٣٥] ولما كانت محبة النفس ومحابة الأقارب كثيراً ما تحول دون العدل، كان الاهتمام به أكد، وتقديمه أنسب. أما آية المائدة فجاءت في معرض ترك العداوات والإحن، لقوله تعالى ﴿كُونُوا قَوْمِيكَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] ولما كان البغض قد يحمل على ترك العدل كما أشار قوله ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا﴾ تأكد الاهتمام بما يردع المؤمنين عن ذلك؛ وهو أن يكونوا قوامين لله تعالى لا للانتقام، فاقتضت مراعاة التناسب العدول إلى تقديم ﴿لِلَّهِ﴾^(١).

والثالث منظور فيه إلى السياق البعيد، وحاصل من جملة ما ذكره غير واحد؛ وهو أن آية النساء وردت عقب آيات القضاء في الحقوق من لدن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] وورد بعد ذلك بآيات قوله تعالى ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] وتلا ذلك آيات في المعاملة بين الرجال والنساء واليتامى، نحو قوله ﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: ١٢٧] ثم قوله ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٢٧] ثم قوله ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ [النساء: ١٢٨] فنشوز الرجال وإعراضهم عن نسائهم، والصالح على مال في ﴿أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ وإصلاح حال الزوجين في ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ والإحسان إلى النساء، ثم التصريح بالعدل في ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ١٢٩] وغير ذلك، كله من باب العدل لا الشهادة، فناسب تقديم ﴿بِالْقِسْطِ﴾ وهو العدل، فالمعنى: قوموا بالعدل بين الأزواج وغيرهن، واشهدوا لله لا لمراعاة نفس أو قرابة. أما آية المائدة فوردت بعد أحكام تتعلق بالدين والوفاء بالعهود والمواثيق من لدن مطلع السورة، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] ثم قال ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمُةُ الْإِنْعَمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [المائدة: ١] ثم قال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ﴾ الآية [المائدة: ٢] ثم قال

(١) انظر: أبو حيان، البحر المحيط: ٣: ٤٤٠، والبقاعي، نظم الدرر: ٦: ٤١، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٧٩٣، والآلوسي، روح المعاني: ٦: ٨٣.

﴿حَرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةَ وَالَّذِينَ وَلِحَمُّ الْخَنَازِيرِ﴾ الآية [المائدة: ٣] ثم قال ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ كُلُّ حَلَالٍ﴾ الآية [المائدة: ٤] ثم قال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ الآية [المائدة: ٦] إلى أن قال قبل الآية التي وقع فيها العدول ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّفَقْتُمْ بِهِ﴾ [المائدة: ٧]، فلما كانت هذه الآيات متضمنة جملة من الأحكام المأمور بها والمنهي عنها كان المقام الأول للحض على القيام لله، فاقترضت مراعاة التناسب العدول إلى تقديم ﴿لِلَّهِ﴾ وتأخير ذكر ﴿بِالْقِسْطِ﴾ لينبني عليه ما أتبع به من ذكر العداوة في قوله تعالى ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨] فصار المعنى: كونوا قوامين بما أمرتم ونهيتهم لله، وإذا شهدتم فاشهدوا بالعدل لا بما يحمل عليه البغض من اتباع الهوى^(١).

والرابع منظور فيه إلى مناسبة السورة، فإن سورة النساء داعية إلى فضيلتين إحداهما العدل^(٢)، فناسب فيها تقديم ﴿بِالْقِسْطِ﴾، بخلاف المائدة فإنها مبنية على الوفاء بالعهد الوثيق، فناسب فيها العدول إلى تقديم ﴿لِلَّهِ﴾، قال البقاعي في سورة النساء: «ولما كان من أعظم مباني هذه السورة العدل قدمه، فقال ﴿بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥] بخلاف ما يأتي في المائدة فإن النظر فيها إلى الوفاء الذي إنما يكون بالنظر إلى الموفى له»^(٣) وقال في سورة المائدة: «ولما كان مبنى السورة على الوفاء بالعهد الوثيق، وكان الوفاء بذلك إنما يخف على النفوس ويصح النشاط فيه ويعظم العزم عليه بالتذكر بجلالة موثقه وعدم انتهاك حرمة، لأن (المعاهدة إنما تكون) باسمه ولحفظ حده ورسمه، قدم قوله ﴿لِلَّهِ﴾ [المائدة: ٨]»^(٤).

فقد اتضح بما تقدم من أمثلة أن العدول عن التشابه بواسطة المقدم والمؤخر كغيره من أنواع العدول مقصود به تحقيق التناسب المعنوي في المتشابهين على أتم وجه.

(١) انظر: ملاك التأويل: ١: ٢٢١، وكشف المعاني: ١٤٢، وأبو حيان، البحر المحيط: ٣: ٤٤٠، والبقاعي، نظم الدرر: ٦: ٤١، والسيوطي، قطف الأزهار: ٢: ٧٦٣ و ٧٩٣، ومعتزك الأقران: ٣: ١٤٢، وابن عاشور، محمد بن الطاهر، تفسير التحرير والتنوير: ٦: ١٣٤ - ١٣٥.

(٢) انظر: البقاعي، نظم الدرر: ٥: ١٧٢.

(٣) السابق: ٥: ٤٣١.

(٤) السابق: ٦: ٤٠، وما وضعناه بين قوسين هو في الأصل المعاهد إنما يكون، وصوابه ما أثبتناه.

وصفوة القول أن العدول عن التشابه بواسطة المبدلات أو الزوائد والنواقص أو المقدم والمؤخر مراعى به تحقيق التناسب المعنوي في النظم تحقيقاً معجزاً، إذ يُتوخى بهذا العدول أن يكون كل من المتشابهين واقعاً موقعه الأخص به الذي لا يحسن فيه غيره ولو كان طبق معناه، كما تجلى ذلك في العدول عن التشابه بمقدم ومؤخر المتعاطفين، وكما تأكد بتعدد أوجه المناسبة في المثال الواحد وتنوعها وحصولها من السياق القريب والبعيد ومن طرفيه القبلي والبعدي، مما يدل دلالة قاطعة على أنه لولا العدول لاختل هذا التناسب ولم يتحقق الإعجاز.